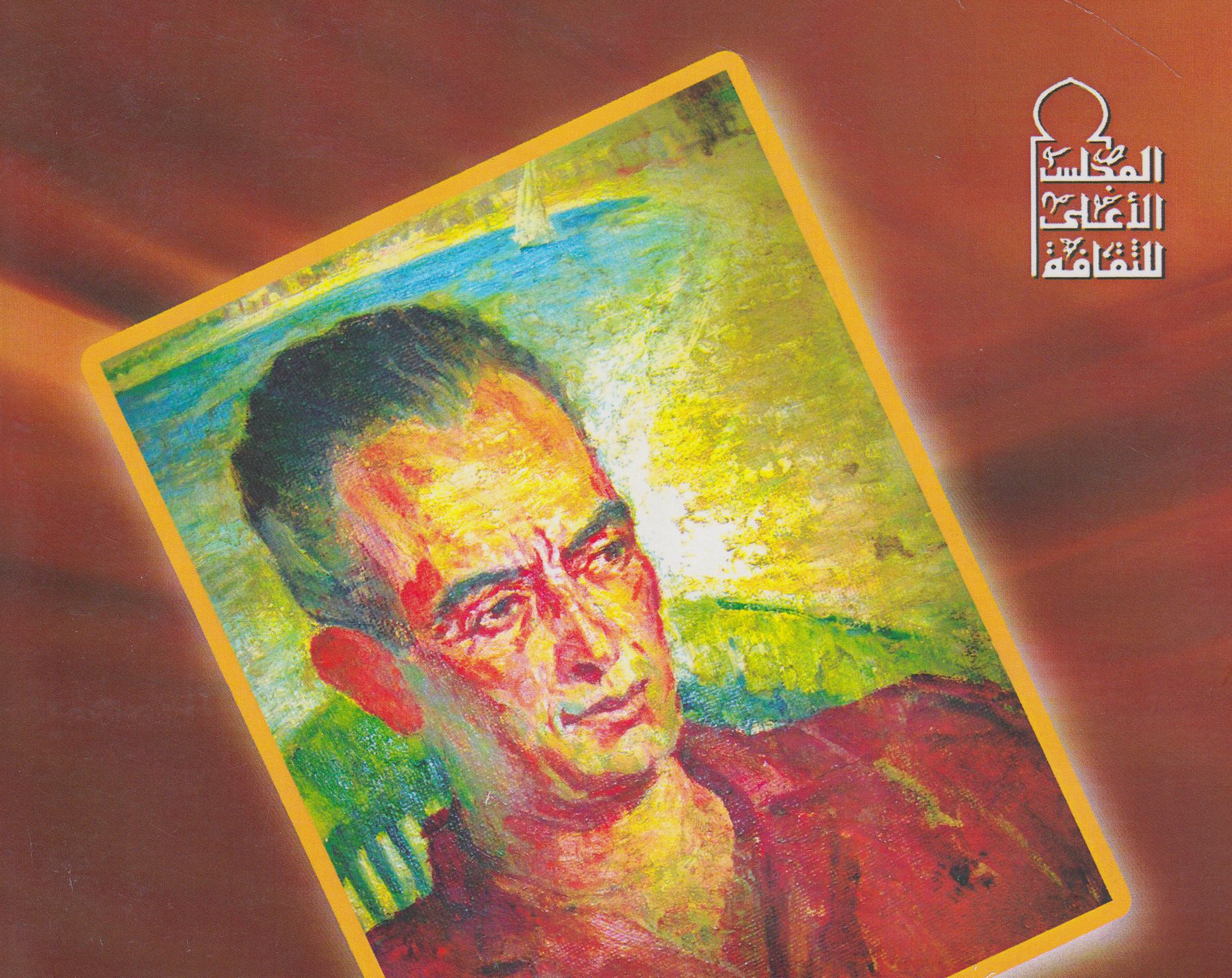
سعد كامل
الثقافة الجماهيرية

عز الدين كامل



المجلس
الأعلى
للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

سعد كامل

الثقافة الجماهيرية

مسيرة نصف قرن

عز الدين كامل



٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كامل ، عز الدين

سعد كامل ومسيرة الثقافة الجماهيرية فى نصف قرن / عز الدين كامل .

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط١ - ٢٠١٠

٣١٦ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - الرجال - تراجم .

أ - العنوان ٩٧٢٠,٧١

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٢٦٣٦
الترقيم الدولى : (I.S.B.N 978-977-479-737-5)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084.

www.scc.gov.eg

إهداء

الزمان.. منتصف عام ١٩٥٩.

المكان.. داخل إحدى غرف مستشفى الدمرداش حيث يرقد أحد سجناء الرأى فى ذلك الوقت، وكان حارسه قد ترك سلاحه وذهب ليلعب الورق مع مرضى العنبر المجاور.. فجأة وعلى غير توقع يدخل الغرفة الدكتور ثروت عكاشة وزير ثقافة مصر آنذاك ليلتقى مع السجين سعد كامل ويتحاورا أكثر من ساعتين فى ود ومحبة.

مبادرة لا يستطيع أن يقوم بها سوى ثروت عكاشة الذى ترك بصمات واضحة فى حقل الثقافة المصرى.

أهدى كتابى هذا إلى الدكتور ثروت عكاشة، تقديراً لجهوده المخلصة لميلاد حركة ثقافية مؤثرة فى وجدان الشعب المصرى.

عز الدين كامل

فبراير ٢٠٠٨

تقديم... لا بد منه

السيرة الذاتية للإنسان - أى إنسان - هى خلاصة تجربة حياته، وهى بالضرورة تكشف لمن يقف عليها، صورة لكل ما يدور فى المجتمع - الزمان، المكان، الناس - الذى يحياه صاحبها، وعلى ذلك فهى لا تقتصر على أنها رحلة ذاتية، بل إنها تعبر عن رحلة جيل بكامله، خاصة وإن كان صاحبها يحيا حقبة من حقبات الزمن، الذى تثور وتفور فيه الأحداث، وتجعله الظروف المحيطة به فى القلب منها.

لذلك كان دائمًا ما يراودنى أن أكتب السيرة الذاتية أو مذكرات حياتى، أكتبها فقد يجد من يقرأها ما يراه مفيدا، خاصة وأننى من مواليد العشرينيات من القرن الماضى، الذين وإن لم يشاركوا فى ثورة ١٩١٩ ولكنهم أحسوا أنهم« الوريث الشرعى» لكل مكاسبها وإنجازاتها، سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الثقافى، أو حتى الحياتى العادى، إنه الجيل الذى كان يهدف إلى الخلاص من نير الاستعمار البريطانى، ومن الأسرة الحاكمة، والقضاء على كل مظاهر الإقطاع.

جيل كانت بداية مسيرته الانبهار بالفاشية وما حققته من إنجازات سريعة فى أوروبا، مؤمنا بالكفاح المسلح ثم تحول بعد الحرب إلى الإيمان بالاشتراكية والديمقراطية، ثم قامت وهم فى عز الشباب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتنفتح أمامهم قيمة الإنتاج تحت شعار من الإبرة للصاروخ، وبالفعل قد تحقق الكثير من الإنجازات، وأصبحت مصر فى موضع الريادة عالميا وعربيا وبدأنا نشعر بالزهو والازدهار على الصعيد الاقتصادى والسياسى والثقافى، لقد استطاع عبدالناصر أن يرسخ فى وجدان الشعب أن الأحلام فى طريقها لتصبح حقائق ملموسة. ثم جاء زلزال - يونيو ١٩٦٧ - لتتحطم معه كل العقائد والقيم والمثل التى آمن بها أبناء هذا الجيل، لقد تحطمت النفوس وأصبح المصريون، كل المصريين تائهين، لا يعرفون كيف بدأت الأمور

وإلى أين تتجه الأحداث، لقد فقدنا كمصريين الكثير.. لقد فقدنا كل شيء وأصبحنا في حاجة لمن يأخذ بيدنا ويقدم لنا الاجابة عن العديد من الأسئلة: ماذا جرى؟ ماذا حدث؟ هل كنا مغيبين؟ هل كنا شعبا مظلومين؟ أم مشاركين في تلك الجريمة البشعة؟ وهل هناك أمل في الخروج من تلك الدوامة؟

و.. و.. وأسئلة عديدة أخرى أخذ يرددها الملايين، من كافة الاتجاهات السياسية والاجتماعية، ومازلنا رغم مرور أكثر من أربعين عاما على هزيمة يونيه فمازالت آثارها ملموسة على كافة القطاعات.

الشعب في انتظار من يجيبه عن تساؤلاته: لقد تمكن العديد من الدول كألمانيا مثلا التي منيت بهزيمة ساحقة في الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها أمكنها أن تسترد كل شيء خلال أقل من عشرين عاما وأصبحت الآن دولة عظمى تشارك في بناء أوروبا الموحدة.

المهم أنني قد بدأت أكتب مذكراتي، ولكني ترددت ثم توقفت تماماً وقررت أن أغير المسار، فقد وجدت أن أخي – سعد كامل – والذي يكبرني بسنوات قليلة، قد اعتزل الحياة العامة (لظروفه الصحية) فهو لم ولن يكتب مذكراته، في حين أن مسيرة حياته كانت مليئة بالأحداث والمشاركات الإيجابية.

لقد وجدت في مسيرة حياته صورة مجسمة وأكثر صدقاً لأحد أبناء هذا الجيل، أعني الجيل الذي كان منه جمال عبدالناصر، وأنور السادات، وثروت عكاشة، وعبدالرحمن الشرقاوي، وحسن فؤاد، وعبد الغني أبو العينين، وكمال عبدالحليم، ومن يليهم أمثال يوسف إدريس، وصلاح جاهين، وعبدالحليم حافظ، وشريف حتاتة، ود. أحمد عكاشة، وغيرهم، فالكثير منهم كان في المقدمة ومنهم من كان مسانداً للثورة ومشاركاً في كل الأحداث.

لقد شعرت بتشابه كبير في «رحلة العمر» مع فارق أن رحلته هي الأكثر عمقاً واتساعاً، وفيها ما يمكن أن يكون أكثر وضوحاً للإجابة عن الأسئلة التي تتردد في الصدور.

لقد عاصرت وعايشت الكثير من أحداث هذا الجيل ولكن لا أستطيع أن أدعى أننى كنت ملمًا بكل التفاصيل والخبايا اللازمة لسرد الحقائق كاملة... ولذا كان لزامًا أن أطلب شهادة كل من شاركوا فى الأحداث... وبدأت بالأستاذ عصام رضوان المحامى - نجل الأستاذ فتحى رضوان - ولقد كانت بداية موفقة إذ وجدت لديه الكثير من المستندات والمراجع والأفكار التى شجعتنى على بداية هذا الطريق... ثم قابلت الدكتور حمدى الحكيم - محافظ الفيوم السابق - صديق الطفولة لسعد، والذى لم يبخل علىّ رغم مرضه أن يدلى بشهادته كاملة... وانتقل إلى رحمة الله بعد اللقاء بأسابيع معدودة.

ثم كانت مساهمة الدكتور شريف حتاتة الإيجابية، وكذلك الأستاذ محمد مصطفى مراد الذى شارك سعد إداريًا وماليًا خلال مرحلة الثقافة الجماهيرية، وكان موضع ثقة «سعد» وقدم الكثير عن تلك الحقبة.

ودارت العجلة ونجحت فى العثور على مراجع ومستندات وشهادات صادقة، كل ذلك أعاننى على المضى قدمًا فى دراستى، التى أتمنى أن أكون قد نجحت فى عرضها لا لتكون عن شخص بعينه.. بل لتكون معبرة عن «جيل بأكمله»... دراسة تهدف إلى عرض قصة جيل ما بعد ثورة ١٩١٩، عاصروا عقد الثلاثينيات بعد أن ظهرت الفاشية فى أوروبا، وبدأت محاكاتها فى مصر فى صورة أحزاب وتجمعات ومناخ عام.. جيل عايش الحرب العالمية الثانية وبداية ظهور الاتحاد السوفيتى وانتصاره على جيوش النازية، ثم بدأ هذا الجيل يتعرف على تجربة جديدة بمسمى الاشتراكية الشيوعية، التى كان الاستعمار يصورها على أنها هى الفوضى والإباحية، ومع ذلك كانت هذه الأفكار الجديدة تتسرب إلى مصر، نتيجة تحالف الاتحاد السوفيتى مع الحلفاء وشجاعة الشعب السوفيتى فى الدفاع والاستبسال عن أوطانهم، وتبع ذلك ظهور تجمع أنصار السلام، ونظرية الوقوف ضد الحرب التى دعمت من المصريين بمختلف انتماءاتهم، للوقوف ضد الاستعمار، ورفض الأحلاف العسكرية، ثم ارتفعت المقاومة الوطنية ووصل الوفد إلى الحكم ليتنامى الوعى القومى، وتلغى حكومة الوفد المعاهدة، ويبدأ الكفاح المسلح ضد الاستعمار، ثم تأتى النكسة الأولى بحريق

القـاهرة والتـخلص من حـزب الوفـد، وتحـجـيم المد الثـورى للشـعب، ثم بداية مـرحلة الانقـلاب العـسكرى وثورة ٢٣ يوليـو، والتى تدور حـولهـا العـديد من الأسـئلة والاستفسارات: هل قامت الثورة لتصفية حزب الوفد؟ هل هى تؤيد الديمقراطية أم أنها مع الديكتاتورية؟ لماذا تم إلغاء الدستور والأحزاب؟ ثم لماذا حاربت المثقفين وفتحت المعتقلات لكافة القوى الوطنية؟ ثم لماذا تحركت الدول الغربية لضرب الثورة فى مقتل، وانتهى الأمر بالنكسة الثانية فى ٥ يونيه، والتى كانت آثارها وبيلة على كافة القوى الوطنية... ثم فقدنا عبدالناصر وبدأنا مسيرة مغايرة تقوم على الانفتاح الاقتصادى والتعاون مع الغرب عامة، وأمريكا بصفة خاصة.

إنها قصة جيل من الصعب الحكم عليه بأنه ظالم أو مظلوم؟... إن الصفحات التالية هى محاولة جادة للإجابة عن هذا السؤال... إنها ليست دفاعًا أو تقريظا لأحد، ولكنها محاولة مخلصة لعرض قضية هذا الجيل، وقد انتقينا شخصا بعينه من أبناء هذا الجيل، شارك بجدية فى كافة مراحل النضال الوطنى، ولم يتخل عن ذلك فى أى وقت، أعطى عندما كان العطاء ممكنا، وعندما فتحت السجون والمعتقلات لم يتراجع ... ترك بصمتين واضحتين هما حركة أنصار السلام.. والثقافة الجماهيرية.

لقد نجحت فكرة أنصار السلام، وخلال وقت قصير، فى تجميع العديد من الشخصيات القيادية من مختلف الاتجاهات السياسية، مما ساعد على أن تشارك إيجابيًا فى إيقاف انضمام مصر للأحلاف العسكرية أو الارتباط بمعاهدات مع عملاء الاستعمار.

وهكذا بالنسبة للثقافة الجماهيرية، فقد نجحت بقيادة فريق من الفنانين والمثقفين المخلصين لبلدهم، الـذين شـاركـوا فى دعم هذه التـجـربة بدون دعـوة لهم، وعـملوا وأعطوا دون أى استفادة مادية وهم عشرات منهم: الفريد فرج، وزكريا الحجاوى، وصلاح جاهين، وعز الدين نجيب، ومحمود السعدنى، وحسن فؤاد، وعبدالغنى أبو العينين، وغيرهم وغيرهم من المثقفين.

لقد قدم خلطة سحرية بمزج الثقافة بالسياسة، ليعوض احتكار العمل السياسى بانطلاقة جماهيرية ثقافية صادقة، نابعة من انطباعات الجماهير، سواء بالتأييد أو

المعارضة للسياسة الرسمية... فالثقافة الجماهيرية لابد من مزجها بالعمل السياسى المخلص وإلا تحولت إلى مراكز تضم موظفين.. لا مثقفين..

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أتوجه بالشكر، لكل الذين ساهموا فى إتمام هذا العمل، ويأتى على رأسهم الصديق مدحت فخرى، الذى تابع معى خطوات التنفيذ، وكان دائم السؤال عن المشاكل التى كانت تعترضنى، واقتراحاته المفيدة لاستمرار العمل، إلى جانب شهادته المخلصة فى حقبة قضية أمين عثمان.

أما الزميل شفيق سوريال (رحمه الله) فقد قام بدور بطولى، وكان المرآة الصادقة التى كانت تعكس حقيقة العمل الذى أقوم به، وكنت استغل تشجيعه المستمر لى بأن أرصد ردود أفعاله لكل الأفكار الجديدة التى كانت ترد لى قبل تنفيذها.

أتمنى أن أكون قد نجحت فى المشاركة الإيجابية، فى محاولة الإجابة عن الأسئلة العديدة التى تدور، ومازالت تدور فى صدور المخلصين للعمل الوطنى... إنها محاولة من أجل الأجيال الجديدة لبناء هذا الوطن.

عز الدين كامل

يناير ٢٠٠٨

الفصل الأول

البداية

[١]
البداية... الأم

بيانات شهادة الميلاد تشير إلى أنه من مواليد نوفمبر ١٩٢٣ بحى السيدة زينب بالقاهرة.. ولكن إذا أردنا بحث نشأته الأولى.. فمن الصعب تتبع ماقبل أن يصبح «سعد» عمره سبع سنوات.. ففى مدينة الفيوم (١٩٣٠) يقطن عمارة الحكيم.

وكانت أسرة «سعد» آنذاك تضم الأب والأم وثلاثة من البنين وابنة واحدة.. ولكن فى الواقع إن أسرته بالنسبة له امتدت لتشمل أصحاب البيت من آل حكيم القاطنين بالدور الأول، حمدى الحكيم (محافظ الفيوم عام ١٩٧٥).. وعبد العزيز الحكيم (صاحب صيدليات فيما بعد) اللذين تتقارب أعمارهما معه وأخيه جمال كامل.. وأصبحوا شلة الأربعة، كما جاء فى شهادة الدكتور حمدى الحكيم عن تلك الفترة بقوله: إنهم كانوا يأكلون ويلعبون معًا... ويذهبون للمدرسة سويًا... وإن «دولت هانم» والدته كانت أما للأولاد الأربعة فى الدور الأرضى.. كما أن «منيرة هانم» والدة سعد وجمال كانت أما له ولأخيه عبد العزيز بالدور الثانى... وهكذا عندما أنجبت منيرة هانم ابنها عز الدين.. وأنجبت دولت هانم ابنتها زينب الحكيم (مذيعة التليفزيون المعروفة).. تبادلت الوالدتان إرضاع الطفل والطفلة.

كان والد «سعد» مدرسًا للغة الإنجليزية بمدرسة الفيوم الثانوية.. رجل جاد محب للأدب والشعر والفن.. هوايته المحببة القراءة والتزود بكافة أنواع المعرفة.

أما الأم والدة «سعد» فقد كانت ينبوع الحب والحنان.. لها ارتباطات قوية وعلاقات حميمة بكل من حولها.. وهى التى تتولى فى الأسرة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية.

ورثت عن والدتها - زكية هانم - جدة سعد عشق الفن والأدب والسياسة.. اذ كانت والدتها تتمتع بشخصية قوية يهابها كل أفراد العائلة رجالاً ونساء.. ويلجأون لها لمعرفة رأيها فى كافة الأمور.. سواء كانت عائلية أو سياسية أو أدبية...

إذن فالأسرة كلها كانت مهتمة بالعمل العام.. وبالسياسة من قريب أو بعيد.. خاصة وأن الخال «فتحى رضوان» الطالب بكلية الحقوق وقتذاك.. كان غارقًا لأذنيه فى العمل السياسى.. وكثيراً ماكان يتردد على منزل الأسرة بالفيوم يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع... وكان كثيرًا ما يأتى وبرفقته صديقه الحميم كمال الدين صلاح (شهيد الدبلوماسية المصرية فى الصومال عام ١٩٥٣) وكانا من نشطاء جماعة مصر الفتاة.. التى أصبحت حزبا فيما بعد.. وكان جميع أفراد الأسرة وبصفة خاصة شلة الأربعة (سعد - جمال - حمدى - عبد العزيز) يستمعون لآرائه وأفكاره وأحاديثه الشيقة عن الحركات الوطنية فى القاهرة.

يشرح لهم كيف أن على الشباب أن يواجه الإنجليز... وكان يحكى لهم عن مظاهرات طلبة الجامعة والمدارس الثانوية.. وأهمية تحقيق الاستقلال أولاً حتى يمكن التقدم لشباب مصر فى كافة المجالات.

وكان يحدثهم عن غاندى زعيم الهند.. وكيف أنه بالكفاح السلمى نجح فى إزعاج القوات البريطانية التى تحتل بلاده... ورغم أنه الزعيم المحبوب لملايين الهنود.. فهو يعيش لايغطى جسده سوى قطعة قماش صغيرة.. ويمضى وقته فى غزل ملابسه وملابس أسرته على نول صغير بمنزله.. وخلفه أينما سار عنزة (معزة) يأخذ منها حاجته من اللبن.. وكانت هذه الصورة الشاملة للزعيم غاندى.. تؤكد أهمية مبدأ مقاطعة البضائع والسلع الإنجليزية.. وأهمية إحياء الصناعات الوطنية... لقد رسخ فى الوجدان أهمية أن يكون هناك شعار جديد هو «صنع فى مصر».

وهكذا ظهر مشروع القرش.. والذى كانت تدعو له جماعة مصر الفتاة.. على أنه مشروع وطنى... فقرش صاغ واحد - من كل مصرى على أرض المحروسة تجمع مبلغا كافيًا لإقامة مصنع... ولتكن البداية مصنعًا للطرابيش ... إذ كيف نلبس

الطربوش – رمز مصر آنذاك – ونحن لا نصنعه بل... نستورده من الخارج !! وهكذا بدأت حملة جمع التبرعات لإقامة أول مصنع مصرى لصناعة الطرابيش.. فقد تم إعداد طوابع كل طابع بقرش صاغ... وكل مائة طابع فى دفتر يتسلمه الشباب المشارك فى الحملة.

وتطوع سعد وشلة الأربعة فى هذا العمل الوطنى... وفعلا حضر – فتحى رضوان ومعه ثلاثة دفاتر... واستلم سعد وعبد العزيز دفتراً وكذلك حمدى وجمال... وكان التنافس على أشده بين المجموعتين... وامتدت المنافسة من البيع للأهل والأصدقاء إلى المرور على المقاهى.. وأمام المساجد يوم الجمعة.. ونجحوا خلال عشرة أيام فى بيع الدفاتر الثلاثة... بثلاثة جنيهات.. ليسهما فى بناء مصنع للطرابيش... وكان فتحى رضوان فى زيارته لأسرته بالفيوم يحضر معه المجلة التى تعتبر لسان حال جماعة مصر الفتاة «الصرخة».. وكان يقبل على قراءتها كل أفراد الأسرة لما تحويه من مقالات وصور إلى جانب مايكتبه فتحى رضوان.. وأحمد حسين من مقالات.. تلهب حماس الشباب الواعد الذين كانوا يتعجلون الأيام ليكبروا.. حتى يمكن لهم أن يساهموا فى هذا المشروع الوطنى الكبير.

وكانت «الصرخة» قد خصصت الصفحة الأخيرة لنشر المبادئ العشرة التى أطلقها زعيم مصر الفتاة أحمد حسين.. والذى كان يرى أن المقاطعة لكل ماهو أجنبى ضرورة وطنية.. وأن من يؤمن به يمكن أن يكون جندياً من جنود مصر الفتاة وهذه المبادئ هى:

* لا تتكلم إلا باللغة العربية.. ولا ترد على من يخاطبك بغيرها.
* لا تدخل المحلات.. التى لا تكتب أسماءها بالعربية.
* لا تشتر.. إلا ما صنع فى مصر.
* لا تأكل.. إلا طعاماً مصريا.
* تطهر وقاطع الخمور ودور اللهو.

* تطهر فصل لربك وأم المسجد كل يوم جمعة إن كنت مسلماً.. والكنيسة كل أحد إن كنت مسيحيا.. وكل سبت إن كنت يهودياً.

* إحفظ نشيد « إسلمي يامصر» ورتله لنفسك.. ولتكن أنشودتك في كل مكان.

* بلادك هي... مصر والسودان معا لا يتجزآن ولا ينفصلان.

* غايتك أن تصبح مصر فوق الجميع.. دولة شامخة تضم مصر والسودان.

ليكن شعارك دائماً... الله... الوطن... الملك...

كانت هذه المبادئ تمثل للشباب في مرحلة الصبا آنذاك مقدسات وطنية غير قابلة للنقاش... كانت بالنسبة لهم قدس الأقداس التي لا يجب المساس بها بل وحتى مناقشتها وكانت عينا سعد تدمع حينما يهتف «مصر فوق الجميع».

ومن المبادرات التي أعلنها زعيم مصر الفتاة «أحمد حسين» في تلك الفترة.. تكوين تشكيلات المجاهدين وهي تشكيلات شبه عسكرية.. تنقسم إلى فيالق وألوية وفرق وكتائب وأقسام... وتتكون هيئة أركان الجهاد من رؤساء الفيالق... وكان النظام العام يقوم على الطاعة المطلقة والتفاني في سبيل الوطن

وكان لهم زي خاص يتكون من قميص أخضر وبنطلون كاكي وحزام عريض.. لذلك سميت هذه التشكيلات باسم «القمصان الخضر» - ولا يرتدي هذا الزي إلا من يؤمن بالمبادئ العشرة.. ويحفظ الأناشيد الوطنية.. ويقضي فترة تحت الاختبار يؤكد أنه يعمل على إعلاء كلمة الله وتقديس الوطن والالتفاف حول عرش الملك... والدعوة إلى الانضمام كانت إلى كل الشباب الذين سد الأجانب في وجوههم طريق الحياة ولا يجد عملاً بعد إتمام دراسته.. وإلى كل من يتقد قلبه بنيران الوطنية المقدسة.. ويتألم لما يجري في مصر.. ويعلم أن لمصر دوراً عظيماً ينتظره العالم.. وكان سعد يتمنى أن يجئ اليوم الذي يصبح فيه شاباً حتى يمكن له الانضمام لهذه التشكيلات... فقد كان ينشد من الأعماق نشيد « إسلمي يامصر» في المرات التي كان يصحبه خاله فتحي رضوان إلى منطقة أهرامات الجيزة.. حيث كان يتم تدريب شباب القمصان الخضر

على المشى فى تشكيلات عسكرية.. وكذلك الجرى والقفز وغيرها من التدريبات العسكرية.. إلى جانب إنشاد الأناشيد الوطنية.. مما يدعم فيهم روح الانتماء لهذه التنظيمات.

ويتذكر الدكتور حمدى الحكيم الأحداث والشخصيات التى أثرت فى حياتهم كأطفال.. وجعلتهم يتطلعون للانحياز للثقافة والعمل العام.. فيروى عن عنتر السفرجى فى منزل سعد وإخراجه مسرحيات بدائية فوق السطوح.. يحضرها أولاد الجيران.. والتى كانت تقام بين الحين والآخر.. كما نجح سعد - فى ذلك السن المبكر - فى إصدار مجلة من صفحتين يطبعها على قطعة «بالوظة» نجح فى شرائها من فراش المدرسة.. وكانت تحوى أخبار عائلات كامل والحكيم والديرى.

ولا ينسى الدكتور حمدى الحكيم طبيب العائلة آنذاك ويدعى «اسكرين» وهو أمريكى الجنسية.. وكان بالنسبة لأولاد هذا الجيل رائد الاكتشافات العلمية... فهو أول من صنع راديو فى الفيوم وجعلهم يستمعون إلى (هنا القاهرة) من على بعد مائة كيلو متر بدون أسلاك!! وأول من اكتشف المصران الأعور عند شقيق سعد «جمال» - إلتهاب الزائدة الدودية - ونصح بعلاجها عند الدكتور على باشا إبراهيم فى القاهرة - وتم نقل المريض فى عربة إسعاف إلى المستشفى الإسرائيلى بالقاهرة، واستمرت العمليه لأكثر من ساعتين وأخيراً أطل الدكتور على باشا إبراهيم ليهنئ بنجاح الجراحة!!! وكانت فتحة البطن تزيد على ١٨ سنتيمترا.. وهى الآن يقوم بها طبيب حديث التخرج ولا تستغرق سوى عشر دقائق.. وفتحة البطن لا تتعدى ثلاثة سنتيمترات!!

لقد كانت أيام الفيوم مرحلة استكشاف.. لمعرفة الجديد والحديث فى هذا العالم المتغير.. لقد كان المستقبل يبدو أمام أبناء هذا الجيل فى صورة وردية... المعرفة متاحة أمام سعد فمكتبة والده مليئة بالكتب والمجلات... والدته تشجعه للمشاركة فى الحياة العامة والحياة السياسية... وخاله فتحى رضوان يقاوم الاستعمار والاحتلال العسكرى.. إلى جانب الدكتور اسكرين وعنتر.. فكلهم شاركوا فى رسم الملامح الأساسية والخطوط الرئيسية لشخصية «سعد» وأسلوب حياته.

* * *

[٢]
وللأب بصماته

كان والد «سعد» كبقية آباء ذلك الجيل.. كانت هناك مسافة بينه وبين الأولاد... فالأب له مكانته وقدسيته... حجرة نومه لا يدخلها الأولاد إلا بإذن مسبق... عند اجتماع الأسرة لتناول الطعام نجد الكل حذراً في الكلام.. أو في ارتفاع الصوت.. أو الضحك بصوت عال... فسلوك الأب هو المؤثر الأول في تكوين وبناء شخصية الأولاد.. فهم يقلدونه دون الاقتراب منه... لذلك فللأم تأثير مباشر لاقترابها من أبنائها... وهي التي توصل رسائل الأبناء للأب دون احتكاك مباشر.

وهكذا كان كامل أفندي - ثم كامل بك.. عندما تقلد منصباً قيادياً.. تخرج في مدرسة المعلمين العليا وعمل مدرساً للغة الانجليزية كمادة أساسية.. والجغرافيا والتاريخ كمادة ثانوية... له أخ غير شقيق تخرج في كلية الحقوق قسم اللغة الفرنسية.. فأصبح مستشاراً في المحكمة المختلطة التي تنظر في قضايا الأجانب دون أبناء هذا البلد، وهو في ذلك الوقت منصب مرموق يتطلع إليه وينادونه دائماً «شاكر بك» فهو دائماً في الصدارة.. ويأتي بعده كامل أفندي في المكانة والأهمية. وربما كان هذا التنافس الخفي بينه وبين شاكر بك.. هو السبب الذي دفعه إلى أن يبيع ماورثه من فدادين بسيطة في قرية ميدوم ببني سويف.. وينسحب من العزبة ليبدأ مشروع استصلاح أراضٍ بناحية الشواشنة بمديرية الفيوم.

إن انسحاب الوالد من المنافسة في الأرض الخصبة.. والدخول بالمغامرة في الأرض البور.. تبين شخصيته الرومانسية، فالأحلام هي الزاد الذي يعيش عليه.. ويساعده على اجتياز مشاكل وصعوبات الواقع.

إن مرحلة الفيوم كانت بالنسبة لسعد مرحلة الأساس وقد أنهى التعليم الابتدائى ودخل التعليم الثانوى.. لينهى العام الدراسى الأول ويبدأ مرحلة جديدة فى – مديرية المنيا – إذ شملت حركة الترقيات والتنقلات بوزارة المعارف والده.. بالنقل من مدرس بالتعليم الثانوى إلى ناظر المدرسة الابتدائية الأميرية بمديرية المنيا(محافظة المنيا).. وتعتبر ترقية كبيرة نظراً لأنه كان فى كل مديرية مدرسة ابتدائية أميرية واحدة.

لقد كان قرار النقل إلى المنيا بمثابة نقلة للأمام للأسرة كلها.. فالسكن لم يعد شقة فى عمارة كما اعتادوا فى الفيوم.. بل أصبح ڤيلا ملحقة بالمدرسة ، إذ جرت العادة منذ أن كانت القيادات انجليزية.. توفير سكن مريح لكل قيادات العمل الإدارى بالمديرية، وقد كان ذلك لحضرة الناظر.

أما بالنسبة للوالد.. فقد كان تغييرا جذرياً من مدرس ضمن فريق المدرسين.. إلى رئيس عمل.. تحت إمرته فريق من الموظفين الإداريين وفراشين وهيئة تدريس.. إلى جانب خمسمائة تلميذ يتطلعون إلى الناظر بكل هيبة واحترام.. خاصة عندما يقف فى مكان مرتفع لمراقبة طابور الصباح.

أما بالنسبة «لسعد» وجمال.. فلم يشعرا بفارق كبير بين المدرسة الثانوية فى الفيوم والمنيا ولكن الفارق الكبير.. هو الاستمتاع بالمدرسة الابتدائي بصفتهما أولاد الناظر.. ومزاولة كل الأنشطة الرياضية هم وأصدقاؤهم بعد نهاية اليوم الدراسى... إلى جانب أنه كان يشارك طلبة المدرسة الابتدائى فى الرحلات المدرسية ولا ينسى رحلة بنى حسن.. وكان معهم مدرس الرسم بالمدرسة صلاح طاهر (الفنان المعروف فيما بعد) والذى لم يتوقف لحظة طوال الرحلة عن رسم الاسكتشات والبورتيريهات من الواقع... لقد كان هذا اليوم وهذه الصحبة مع فنان كبير.. هى أول رشفة فنية يتذوقها لكى يبدأ بعدها اكتشاف عالم الفن.

لم يطل المقام فى المنيا سوى عامين.. وصدرت حركة تنقلات بين نظار المرحلة الابتدائية.. وتم نقل والده إلى مدرسة بنى سويف الاميرية... وكان النقل هذه المرة أكثر يسراً للأسرة.. فقد سافر الوالد بمفرده إلى بنى سويف.. وتعاقد على إيجار

منزل فى منطقة سكنية هادئة غرب شريط السكة الحديد (الحدقة) فى عمارة سكنية تبعد عن المدرسة الابتدائية وكذلك الثانوية حوالى ١٥ دقيقة مشياً على الأقدام.

لم يجد «سعد » إختلافًا كبيراً بالمدرسة الثانوية التى التحق بها بالصف الرابع وكان يطلق عليه – الثقافة العامة – فالاختلاف شكلا – ليس بكبير بين مدرسة الفيوم.. أو المنيا.. أو بنى سويف أما الاختلاف فكان فى مدرسة الوالد الابتدائية.. فهى مدرسة حديثة البناء وتضم كل الوسائل التعليمية اللازمة للتلاميذ.. فإلى جانب الفصول الدراسية واتساعها.. فهناك وسائل النشاط المدرسى.. وهناك جمانزيوم وملاعب تنس وصالة سينما ومسرح.. إلى جانب قسم داخلى يلتحق به أولاد الأكابر من العمد والأعيان.

رغم عدم سكن ناظر المدرسة فى المدرسة – كما هو الحال فى المنيا – فقد استمر سعد وشقيقه فى الاستمرار لما كانوا يمارسونه وأصدقاؤهم من أنشطة مختلفة بعد انتهاء اليوم الدراسى فى مدرسة الوالد.

إن فترة الإقامة ببنى سويف رغم قصرها.. تركت فى «سعد» بصمات واضحة فى مراحل حياته اللاحقة.. أهمها أنه كان قد تخطى مرحلة الصبا والطفولة وبدأ مرحلة الشباب، فنال قدراً من حرية التحرك والسهر أكثر مما سبق.. وأصبحت له حياة خاصة والعديد من الأصدقاء متنوعى الاتجاهات والمشارب.. وكانت المناقشات السياسية هى الغالبة، خاصة وأن جمعية مصر الفتاة كان لها فى بنى سويف تنظيم قوى يترأسه حسن سلومة (الموظف بوزارة المعارف آنذاك ثم الصحفى بجريدة الاهرام بعد ذلك).. وكان سعد على علاقة وطيدة به كتوجيه فتحى رضوان لحسن سلومة بأن يرعى خطوات سعد السياسية. وفى أحد الأيام جاءت التعليمات لفرع الجمعية ببنى سويف بتحطيم محلات بيع الخمر، وقام شباب الجمعية بمهاجمة الحانات المعروفة ومحلات بيع الخمور. لقد رفض «سعد» هذا الحدث ووصفه – بديكتاتورية الغوغاء – وكانت المحصلة النهائية هو تحجيمه لعلاقته مع فرع جمعية مصر الفتاة ببنى سويف.

ومن تجارب بنى سويف التى كان لها تأثير عميق فى حياته.. أن مجلة بنى سويف الإقليمية نشرت له أول مقال يكتبه، لقد كان تعليقًا على امتداد العرض

السينمائى فى سينما بنى سويف إلى مابعد الثالثة صباحًا، ولم يكن يتصور أن ماكتبه سوف يتم نشره بالبنط العريض إلى جانب اسمه وقد كتب بالحروف البارزة... إن هذا الحدث العارض جعله ينظر إلى الصحافة على أنها مهنته المستقبلية.. وفعلا بدأ يرسل إلى مجلة «بنى سويف» مقالات وكانت تنشرها له وتزيده ثقة فى نفسه.. ليبدأ رحلة الألف ميل فى عالم الصحافة.

كما خاض أول تجربة عاطفية مع إحدى صديقات شقيقته... وأهمية هذه التجربة تعود إلى أن الزمن كان غير الزمن ولا مجال للقاء الولد والبنت.... ولكن الفتاة من أم ألمانية فكانت لها جرأة إلى حد الخروج للتريض فى حديقة «فاروق»... ورغم أن العلاقة لم تتعد لمس الأيادى وتبادل الصور... فقد بقيت صورتها معه لمدة وكانت تمثل له الكثير.. مما زاده تمسكًا بالصورة إلى أن صادرتها واحدة من حملات التفتيش الذى كثيراً ما تعرض له فيما بعد... ونظر وكيل النائب العام إلى الصورة وقال له: إنها جميلة حقًا!!!

بعد عام دراسى فى بنى سويف حصل سعد على شهادة «الثقافة العامة».. وهى تسبق التوجيهية – أى السنة المخصصة للتوجه الجامعى.

ولما كانت التوجيهية مقسمة إلى أقسام علمى – رياضى – أدبى وكانت مدرسة بنى سويف الثانوية ليس بها قسم أدبى.. مما يحتم الانتقال إلى القاهرة والالتحاق بإحدى المدارس التى بها القسم الأدبى.

لقد أصبح سعد أمام طريقين – الطريق السهل وهو أن يرضى بالمتوافر فعلا ويكمل دراسته علمى أو رياضة.. والطريق الثانى أن يكمل دراسته فى القاهرة ليحقق حلم الدخول لكلية الحقوق.

لم يكن من السهل اقتناع أهله بطريق القاهرة لسببين.. أولهما: أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.. ومن الخطورة تركه فى هذا السن المبكرة دون أى رقابة أو توجيه.. وثانيهما: أن هذا الطريق يمثل عبئًا ماديًا على الوالد... وكانت الخشية تملأه من أن يقرر والده رأيًا فى الموضوع... وهو سيد قراره لا يلوى أحد ذراعه.. ولكنه

استطاع أن يقنع والدته أولاً.. ثم خطوة خطوة استطاعت بدورها إقناع والده... وتمت الموافقة شكلاً ثم بدأ البحث فى التفاصيل... أين يقيم ؟ كم يلزمه؟ وبدأ التنفيذ واتضح أن الإقامة يمكن أن تكون عند ابن عم والده - محمود سليم - مدرس اللغة العربية بإحدى مدارس القاهرة بالسيدة زينب.. وهو عريس جديد يقطن مع عروسه فى شقة بها غرفة زائدة... ويمتاز من أنه من رجال التعليم وبذلك يمكن أن يقوم بدور الراعى الرسمى للمسيرة التعليمية... وذلك مقابل عشرة جنيهات شهرياً لمواجهة الإقامة والمعيشة.. وخمسة جنيهات لمصروفات الجيب والمدرسة.

لقد أصبح الحلم حقيقة وبدأ يغمر «سعد» شعور بالسعادة وأصبح مواطنًا - حاصلاً على الجنسية «القاهرية» - من مواطنى القاهرة والتى كانت حلما لأبناء الأقاليم!! حيث الزحام - الترام - المحلات الكبيرة - عمر أفندى وصيدناوى - ودور السينما والمسارح والجاتوه «بسطة» والأنوار المبهرة بدلاً من الخافتة.. كل ذلك إلى جانب التقليل من الإشراف المنزلى الصارم.

وجاء إلى القاهرة... واستقل الترام مع محمود أفندى سليم إلى السيدة زينب حيث الإقامة.. وكذلك بداية رحلة المعرفة والاستكشاف.. وقد التقى فى المنزل مع «بكرى » شقيق محمود سليم.. وهو قاهرى أقدم منه.. يعرف القاهرة ومعالمها.. وكان مرشداً لسعد فى خطواته الأولى.. وأكل البسطة فى محلات توت عنخ آمون بالعتبة.

كانت مدرسته الجديدة «الخديوى اسماعيل» لاتختلف كثيراً عن مدرستى بنى سويف أو المنيا - ولكن الفارق الوحيد فى ناظر المدرسة مصدر هيبة كبيرة قد لايصل إليها الآن رئيس جامعة!! كانت للمدارس الثانوية شهرة كبيرة وأهمية بالغة.. وذلك لأنها كانت قليلة العدد تزخر بإمكانيات هائلة... وحتى فريق كرة القدم لإحدى المدارس الثانوية.. كان لايقل أهمية عن فريق كرة قدم يتبع لناد شهير هذه الأيام... فكان هناك دورى المدارس الثانوية.. وكان يشد انتباه الطلبة.. وكذلك الجمهور الكروى بصفة عامة..... ومن المباريات المهمة والتى لاتقل وقتذاك عن لقاء الأهلى والزمالك لقاء السعيدية مع فؤاد الأول... وكان بالمدارس أبطال وصلت شهرتهم إلى العالمية كالجندى... وحنفى بسطان.

واحدة... واحدة اتسعت دائرة معارفه.. الذين ساهموا في تعميق استكشاف القاهرة وأضوائها الباهرة.. فقد عاش أيامه في حالة مشاهد لا مشارك.. فالمدرسة بالنسبة له معرفة الجديد.. وخاصة العلوم الجديدة.. كالفلسفة وعلم النفس والمنطق.. تستهويه ويستمع إليها دون أى تعمق دراسي.. فلم يرتو من تعطش المعرفة فكل أسبوع كان يذهب إلى «مصر الفتاة» لسماع فتحى رضوان وأحمد حسين.. إلى جانب المشاركة في وسط الأسبوع في ندوات أو لقاءات سياسية... بالإضافة إلى دور السينما والمسرح وزيارة الأهل والمعارف.. إنه مشغول طوال الليل والنهار دون أى تعمق في الدراسة والتحصيل.. وقد حاول ولى أمره «محمود أفندى سليم» أن يحد من حركته ليتفرغ لدراسته ولكنه فشل.. وكانت النتيجة هو الرسوب آخر العام.

كان المفروض أن رد الفعل لنتيجته السيئة.. هو سحبه من القاهرة والعودة إلى بنى سويف.. وتغيير حلم كلية الحقوق والدفاع عن الوطن... ولكن لحسن حظه أن صدرت حركة تنقلات لنظار المدارس الابتدائية.. وتم نقل والده إلى مدرسة الأورمان بالجيزة.

وبدأت تقل حدة جريمة الرسوب.. فالأسرة كلها ستتجمع في القاهرة.. ويمكن إعادة تصحيح الأخطاء.

استأجرت الأسرة منزلاً في حى الدقى الذى كان يمتاز بالهدوء.. وتقطنه الطبقة المتوسطة.. وعدد من الأسر اليهودية وبعض الأجانب الذين يفضلون البعد عن الأحياء الشعبية كثيفة السكان كالسيدة زينب والجيزة.. إلى جانب أنه قريب من المدارس التى سيلتحق بها كل أفراد الأسرة.

كما شعر «سعد» بأن هناك أيضًا نقلة نوعية بالنسبة لمدرسة السعيدية.. حيث كان ناظر المدرسة من الأسماء اللامعة وهو «جعفر النفراوى».. وكان يدير المدرسة بأسلوب مختلف عن باقى نظار المدارس.. فللناظر منزل ملحق بالمدرسة فهو متواجد طوال الوقت.. ويعرف كل الأخبار والتحركات للتلاميذ والمدرسين.. حيث في كل فصل جهاز إذاعة إرسال واستقبال.. فيستطيع من حجرته أن يعرف مايدور في كل فصل..

وكذلك يمكنه فى أى وقت التحدث للطلبة وإعطاء تعليماته... كما كان يعتنى عناية خاصة بأولاد الصفوة... أمثال «محمد» ابن على ماهر باشا.. والذى كان يأتى إلى المدرسة يقود سيارته الخاصة وتفتح المدرسة أبوابها ليركن السيارة فى نهاية الحديقة.. بجوار منزل حضرة الناظر الذى كان يخصص حجرة طعام خاصة تضم خمسة عشر طالبًا من أولاد الشخصيات المهمة والباشوات.. وكذلك نجوم كرة القدم كالكابتن «جندى» ذى القدم الذهبية كما وصفوه بانجلترا.

إن تجربة السعيدية جعلت «سعد» يعرف معنى كلمة الثروة والسلطة.. فقد شاهد بنفسه التمييز فى معاملة أولاد الذوات عن بقية التلاميذ... وكان الناظر المعروف عنه شدته فى التعامل مع التلاميذ بصفة عامة رقيقًا مع المجموعة الخاصة من أولاد أصحاب السلطة!!!

لقد انتهى العام الدراسى (١٩٣٩ - ١٩٤٠) وتقدم سعد إلى امتحان التوجيهية وهو أكثر ثقة فى النجاح.

وظهرت النتيجة وحقق نجاحًا كبيرًا.. نتيجة زوال العوامل السابقة وأصبح مواطنًا «قاهريا» ١٠٠٪.

لقد أنهى مرحلة.. ويستعد ليبدأ أخرى بتحقيق أحلام الطفولة والصبا.. يدافع عن قضية الوطن بدخوله كلية الحقوق.

* * *

[٣]
وأخيرا.... الجامعة

لقد أنهى صاحبنا مرحلة الطفولة والصبا.... ولملم أوراقه وذهب إلى كلية الحقوق التى طالما كانت حلمًا يراوده، وأصبح يتخيل أنه مصطفى كامل أو محمد فريد... فقد كان يرى أن العمل السياسي والدفاع عن الوطن يبدأ من كلية الحقوق.. فهى مصنع تفريخ قادة العمل السياسى والوطنى.. وهو الآن وضع قدميه على أول الطريق لتحقيق الأحلام.

كان سعيداً ومنبهراً من انتهاء مرحلة الدراسة الثانوية وبدء الحياة الجامعية... تحرر من النظام الصارم فى الحضور والانصراف.. فلم تعد هناك أبواب تُغلق بعد موعد بدء الدراسة.. ولم يعد يسمع صوت الجرس التقليدى.. ولا التزام بطابور الصباح.. بل أصبح حضور المحاضرات بدافع ذاتى من حُبه للمعرفة والاستفادة الثقافية والشخصية.

لقد كان «سعد» سعيد الحظ.. فقد أمضى سنوات الجامعة مستمتعًا بالحياة الجامعية الحقيقية بأدق تفاصيلها.. فهى ليست علما ومعلومات فقط.. بل هى التأهيل الحقيقى لخلق مواطن قادر على مواجهة ما يجابهه.. وكيف يمكن أن يكون قائداً فى أى موقع يتواجد فيه... فالجامعة هدفها بناء قائد تجتمع فيه كل الصفات الثقافية والاجتماعية والرياضية.... ثم العلمية.

بدأ يتحسس طريقه فى كلية الحقوق.. والتقى أولاً بعز الدين فوده (الدكتور عز الدين فودة من مؤسسى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فيما بعد)، كان يمثل لسعد نوعية مختلفة عن أصدقائه السابقين.. فهو قادم من المنوفية ويقيم بمفرده فى حى

الطلبة المغتربين المجاور للجامعة.. والمعروف «بين السرايات».. لقد نمت الصداقة بينهما بسرعة لحاجة كل منهما للآخر.. فعز الدين محتاج إلى الشعور بالانتماء لعائلة.. وسعد محتاج لإنسان متحرر من الروابط العائلية... لقد وجد سعد فيه شيئًا غير مألوف.. فهو نهم للمعرفة... لا ينام ليلا إلا إذا انتهى من قراءة كتاب، يمتاز بثقافة واسعة ومتنوعة المجالات.. فمن الأدب إلى الفن إلى القصة إلى الرواية إلى تاريخ الوطن.. وصولاً إلى التاريخ العالمي، صحيح أن سعد كان يعيش في جو ثقافي.. ولكن عز الدين فوده كان نقلة جديدة جمعت ما بين المحلية والعالمية.

لقد بدأ سعد يخطو خطواته الأولى في الجامعة بمفاهيم وقيم وتطلعات جديدة مغايرة للمرحلة السابقة... فمناقشاته مع «فوده» كشفت له أن العالم يحوى الكثير والكثير.. وعليه أن يعلم أن دراسة الحقوق ليست هي الأساس بل إن «المعرفة» تأتى أولاً، والمعرفة هنا بكل معانيها والحصول عليها من كل مصادرها، فكانا يذهبان إلى كلية الآداب لسماع محاضرات الدكتور طه حسين الذى بهره من أول مرة.. لقد شده هذا الأستاذ المتمكن الذى يتحدث في الأدب العربي وبصوته المتميز.. وبسهولة ويسر ينقل المستمع من عصر ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر.. وكأنه يروى قصة واقعية ما زالت تجرى أحداثها.

لقد بدأ «سعد » يحرص على محاضرات العمالقة سواء في كلية الحقوق أو كلية الآداب، فقد كانت كلية الحقوق تزخر أيضًا بجيل العمالقة في العلم.. لا العمالقة في المادة المقررة فقط... وكان غالبية الأساتذة يصلون إلى الكلية إما مشيًا على الأقدام لقرب سكنهم من الجامعة.. أو مستخدمين الترام... ولا ينسى «سعد» أنه رأى الشيخ أبو زهرة والذى كان يقطن في حي شبرا .. يركب الترام إلى محطة الإسعاف.. حيث من هناك يستقل الترام رقم ١٥ ليصل إلى كلية الحقوق.. ليجد المدرج الذى سيلقى فيه محاضرته مملوءًا بالطلبة عن آخره.. للاستماع إلى واحد من جهابذة مادة الشريعة الإسلامية.. وهي من المواد الصعبة.. والتي تزخر بالعديد من الاتجاهات والآراء والمذاهب.. ولكن كان الشيخ أبو زهرة يرويها وكأنها قصة عائلية يقصها عليك صديق بأسلوب سهل وبسيط... لقد تعلم من أساتذته أن قيمة الإنسان... ماذا يعلم... وليس كم يملك!!!.

ومن الأساتذة الذين أثروا فى حياته سلوكيًا.. الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا أستاذ الأساتذة فى القانون المدنى.. والذى بلغت مؤلفاته أكثر من ٨٠ مرجعًا، وامتدت شهرته عربيًا وعالميًا، حيث شارك فى وضع التشريع المدنى للعديد من الدول.. ولا ينسى سعد أنه فى إحدى محاضراته.. عندما وقف طالب يسأل الأستاذ الدكتور السنهورى عن مشكلة قانونية واجهته. فكانت إجابة الأستاذ « ليست عندى الآن الإجابة الصحيحة لهذا السؤال!!».. وفى المحاضرة التالية وقف الأستاذ يقول: بالنسبة لسؤال زميلكم الطالب فى المحاضرة السابقة.. فقد راجعت المراجع فوجدت أن الإجابة الصحيحة هى كذا وكذا.. لقد كان ذلك درسًا.. فعلى الرغم أنه الأستاذ الذى ألف ٨٠ مرجعًا... لا يجد غضاضة فى أن يقول لا أعلم الآن.. ثم بعد الدراسة والرجوع إلى المراجع يقول إن الإجابة هى الآتى...

والدكتور على بدوى أستاذ القانون الجنائى وله عشرات المراجع، كان مدرجه ممتلئًا عن آخره.. لأنه استطاع أن يحول مادته الصعبة إلى مادة شيقة.. وكأنه يروى قصصًا بوليسية... تمكُّنُهُ من المادة جعل له شهرة عالمية فى مجال القانون الجنائى.. وأصبح عميدًا للكلية بعد ذلك.

وكان من الطبيعى جدًا ومن المتبع أن يستوقف الطالب أستاذه بعد المحاضرة لسؤاله فى مادته.. والغريب أن هذه الأسماء الكبيرة يقف أصحابها بكل تواضع.. ويجيبون على كل ما يطرحه الطلاب.. حتى وإن كانت الأسئلة أو الاستفسارات عن موضوعات خارج المقرر.. وكل ذلك بروح الأبوة الخالصة.

لم يقتصر جيل العمالقة على أساتذة كلية الحقوق.. بل شمل العديد من عمالقة ذلك الجيل... لقد كان الدكتور لويس عوض أستاذ الأدب الإنجليزى فى كلية الآداب.. يشرف على جمعية لتذوق الموسيقى الكلاسيكيه تحت اسم - جمعية الجرامافون - وقد فتح باب الانضمام لطلبة كل الكليات.. ويقوم الدكتور لويس بشرح قصة كل سيمفونية.. ليساعد الطلبة على الاستمتاع بهذا الفن الرفيع... فكانوا يجلسون بالساعات فى إنصات تام للسيمفونيات العالمية... وقد تعرف من خلال هذه الجمعية على عبد الرحمن الشرقاوى (الشاعر والأديب والصحفى المعروف فيما بعد).. الذى

نجح فى أن يجعله من عشاق الشعر... فقد كان الشرقاوى موسوعة شعرية يعبر عن أى موقف.. سواء سياسى.. أو إجتماعى بأبيات شعرية... كما أن الشرقاوى استفاد من أصدقائه بأن حولهم إلى حقل تجارب لأبياته التى استوحاها أخيراً.

تدعمت الصداقة بين الشرقاوى و«سعد».. من خلال لقاءاتهما المتعددة فى بوفيه كلية الحقوق أو كلية الآداب.. ثم امتدت لمتابعة محاضرات الشيخ على عبد الرازق صاحب الكتاب المشهور «الإسلام وأصول الحكم» والذى طرد من أجله من الجامعة.. مما جعل الدكتور طه حسين يستقيل كعميد من كلية الآداب تضامنًا معه.. ونجح طه حسين فى أن تقبل مطالبه.. لتنتصر حرية الفكر.. ويعود الشيخ على عبد الرازق ليحاضر بأفكار مخالفة للدولة فى ذلك الوقت.

لقد كانت محاضراته مادة للنقاش بين سعد والشرقاوى.. وينضم إليهم عز الدين فوده.. وكذلك كمال عبد الحليم (الشاعر اليسارى المشهور فيما بعد)... إن هذا التلاقى الوثيق والحوارات التى كانت تدور بينهم.. كانت تؤكد أن هناك عالمًا جديداً من حولهم بدأ فى الظهور.. وأن هناك تجربة اشتراكية وليدة بدأت تظهر فى الاتحاد السوفييتى يجب التوقف عندها.... عالم جديد يخالف تمامًا العالم الذى عرفه سعد طوال السنين الماضية... فقربه من مصر الفتاة قبل ذلك جعله يؤمن بأن التجربة الفاشية فى كل من ايطاليا وألمانيا هى أسرع الطرق للنهوض بمصر، وأن نشر التنظيمات العسكرية بين الشباب.. هو أقصر الطرق لمواجهة الاستعمار الإنجليزى القائم على أرض مصر.

لم يقتصر نشاط «سعد» على التعليم والثقافة والسياسة.. بل كان للرياضة نصيب فى حياته.. فبتشجيع من أخيه «جمال» مارس رياضة التنس فى النادى الأهلى.. وكذلك التجديف فى نادى التجديف الملكى.. والذى يقع جنوب كوبرى الإنجليز والذى يطلق عليه عامة الشعب كوبرى بديعه لقربه من كازينو بديعة (حاليا كوبرى الجلاء) وكان النادى الملكى يضم فى عضويته أعضاء متنوعين.. سواء من الطلبة أو الخريجين.. فى حين أن نادى تجديف الجامعة كانت عضويته قاصرة على الطلبة... أما

النادى الثالث المجاور لنادى التجديف الملكى.. فكان النادى اليونانى ويضم فى عضويته اليونانيين.. وكان موضع التفات الشباب المصرى.. لكونه يقيم العديد من الحفلات الراقصة التى تضم الأولاد والبنات.... وهى من أمنيات الشباب المحرمة!!

وفى نادى التجديف إلتقى سعد بالعديد من الشخصيات المتنوعة الاتجاهات والمشارب.. فالتقى بنجيب فخرى الطالب بالمعهد التجارى العالى (سفير مصر فى كوبا فيما بعد) ذى الكاريزما العالية.. وذى الجاذبية الخاصة.. مما سهل تطور الصداقة بينهما بسرعة خلال أسابيع قليلة.. وكانا يلتقيان مرة كل أسبوع على الأقل.. لمزاولة الرياضة أو لمناقشة موضوعات الساعة.. وعن طريق نجيب تم التعارف على ابن خالته - محمد إبراهيم كامل - (الذى أصبح وزير خارجية مصر فيما بعد) الطالب فى كلية الحقوق.. وكان شكلا وموضوعا « ابن ناس»(أبيض وشعره أصفر وأخضر العينين) كما أن سلوكه العام سلوك أولاد الذوات.. وكان والده مستشاراً فى القضاء.. وعمه هو مدير عام السكك الحديدية (شاكر باشا أحمد) ويعتبر فى ذلك الوقت من المناصب المهمة والتى كانت محدودة. وكانت الأحاديث فى السياسة بين ثلاثتهم لا تنقطع.. ومعظمها يدور حول الخلاص من الاستعمار الإنجليزى.

وجاء حادث مقتل اللورد موين.. وهو الوزير البريطانى الذى أمر بإعادة باخرة بمن عليها من مهاجرين يهود.. وتربص به شابان يهوديان ونجحا فى اغتياله.. وتمكن كونستابل مصرى من إلقاء القبض عليهما.. وبذلك أنقذ مصر من تحمل مسئولية هذا الحادث الكبير.

كان لهذا الحادث وقع فى نفوس الشباب.. كما أثار النقاش بين الثلاثى - سعد - نجيب - محمد - واستخلصوا منه.. أنه رغم أن الانجليز يساعدون اليهود على احتلال فلسطين.. إلا أنهم فى الوقت نفسه يقفون ضد أى صديق يعارض مشروعهم... وهكذا أصبح الحديث عن الإرهاب والسلاح والاستقلال لا ينقطع.

وجاء فى سياق الحديث ذكر حسين توفيق.. ابن خالة كل من نجيب ومحمد كامل وهو (ابن توفيق باشا أحمد وكيل أول وزارة الحربية وهو.. منصب له شأن فى

ذلك الحين) أنه يقوم مع شقيقه سعيد توفيق وابن خالتهما مدحت فخرى.. بمهاجمة الانجليز فى المعادى.. وأن له العديد من المصادمات.. معظمها يستخدم فيها شومة.. ويضرب الجنود الانجليز على رؤوسهم.. وكان «سعد» يرى أن هذه المصادمات هى مغامرات وشقاوة أكثر من أنها تحقيق لأهداف سياسية.

واتسعت المناقشات.. وامتزجت بالأحلام المملوءة بحماس وفورة الشباب.. وكانت البداية التفكير فى إقامة جمعية سرية.. تعمل على تجنيد الشباب المتحمس والمستعد للتضحية.. لتطهير البلاد من الإنجليز وأعوانهم من السياسيين... لقد بدأ سعد يقتنع بأنه لابد أن يعمل بجناحين.. بالعلنية عن طريق الحزب الوطنى الجديد الذى يرأسه فتحى رضوان.. والعمل المسلح عن طريق هذا التنظيم الذى شرع فى التخطيط له.. لتصبح له فاعلية لا تقل عن العمل العلنى.

وهكذا أمضى «سعد» فترة التعليم الجامعى.. وهو ينهل من مختلف وسائل المعرفة.. سواء الدراسات القانونية فى كلية الحقوق.. أو المعرفة العامة والثقافية فى كلية الآداب.. أو الرياضة ومزاولتها فى نادى التجديف.. وبكل هذا اتسعت دائرة معارفه وأصدقائه الذين كانت السياسة هى شغلهم الشاغل.. غير أنه بقى عليه أن يحقق إنجازا ملموسا كل عام.. وهو أن يجتاز امتحان آخر السنة.. ولم يكن تحقيق هذا المطلب سهلاً بمكان.. خاصة أن مناهج كلية الحقوق الدراسية طويلة.. وكثيرة المراجع.. وتحتاج إلى ساعات طويلة للاستذكار ولتفهمها.. كما أن الامتحانات كانت تنقسم مابين النظرى والشفوى والجانب الشفوى يشارك فى لجانه.. إلى جانب أساتذة الكلية ممتحنون خارجيون لهم مكانتهم ودورهم فى الحياة العامة.. مما كان يعطى للامتحانات رهبة وأهمية غير عادية... كان «سعد» لا يطيق المذاكرة بمفرده.. ولا يمكنه أن يقضى بمفرده ساعات طويلة لقراءة المراجع والمذكرات، ووجد حلا لهذه المشكلة.. فى المذاكرة الجماعية بمنزله الذى تحول إلى ملتقى للأصدقاء والزملاء.. للمذاكرة لساعات طويلة.. وبالطبع كانت تتخللها مناقشات حامية فى السياسة وكل مناحى الحياة. كان عز الدين فوده من بين هؤلاء.. وكذلك عبد اللطيف الناحل.. والذى عرفه عن طريق شقيقه حماده الناحل المحامى المعروف.. صديق خاله فتحى رضوان.

كان عبد اللطيف الناحل.. من مديرية قنا.. ويعيش فى القاهرة عيشة العُزاب، فكان يفضل أن ينتقل إلى منزل « سعد».. ليتفرغ للدراسة مع «سعد».. دون القيام بالأعمال المنزلية.. وما تتطلبه من نظافة وإعداد للطعام.. خاصة فى الأشهر الأخيرة من العام الدراسى.

كانت السنة النهائية فى كلية الحقوق تحتاج إلى تركيز خاص.. فتخلى «سعد» عن كل أحلامه وأفكاره ومشروعاته المستقبلية.. ليواصل الليل بالنهار مع زميله عبد اللطيف الناحل.. مع التقليل من زيارات الأصدقاء التى كانت لا تنقطع أبداً فى الأحوال العادية... وبدأت فترة الامتحانات النهائية.. وتضاعف بالتالى الجهد.. وأصبحت ساعات الليل والنهار لا تكفى.. فكان كل منهما يتولى التركيز على جزء لشرحه لزميله.

وهكذا انتهت الامتحانات.... وسافر عبد اللطيف الناحل إلى بلدته فى قنا... وظهرت النتيجة بعد شهر من الامتحان.. وتلقى عبد اللطيف الناحل برقية نصها كالتالى:-

مبروك النجاح يا متر.... زميلك المتر سعد

* * *

الفصل الثانى

قضية الاغتيالات الكبرى

[٤]
تحت التمرين

لقد أصبح الطريق واضحا أمام «سعد».. فبعد الانتهاء من احتفالات الحصول على ليسانس الحقوق مع الأهل والأصدقاء.. قام باستخراج شهادة التخرج التى تثبت أنه اجتاز الشق النظرى.. مما يتيح له الحق فى استكمال الشق التطبيقى.. ويسجل اسمه فى جدول المحامين «تحت التمرين ».. والتى يلزمها بعض الأوراق.. أهمها طبعا شهادة الليسانس وشهادة الميلاد و«الفيش والتشبيه».

ذهب بالأوراق إلى لجنة «القيد».. التى اهتمت بالأوراق وصحة إصدارها.. والأختام التى عليها.. دون الاهتمام بالإنسان.. وهل يصلح أن يكون محاميا شكلاً وموضوعًا؟

خرج من أمام لجنة القيد وهو يحمل لقب محام – تحت التمرين – وكانت خطوته التالية.. هو ان يذهب إلى مكتب خاله فتحى رضوان ليتسلم عمله الجديد... ورحب به خاله وأصبح يناديه باسم «الأستاذ».. وطلب من سكرتيره «الأستاذ عفيفى» بأن يشترى مكتبا محترما للزميل «سعد».. وأن يلحقه بحجرة الانتظار.

لقد كان التقليد بعد أن يخرج الزوار من المكتب.. يذهب الأستاذ عفيفى ومعه «الأجندة» التى تضم مواعيد القضايا... ويتم توزيع قضايا اليوم التالى... فاختار الأستاذ قضيتين ليحضرهما أمام محكمة القاهرة.. وطلب من الأستاذ عفيفى تقديم مذكرات فى قضيتين.. وتأجيل باقى القضايا لأسباب مختلفة، وأنهى الأستاذ المقابلة بقوله للأستاذ «عفيفى».. إبقى خد «سعد» معاك علشان يتمرن ويبقى يساعدنا بعد كده... لقد كانت الجملة بمثابة حكم محكمة واجب النفاذ ، وكانت المشكلة أنه لا يعرف

شيئًا عن كيفية مواجهة القضاة إلى جانب أنها بداية غير مشجعة ، فهل سيتم تدريبه على يد كاتب محام؟

كان الاتفاق مع أصدقائه.. أن يلتقيا فى الساعات الأخيرة من عمل المكتب.. وكان من المقربين له فى ذلك الوقت.. كل من نجيب فخرى.. ومحمد ابراهيم كامل.. وكان «سعد» حريصًا على تقوية أواصر الصداقة بينهم.. فهم يمثلون الجزء الثانى من برنامجه وهو العمل السياسى السرى.

كانت سهراتهم فى أماكن عامة.. يتحدثون فى السياسة ومستقبل العمل الوطنى فى مصر... لقد قدمهم «سعد» إلى فتحى رضوان فأعجب بتفكيرهم.. ووجد فيهم شبابًا متفتحًا.. متقبلين لمزيد من العمل السياسى المستقبلى.. كانت الأحداث آنذاك توحى بأن الحرب العالمية الثانية توشك على الانتهاء.. خاصة بعد هزيمة دول المحور بقيادة روميل فى الصحراء الغربية.. وتحول الحلفاء من موقف الدفا ع إلى الهجوم..

وفى المساء حضر كل من نجيب ومحمد لمشاركته فى الاحتفال بأول نصر يحققه «سعد» .. لقد وجدوا كل الأماكن العامة مزدحمة بأفراد من قوات الحلفاء سواء الانجليز أو الأمريكيين.. وكذلك العساكر الهنود أو الأستراليين.. الذين يتناولون المشروبات الروحيه بشراهة.. والانطلاق فى العديد من الشوارع.. ويأتون بأفعال خارجة عن الآداب العامة... كل هذا جرح شعور الأصدقاء الثلاثة.. وضاعف إحساسهم بأنهم مع باقى أفراد الشعب مغلوبون على أمرهم.. ويعيشون غرباء فى بلدهم.. لقد أنهوا السهرة مبكرًا.. متفقين على أن يتقابلوا فى اليوم التالى فى منزل «سعد».. لمناقشة ما ينبغى عمله لتخليص مصر من الاستعمار.

وفى الموعد المحدد جاء إلى منزل «سعد».. محمد ونجيب ومعهم شاب ثالث هو حسين توفيق.. وكانت قد تناثرت أقاويل بأنه قام بالاعتداء على الجنود الإنجليز وحرق ممتلكاتهم بمنطقة المعادى.. وحكى لهم أنه قام بسكب البترول على باب المدرسة القنصلية بالمعادى وإشعال النار فيها.. مما بث الرعب فى نفوس البريطانيين.

كما قام بمشاركة زميل له بمدرسة الفرير.. بإحراق جراج لأحد موظفى السفارة البريطانية.. وامتدت النيران إلى سيارته بالجراج والتهمتها بالكامل.

كان من رأى «سعد» .. أن مثل هذه الأفعال لا تتجاوز أن تكون بعض المغامرات.. من أنها عمل سرى محكم.. الذى يتطلب الاتفاق على خطوات محددة.. واستمرت المناقشات والآراء والأفكار والتصورات أكثر من أربع ساعات.. واتفقوا على تشكيل تنظيم اسمه «تحرير مصر» وعلى أمور أخرى من بينها الآتى:-

* الأربعة المجتمعون - سعد - محمد - حسين - نجيب - يشكلون الخلية التأسيسية الأولى ومنها تخرج الخلايا الأخرى.

* كل خلية تتكون من ثلاثة أو أربعة أعضاء على الأكثر ويتم بناء التنظيم بالشكل العنقودى.. على أساس لا يعرف كل خلية إلا أعضاؤها.

* يتم ترشيح الأعضاء الجدد من الأعضاء القدامى.. ويوضع العضو تحت الاختبار مدة لاتقل عن ثلاثة شهور.. ويتم فيها تدريب العضو نظرياً بالمناقشات فى القضايا الوطنية.. وعملياً بالتدريب على استخدام السلاح.

* التمويل يعتمد أساساً على اشتراكات الأعضاء.. وعدم قبول أى مبالغ خارجية.. إلا بعد موافقة الخلية الأولى.

* لايتم تنفيذ أى عملية عسكرية.. إلا بعد موافقة الخلية الأولى.. وكذلك يتم التخطيط للعملية ودراستها دراسة متأنية.

وكان من أهم الموضوعات التى أثارها حسين.. وتم الاعتراض عليها.. هو مطالبته بأن لا يقتصر التمويل على الاشتراكات.. بل من الواجب مهاجمة شركات أو بنوك أجنبية للحصول على مبالغ كبيرة.. فى الإمكان أن تدفع العمل العسكرى دفعات قوية.. واعترض «سعد» بشدة على الخلط بين العمل السياسى والجريمة العادية.. وحذر من أن أى سطو مسلح سوف يكثف جهود البوليس للقبض على التنظيم.. والذى سيفقد هويته بذلك.

وانتهى موعد هذا الاجتماع التاريخى فى ساعة متأخرة من الليل.. على أن يلتقوا فى موعد لاحق للذهاب للتدريب على السلاح بالمقطم.

وفى الميعاد المحدد.. جاء حسين يقود سيارة والده.. ومعه محمد ونجيب وأخذوا سعد.. واتجهوا نحو منطقة قريبة من جبل المقطم.. حيث تركوا السيارة وبدأوا فى صعود المقطم... وكان حسين يعرف طريقه جيداً وثلاثتهم خلفه.. إلى أن وصلوا إلى مغارة محددة.. وأخرج حسين شنطة حديد كانت مخبأة فى أحد الجحور بالجبل.. وكانت تحتوى على الأسلحة التى سيتم التدريب عليها.

وبدأ حسين.. برنامج التدريب .. بشرح عن تركيب المسدس.. وكيفية تعبئته وتفريغه بالرصاص... وأمسك كل بمسدس.. وحدد لهم حسين هدفا للتصويب نحوه... وبدأ بنفسه فى إطلاق الرصاص على الهدف.. ثم تبعه محمد.. ثم سعد.. ثم نجيب.. مع الفارق الكبير بين نتائج حسين.. ونتائجهم التى كانت بعيدة تماماً عن الهدف.

وحرصًا على الأمان.. تم جمع كل الطلقات المتناثرة على الأرض ووضعها فى كيس.. تمهيداً لدفنها بعيداً عن مغارة تخزين السلاح.. حرصًا على الأمان. وأثناء العودة أكد الجميع أهمية الالتزام بالقرارات المتفق عليها.. خاصة بشأن الإبلاغ عن العمليات العسكرية مسبقًا.. وأهمية الإعداد والتخطيط المحكم مسبقًا... وكان لهذا الحديث الودى والحميم.. أكبر الأثر فى شعور «سعد» بالراحة النفسية.. لأنه كان يستشعر الخطر من أسلوب عمل حسين الارتجالى. هذا وقد تكررت رحلة التدريب ثلاث مرات بعد ذلك ، وكانت فرصة لفتح مناقشات سياسية مهمة ومثمرة لتقريب الفهم بينهم، كما أنها نجحت فى تحويل حسين إلى مناضل سياسى.. بدلا من أسلوبه الأول القائم على المغامرة قبل السياسة.

نجح حسين فى تشكيل خلية الدقى.. وتضم مدحت فخرى شقيق نجيب.. وسعيد شقيق حسين.. وعز الدين كامل شقيق «سعد».. والخلية الثانية أطلق عليها خلية مدرسة فؤاد الأول.. وتضم محمد أحمد الجوهرى.. وأحمد خليل الحلوانى.. وكامل محمد ابراهيم الواحى.. وعمر حسين أبو على، وكان يتم تدريب كل خلية على حدة.. لحين إصدار الأوامر لها لتنفيذ عمليات محددة.

واستمر العمل كما هو مرسوم له.. إلى أن طلب حسين اجتماع خلية الجيزة (سعد- محمد- نجيب- حسين).. مع خلية مدرسة فؤاد الأول لمناقشة موضوع مهم.

تم الاجتماع فى منزل محمود الجوهرى - أحد أفراد خلية فؤاد الأول - وبعد تعارف الأعضاء.. عرض عمر حسين أبو على أن شقيقه وهو الطيار أحمد سعودى قبل أن يهرب، والذى كان قد استقل طائرة من السلاح الملكى ولجأ بها إلى ليبيا حيث جيوش المحور، وذلك احتجاجا على هيمنة الانجليز على الجيش المصرى ، قد أخبره عن أحد الضباط الوطنيين وهو أنور السادات - الذى كان مفصولاً آنذاك من الجيش ويرشحه للانضمام لتنظيم «تحرير مصر».

تحفظ «سعد» على هذا الطلب وذكر أنه.. من المناسب أن يحدد ميعاداً لاحقًا لمقابلته ومعرفة.. هل من المناسب انضمامه من الآن أم تأجيل هذا الطلب إلى فترة تالية خاصة وأن أنور السادات عليه علامات استفهام كبيرة. لأنه كان متهماً فى قضية تجسس لحساب ألمانيا... وتم الاتفاق على مقابلته فى نفس المكان الأسبوع التالى.. لاستكشاف أهدافه من الانضمام للتنظيم.

وأثناء عودتهم إلى منازلهم.. ظهر أنهم جميعًا متخوفون من انضمامه.. «فسعد» يرى أنه سياسى محترف.. ودائماً يعمل لحساب جهة ما.

أما محمد فكان متخوفاً من أنه معروف للبوليس السياسى.. ودخوله معهم سيوجه أنظار البوليس إليهم.. أما نجيب فيرى أنه انسان مغامر وأنه سيتحالف مع حسين.. للقيام بمغامرات عسكرية هم فى غنى عنها.

وفى نفس الوقت كان ينتابهم الثلاثة شعور بالفرح.. بأن الجمعية مقبلة على خطوة جديدة.. وأنها ستتطور من كونها جمعية تضم الأهل والأصدقاء.. إلى دخول مرحلة الشخصيات العامة والاحتكاك المباشر بالحقل السياسى.

مرت الأيام وفى الميعاد المحدد للمقابلة.. تم اللقاء فى منزل محمود الجوهرى.. وبعد وصولهم هناك حيث كان فى انتظارهم كل من حسين والجوهرى وعمر أبو على وبعد أن جلسوا فترة وجيزة.. حضر أنور السادات.. يحمل معه هدية مغلفة تغليفًا محكمًا... وفى جو تسوده المحبة والحميمية.. بدأ التعارف الذى قام به الجوهرى.. لكونه على صلة وثيقة بالطرفين.. ودار الحديث عن أهداف الجمعية.. وما يمكن أن تحققه من المساهمة فى طرد الاحتلال العسكرى.. والحصول على الاستقلال التام.

وبعد فترة طلب السادات أن يتوقف الحديث لفترة وجيزة.. ليقدم هديته للجمعية... وتوقف الحديث واشرأبت الأعناق لمعرفة نوعية الهدية... وقام أنور السادات وبدأ بفتح الهدية... وبعد أن رفع الغلاف الخارجي.. ظهر أنها علبة من الورق المقوى.. ثم وضعها على المائدة وفتحها.. والكل يسأل.. ماذا تكون الهدية !! البعض إعتقد انها لابد أن تكون محطة إرسال لاسلكى.. أو راديو فائق الحساسية ممكن أن يلتقط الإرسال اللاسلكى.... خاصة وأن أنور السادات قد تخصص فى هذا المجال. وفتح الصندوق وظهر أن به ١٢ قنبلة يدوية... وقام حسين وحمل الصندوق بيديه وظهرت السعادة على وجهه.. وأخذ يمر على كل واحد ويجعله يتفحص الهدية الثمينة.. التى جعلت الحاضرين يشعرون بأن الجمعية مقبلة على مرحلة جديدة.

وكما يقولون فى عالم السينما.. إن النجم الفلانى قد سرق الكاميرا... هذا ما حدث مع أنور السادات.. فقد نجح فى تحويل الجلسة من محاكمة له.. والاستفسار عن ماضيه وعلاقته بقضايا التجسس لحساب ألمانيا.. وأنه مكشوف للبوليس السياسى.. إلى الحد الذى فى الإمكان أن يؤثر على مستقبل الجمعية.. بل إتهامه بأنه على صلة مريبة بالقصر؟.

تحولت الجلسة إلى وضع أنور السادات موضع الأستاذ المحاضر.. يشرح الفرق بين القنبلة الهجومية.. والتى تحتاج إلى فترة طويلة نسبيا حتى تنفجر.. فى حين الدفاعية تنفجر بعد فترة وجيزة من نزع صمام الأمان.

وانتهت الجلسة.. والكل إزداد ثقة أنهم مقبلون على مرحلة جديدة.. وسيتحولون إلى مؤثرين على سير الأحداث.

وبعد أن وصل الجميع إلى منازلهم.. اتصل الجوهرى «بسعد» وأخبره.. أنه تفحص القنابل.. فوجد أن المُعد للاستخدام ثلاثة فقط.. أما الباقى فقد تم نزع المفجر منهم... واتصل «سعد» بأنور.. الذى أخبره بأنه نزع المفجر لخوفه من إصابة أحد.. وأن هناك ثلاث قنابل بها المفجرات.. وممكن استخدامها فوراً... إن الخطوة الأولى

التى قام بها أنور السادات.. هى أخذ حذره وتقديمه نصف النوايا الحسنة.. وإشعار الجمعية أنها محتاجة إليه دائمًا.. إنها ليست هدية خالصة.. بل هدية هادفة إلى وضع الجمعية تحت سيطرته!

فهل سينجح ؟.. سؤال ستجيب عليه الأيام....

* * *

[٥]

١٩٤٥عام الصراع الدموى

حل عام ١٩٤٥.. والأجواء داخل وخارج مصر غاية فى التوتر والقلق.. رغم بداية النهاية للحرب العالمية الثانية، وقعت مأساة هيروشيما ونجازاكى.. والتى انتهت بقتل وتشويه وتشريد ما يزيد على ٢مليون من البشر دون أى سبب.. سوى أن تعلن أمريكا مبدأ البقاء للأقوى!!.

وفى مصر كانت محاكمة قتلة اللورد موين وهما الشابين: الياهو حكيم، وإلياهو يسورى.. عضوين فى منظمة الهاجانا السرية اليهودية.. واستمرت المحاكمة عشرة أيام.. وأصدرت المحكمة الحكم بإعدام المتهمين. كان لهذه القضية تأثير كبير على الشباب عموما.. وأعضاء التنظيم السرى الجديد (تحرير مصر) بصفة خاصة، رغم اتفاقهم على أن اليهود مغتصبون للأرض الفلسطينية غير أن هناك شعوراً بالإعجاب لما قاما به.. فهم يشتركون معهم فى محاربة الإنجليز.. إلى جانب أن المتهمين نموذج لكوادر النظام السرى والمقاومة الشعبية المسلحة. وأكدا التزامهما حرفيا وبهدوء شديد بما أوكل إليهما. وقد استمر المتهمان رابطى الجأش إلى أن تم إعدامهما. لقد كان لحادث مقتل اللورد موين والقضية والمتهمين كلها إشارات خفية لجيل «سعد» بأن الحقوق المستحقه لمصر لن نحصل عليها من الانجليز إلا بالقوة.

وجاء مقتل رئيس وزراء مصر أحمد ماهر باشا ليظهر دموية عام ١٩٤٥، فقد تم اغتياله فى البرلمان على يد محمود العيسوى المحامى.. رغم أنه كان يعد مشروع قانون بإعلان الحرب على دول المحور.. وذلك بناء على البيان العالمى الذى يقضى بأن تشارك فى مؤتمر سان فرانسيسكو كل الدول التى أعلنت الحرب على دول المحور لوضع

أسس المنظمة العالمية الجديدة للأمم المتحدة والتى ستضع قواعد العلاقات الدولية المستقبلية.... وقد بنى أحمد ماهر باشا عقيدته على أن مصر قد تحملت وزر الحرب العالمية الثانية دون أن تعلن الحرب على دول المحور فما الذى سيضير مصر لو أعلنت الحرب اليوم وقد بدأت الحرب تضع أوزارها. وفعلا كان البرلمان مهيأ للموافقة على إعلان الحرب على دول المحور. وقام أحمد ماهر بإلقاء خطابه فى مجلس النواب موضحًا أهمية إعلان الحرب، وبعد الخطاب وفى أثناء مروره فى البهو الفرعونى بمجلس النواب اعترضه محمود العيسوى وهو محام شاب.. وأطلق عليه رصاصات أردته قتيلا... إنها تبين كراهية الشعب المصرى للاحتلال الانجليزى وتوجسه من نوايا انجلترا تجاه المطالب المصرية.

الخلاصة: أن كل الأجواء العالمية والمحلية تدفع العناصر الوطنية فى اتجاه استعمال السلاح وفعلا تمت موافقة تنظيم «تحرير مصر».. على أول عملية اغتيالات للجنود البريطانيين المنتشرين فى شوارع القاهرة.

وتمت الموافقة على تفاصيل أول عملية عسكرية.. وتوزيع الأدوار كالآتى: سعيد توفيق قيادة السيارة حسين توفيق ومدحت فخرى للقيام بتنفيذ الاغتيالات. ومحمود مراد احتياطى وللدفاع... ويصف مدحت فخرى الحادث بقوله، إن رحلة البحث بدأت فى شارع الجزيرة بالزمالك.. حيث اعتاد الجنود الانجليز السير فى هذا الحى مستغلين الإضاءة الخافتة والأشجار الكثيفة مع عشيقاتهم من مجندات بريطانيات وتم الإتفاق على أن يجلس حسين فى المقعد الأمامى بجوار سعيد توفيق، وخلفهما مدحت ومحمود مراد.. واقتربت السيارة من أحد العساكر الانجليز بصحبة عشيقته وقام حسين ومدحت بإطلاق النار نحو الجندى الذى وقع على الأرض مضرجًا فى دمائه، وبعدها انطلقت السيارة نحو كوبرى الانجليز (بديعة) ونزل مدحت متجها إلى منزله.. ثم اتجهت السيارة إلى مصر الجديدة حيث منزل محمود مراد عند منشية البكرى، وواصلت الرحلة إلى منزل حسين وسعيد، وتم إعادة السيارة إلى جراج الأسرة فى المنزل دون أن يدرى أحد بما تم.

وبعد فترة وجيزة تم الاتفاق على عقد اجتماع.. لمناقشة عملية الجبلاية ووضع

التخطيط للعملية التالية. كان اللقاء بمنزل «سعد» وحضره حسين، ونجيب ومحمد.. بالإضافة إلى أنور السادات.. الذى طلب المشاركة فى الاجتماع لمناقشة موضوع مهم، وكانت البداية أن شرح حسين، تفاصيل عملية الجبلاية.. وتأثيرها المباشر فى إرهاب جنود الاحتلال.. مما دفع البوليس السياسى إلى تشكيل فريق عمل للبحث عن الجانى.. ثم تكلم أنور السادات وتساءل.. إذا كنا قد نجحنا فى اغتيال جندى بريطانى فهل سننجح فى إبادة مائة ألف جندى بريطانى؟ وطلب أن نهتم باغتيال أعوان الاستعمار فعددهم محدود وهم الذين يسهلون للمستعمر الاستمرار فوق أرض الوطن وطلب بأن تكون البداية اغتيال النحاس ثم أمين عثمان.. على أساس دورهما البارز فى أحداث ٤ فبراير غير أن نجيب فخرى اعترض على هذا الرأى حيث دخولنا فى معترك السياسة سيقصر من عمر الجمعية لأن أجهزة الأمن سوف تكثف كل جهودها للقبض على منفذى الاغتيالات السياسية بعكس قتل الانجليز فهو مطلب كل الشعب.

واقترح «سعد» بأن يكون اغتيال الجنود الانجليز هو خط عام مستمر، يتخلله تصفية كل العناصر السياسية الفاسدة بوضوح ولا خلاف عليها كالنحاس وأمين عثمان. وتم الاتفاق على أن تكون البداية اغتيال النحاس ويشارك الجميع فى العملية.

وبعد يومين من الاجتماع عرف«سعد».. أن خطة اغتيال النحاس أمام منزله بجاردن سيتى لا تصلح لأن المنطقة تحت حراسة مشددة سواء من جانب البوليس النظامى أو السرى وذلك لحراسة السفارة البريطانية التى تقع بالقرب من منزل النحاس وأن الانسحاب بعد إتمام العملية من الصعوبة، وتم تغيير الخطة بمهاجمة النحاس عند ذهابه إلى اجتماع الهيئة الوفدية، والتى يترأس اجتماعها اسبوعيا كل يوم خميس.

تم رسم الخطة وتوزيع الأدوار وذلك بأن يتم مهاجمة السيارة عند خروجها من جاردن سيتى إلى شارع قصر العينى واتجاهها يساراً إلى مقر النادى السعدى فى الجهة اليسرى من شارع قصر العينى، وتقرر أن يكون هناك ثلاثة خطوط فى الخط الأول يتكون من حسين ومحجوب والجوهرى ومع كل منهم قنبلة ومسدس والخط الثانى سعد ومحمد كامل وعمر أبو على وعليهم حماية الخط الأول وفى الخط الثالث أنور السادات ومعه سيارة ليلتقط حسين بعد العملية لإبعاده عن مسرح الحادث.

وفى الميعاد المحدد من يوم الخميس ٥ ديسمبر ١٩٤٦ كان كل فرد فى موقعه ومتحفزًا للقيام بدوره بكل دقة، وفى حوالى الساعة السادسة والربع بدأ موكب النحاس باشا وتشاء الصدف أن السائق بدلا من أن يتوقف أو يتمهل قليلا لتفادى الترام بشارع قصر العينى أسرع لأنه رأى أن هناك عربة جيش انجليزى قادمة آنذاك وعندما ألقى حسين القنبلة أصابت مؤخرة السيارة دون أى ضرر لركابها.. بينما كانت الإصابة مباشرة ومؤثرة على المجندات الموجودات داخل عربة الجيش الانجليزى.

وانسحب حسين بعد فشل المحاولة واتجه إلى الشارع المتفق على أن يقف فيه أنور السادات داخل تاكسى لينسحب من مكان الحادث غير أن السادات غادر المكان بالتاكسى بمجرد أن سمع صوت الانفجار مما اضطر حسين أن يختفى فى شارع جانبى ثم استقل تاكسى أوصله لبداية مترو مصر الجديدة فى شارع عماد الدين ليدخل منزله وكأنه عائد من زيارة صديق له.. وهكذا تفرق كل المشاركين فى العملية ليعودوا إلى منازلهم دون أى لقاء خوفا من إثارة الشبهات.

وبعد مرور عدة أيام تقابل حسين مع «سعد» وروى له تفاصيل ما حدث وكان السبب الأساسى لفشل العملية هو الإظلام أكثر مما كان يتوقع وكذلك ركوب النحاس عربة فؤاد سراج الدين مما جعله عند التنفيذ غير واثق من أن الموجود فى السيارة هو النحاس أم أحد معاونيه.

وأضاف حسين أنه مستريب من تصرفات أنور السادات وتركه المكان المتفق عليه بالتاكسى بمجرد سماع انفجار القنبلة إلى جانب أنه ذهب بالتاكسى متوجها إلى جريدة الكتلة حيث قابل جلال الحمامصى ليثبت وجوده بعيداً عن مكان الحادث.

التقى أنور السادات مع حسين فى قهوة متاتيا ودافع أنور السادات عن تصرفاته بأنه عند سماع القنبلة عرف أن العملية فشلت وأن القنبلة ستار جيد للانسحاب مما يجعل وجوده لا معنى له وليثبت أنور السادات حُسن نواياه طلب أن يتم وضع خطة جديدة لإغتيال النحاس وأنه سيشارك فى تخطيطها مع حسين ولكن حسين عرض فكرة اغتيال أمين عثمان أولاً وبالقطع سيحضر جنازته فى اليوم التالى النحاس:

ويكون من السهل اصطياده وبنجاح كبير وعلق أنور السادات مؤيدا تلك الخطة بقوله إنها خطة « إصطياد عصفورين بحجر واحد!!».

عرف «سعد» أن حسين قد بدأ فعلا فى وضع خطة اغتيال أمين عثمان بعد حديثه مع أنور السادات ووجد أن فى الإمكان اصطياده أثناء توجهه إلى «رابطة النهضة» التى تقع فى عمارة بالشارع الموصل مابين ميدانى الأوبرا والعتبة.

ذهب حسين إلى الرابطة وعرف من الإدارة مواعيد حضور أمين عثمان وكذلك عرف نظام الرابطة وطريقة الإشتراك بها وقرأ فى مطبوعاتها أن من أهدافها توثيق عرى الصداقة بين المصريين والإنجليز، فهى تقوم بتفريخ الكوادر المؤمنة بالصداقة المصرية البريطانية. ومن الأقوال المأثورة لأمين عثمان فى إحدى الندوات قال: «إن العلاقة بين مصر وبريطانيا.. هى علاقة زواج كاثوليكى لا يمكن أن ينفصل أبد الدهر!!».

وفى اليوم الأخير من ديسمبر ١٩٤٥ التقى «سعد» مع محمد ونجيب ليودعوا هذا العام المملوء بالدم والدموع.. ويستقبلون عاما جديدا وكلهم أمل فى أن يكون عاما أكثر إنسانية من الأعوام الخمسة الماضية.

* * *

[٦]
اغتيال أمين عثمان

مضت خمسة أيام من مطلع عام ١٩٤٦ دون أخبار مثيرة.. أو مانشيتات حمراء إلى أن جاء اليوم السادس.. ظهرت الصحف وفي صدر صفحتها الأولى صورة أمين عثمان وخبر اغتياله.. وقد أوردت جريدة الأهرام: [في الساعة السادسة والنصف من مساء أمس (٥ يناير) وقفت سيارة أجرة أمام المنزل رقم ١٤ شارع عدلى باشا ونزل منها أمين عثمان باشا ثم ولج داخل باب العمارة في طريقه إلى نادى رابطة النهضة التي يرأسها، وما كاد يصعد الدرج حتى برز شخص كان مترصدا له بالقرب من الباب الخارجي للعمارة وأطلق عيارًا ناريًا فسقط مضرجا في دمه ثم خرج القاتل وسار في الشارع ويديه في جيوبه ولم يلبث أن شعر بالناس يتجهون نحوه فأسرع الخطى قليلا ثم أخذ يعدو متجها نحو ميدان الأوبرا وقد شهر مسدسه في يمينه وظل يطلقه هنا وهناك ولما أوشك مطاردوه أن يحدقوا به التفت إليهم وألقى عليهم قنبلة يدوية فانفجرت وأصابت شظاياها بعضهم وكف الباقون عن تعقبه وهكذا اختفى القاتل وسط فزع القوم وخوفهم واضطرابهم... ... ولم يستغرق كل هذا... القتل والمطاردة... وإلقاء القنبلة أكثر من عشر دقائق] واستطردت الصحيفة:

نقل أمين باشا إلى مستشفى مورو حيث أجريت له عملية لإخراج الرصاص من جسمه. ولكن القضاء كان قد حكم وفاضت روحه في نحو الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي.. أي في يوم الأحد ٦ يناير... ولم يتمكن المحققون من استجواب أمين باشا نظرا لخطورة حالته، فقد أصيب بطلقتين من الطلقات الثلاث في الرئتين اليسرى واليمنى فاخترقتاهما.. واستقرت إحداهما تحت الجلد.. وأمكن استخراجها. أما المسدس الذي أُستُعمل في الجريمة وألقاه القاتل في الطريق، فهو من الصلب الأسود

له مقبض من الخشب البنى مزخرف بخطوط محفورة وطول ماسورته ١٥ سنتيمترا.. وساقية تسع رصاصات.. وجد منها خمس رصاصات فارغة وهو من نوع «أنفيلد».

وقد بدأ التحقيق بعد ذلك الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك رئيس نيابة جنوب القاهرة.. تحت إشراف عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام.

وما أن انتهى «سعد» من قراءة ما نشرته كافة الصحف اليومية حتى تملكه يقين تام بأن حسين توفيق هو الذى فعلها وأعجب بطريقة التنفيذ، فهكذا تكون العملية ناجحة ١٠٠٪ وليس هناك كما هو واضح من التقارير الصحفية أى خيط يمكن أن يؤدى إلى القبض على الفاعل، غير أنه فوجئ بنجيب يخبره تليفونيا بأنه تم القبض على حسين متهما بالحادث وأنه سيحكى له التفاصيل عند لقائهما بالمكتب وتعجب كثيرا، كيف نجح البوليس فى تحديد أن حسين هو القاتل؟

عند المقابلة كان نجيب مرتبكا على غير عادته الدائمة، وذكر له أن خالته (وهى والدة حسين توفيق) أخبرتهم أمس أنه فى العاشرة مساء أثناء تناول الأسرة طعام العشاء سمعوا جرس الباب، وأخبرهم السفرجى أن هناك ضيوفا كثيرين على الباب، وذهبت خالته تستطلع الأمر فوجدت رجال النيابة والبوليس وطلبوا مقابلة توفيق باشا (والد حسين) فنادت عليه، وما أن رآهم حتى دعاهم للدخول فى الصالون تكلم مع وكيل النيابة المرافق للحملة واسمه (كامل قاويش) والذى كان فى غاية الأدب مع الباشا وأخبره أنها فقط تحريات لأن البلد كلها مقلوبة فقد تم قتل أمين عثمان باشا وأن أحد الشهود ذكر اسم حسين لذلك فهو إجراء روتينى عادى ولا داعى للقلق فالمسألة فقط يوما أو يومين وتنتهى التحريات والتحقيقات واستأذن بكل أدب بتفتيش حجرة حسين فقط وكل متعلقاته فى المنزل وانتهى ذلك بالعثور على مسدس مفكوك أسفل درج مكتب شقيقه سعيد توفيق وبعد انتهاء التفتيش قرروا القبض على حسين وسعيد.. مما أثار توفيق باشا وطلب منهم عدم القبض على سعيد لأنه كان معه فى المنزل بعد عودته من المدرسة وحتى الآن فأخبره وكيل النيابة أنه بمجرد الانتهاء من الإجراءات الروتينية سيحضر بنفسه ومعه الولدان ليعيد الأمانة لأصحابها....

وفى اليوم التالى عرف «سعد» من الأستاذ فتحى رضوان أنه تم القبض على عزيز باشا المصرى.. نتيجة خطاب إلى النائب العام بتوقيع (ص أ) يذكر فيه أن حسين توفيق هو مرتكب حادث اغتيال أمين عثمان وكذلك محاولة اغتيال النحاس باشا ضمن جمعية سرية يرعاها عزيز باشا المصرى. لذلك فقد تم القبض على عزيز باشا بالإضافة إلى الإعلان عن مكافأة سخية عسى أن يظهر صاحب الرسالة ويوضح أسرار هذا التنظيم.

فى يوم السبت ١٢يناير أى بعد ما يقل عن أسبوع من الحادث اتصل «سعد» تليفونيا بنجيب كالعادة وردت عليه والدته بصوت مضطرب بأن البوليس جاء بالأمس وألقوا القبض على نجيب ومدحت كما أضافت أنها عرفت من شقيقتها أنه تم أيضًا القبض على محمد كامل.

إنتاب سعد القلق وخشى أن يكون حسين قد بدأ يعترف ويكشف كل الأسرار... وازداد توتره وقلقه حين بلغته أخبار القبض على كل من: محمود يحيى مراد ومحمد أحمد الجوهرى وهما من بين أعضاء خلية فؤاد الأول.. وفى اليوم التالى تم القبض على عمر حسين أبو على.. والطيار حسين عزت.. وأنور السادات... بدأ يتأكد أنها مسألة وقت حتى يتم القبض عليه وقرر أن يعود فورا إلى المنزل للتخلص من القنبلتين والمسدس المخبئين فى أحد أدراج بوفيه حجرة السفرة.

وما أن اقترب من المنزل حتى استوقفه مخبران وطلبا منه الصعود معهما إلى منزله فحضرة المأمور فى انتظاره.. ومعنى ذلك أن المأمور له مدة فى المنزل وقطعا عثر على المسدس والقنبلتين وحين دخل المنزل وجد العكس تمامًا فالمأمور ومعه اثنان من الضباط جالسون مع والده ولم يقوموا بأى شىء غير انتظاره ليبدأوا إجراءات التفتيش واستقبله المأمور بكل ود واحترام كما لو كان صديقا للعائلة وطلب منه المأمور أن يصطحبهم إلى حجرته لتفتيشها.. وسأله عن متعلقاته الشخصية فأشار على المكتب ودولاب الملابس... ثم سأله هل عندك أى ممنوعات.. مسدسات أو ما شابه ذلك ؟؟ فأجاب طبعًا بالنفى ثم سأله مرة ثانية هل عندك أى ممنوعات فى مكان آخر بالمنزل... فأجاب بالنفى فرد المأمور « إذا كل شىء تمام وتم التفتيش بكل دقة وعناية!!».

وطلب من سعد أن يعد حقيبة بها مستلزماته الخاصة حيث أنه سيتغيب عن المنزل لبضعة أيام... وقامت والدته بإعداد الشنطة.. وفى نفس الوقت كان سعد على عجل لترك المنزل مع البوليس خوفا من عثورهم على الأسلحة المخبأة بأحد أدراج حجرة السفرة.

وقام بوداع والده ووالدته وهما متماسكان جدا.. وكأنه مسافر لزيارة أحد أقربائه وقد لاحظ سعد أن البوليس يتعامل معه وكأنه بطل قومى أو كأنهم يريدون أن يقولوا : ليتنا ننال الشرف الذى تحظى به!!.

اتجهت الحملة إلى نقطة بوليس كوبرى الانجليز وهى نقطة شرطة صغيرة تقع فى ميدان الكوبرى أمام كازينو بديعه وجلس «سعد» فى حجرة المأمور الذى اتصل تليفونيا بالقسم السياسى وأعطى «التمام».. وطلب حضور من يتسلم المتهم المطلوب وبعد فترة قصيرة حضر «الجزار بك» وهو أحد الضباط النشطين فى القسم السياسى واصطحبه فى السيارة إلى مبنى سجن الأجانب.. الذى كان يقع فى نهاية شارع عماد الدين وقريبا من مدخل نفق شبرا (مكانه الآن محطة بنزين التعاون). ويتكون السجن من ثلاثة طوابق.. الأول والثانى حجرات السجن.. والثالث مسكن مأمور السجن.. وهو انجليزى اسمه «مستر هكمان».

ويعتبر سجن الأجانب «سجن شيك» بمقارنته بالسجون الوطنية.. فهو مخصص لحجز المتهمين الأجانب.. والذين كانوا ينعمون بالحماية من قبل الاحتلال البريطانى.

وتختلف حجرات السجن فبعضها يتسع لسرير واحد وبعضها به أكثر من سرير وقد يصل عدد الأسرة إلى خمس أو ستة سراير وكل حجرة بها حنفية مياه.. ودورة مياه.. أى أنه سجن أدمى للأجانب عكس السجون الوطنية.. حيث بدل السرير «بُرش» و«جردلان» أحدهما لمياه الشرب والآخر لقضاء الحاجة!

والشيء الغريب أنه رغم أن الساعة قد قاربت على التاسعة مساء فإن أبواب سجن الأجانب قد فتحت لاستقبال الوافد الجديد وهذا عكس تقاليد كافة سجون العالم إذ أنها لا تفتح أبوابها بعد غروب الشمس. أما هذا السجن ولأنه تحت إشراف القسم

السياسى فأبوابه مفتوحة على مدار الـ ٢٤ ساعة فالبوليس السياسى غير ملتزم بالإجراءات الروتينية المتحجرة إلى جانب إمكانية إجراء التحقيق داخل السجن وعمل المواجهات بين المتهمين للحصول على أكبر قدر من المعلومات والاعترافات.

دخل «سعد» حجرته فى الطابق الثانى، وهى حجرة منفردة وما إن بدأ يخلع ملابسه ليسترخى قليلا من اليوم الطويل الذى مر به حتى سمع نقراً منتظماً على الحائط من الحجرة المجاورة وسمع من ينادى عليه من داخل السجن وعرف أن السجين المجاور هو سعيد توفيق وبدأ فى التحادث بصورة تلغرافية.. فكل المحادثة سوف يسمعها كل خلق الله بالسجن... فبطريقة الشفرة الكلامية إتفقا على أن يكون الخبط على الحائط هو طلب استدعاء للمحادثة عن طريق الأبواب... وعرف سعد أن بالسجن كل أصدقائه وأحبابه - نجيب - محمد - مدحت - أنور السادات- حسن عزت- الخ الخ.... شعر بالارتياح لوجود رفيق له بالحجرة ممكن أن يؤانسه بعض الوقت.... وما أن وضع سعد رأسه على المخدة حتى استغرق فى النوم من الإرهاق الشديد الذى حل به.

ولم يمض على هذا النوم العميق أكثر من ساعتين.. حتى استيقظ وهو مهموم ويشعر بقلق شديد نتيجة لتذكره القنبلتين والمسدس الموجودين فى أحد أدراج حجرة السفرة... هل التفتيش الصورى الذى تم أمس بهدف إبعاده عن المنزل.. ثم يعاود البوليس البحث عن الأسلحة!!

ماذا يقول فى التحقيق وخاصة عن القنابل المهربة من الجيش المصرى؟

وارتفعت الهواجس لتصل إلى حد من الممكن أن تعثر والدته أو شقيقته على الأسلحة وقد تنفجر القنبلة فى وجوههم ، إزداد قلقه ولم يجد سوى أن يلجأ لجاره سعيد فأخذ يدق عليه وعرض عليه هاجسه.. فاقترح سعيد عليه أن يطلب زيارة طبيب خارجى لاستكمال علاج لا يحتمل التأجيل.

وهو مستغرق على حل مشكلته فُتح الباب ودخل ضابط انجليزى كبير فى السن.. بشوش الوجه تشعر بالطيبة إذا نظرت لوجهه - إنه مستر هكمان- مدير السجن

ويقوم بهذا التفتيش يوميا لصالح المسجونين ولمعرفة هل لهم شكوى... طبعا إنها بقايا تقاليد العناية بالأجانب!!

وسأل مستر هكمان سعد بأسلوب أبوى حنون.. هل له أى شكوى أو مضايقات؟.. فرد سعد بأنه كان يعالج من مرض الباراتيفود.. بمعرفة الدكتور إبراهيم حسن الطبيب المعروف فى مستشفيات حميات القاهرة.. ولم يستكمل العلاج.. ويخشى من الانتكاسة لإيقاف العلاج فجأة وطلب سعد أن يُعرض على طبيبه المعالج فى عيادته بالسيدة زينب واستفسر منه المأمور عن موقفه من تناول الطعام فرد «سعد» بأنه لم يتفق مع أهله لإرسال طعام له.. ودون المأمور هذه الملحوظة وسأله عن من يتصل به لإحضار الطعام فأخبره برقم تليفون والده... وبعد انصراف المأمور جاءه طعام الإفطار الذى يليق بفندق أكثر من سجن (بيض - جبنة - عسل أسود - شاى).. وما أن انتهى منه طلب منه أن يرتدى ملابسه فقد وصل الحرس الخاص لنقله إلى سراى النيابة بباب الخلق حيث يتم التحقيق.

وقع الضابط الملازم أول بأنه استلم السجين لتوصيله للنيابة وإعادته ويخرج السجين ومعه فرقة الحراسة المخصصة له والمكونة من ضابط وعسكريين ويحمل كل منهما بندقية... كل متهم معه هذا الفريق من الحراسة ولا تستطيع أن تفرق هل هم حرس خاص له أم عليه؟

وبعد استخدام تاكسى للوصول إلى دار النيابة تم تسكينه فى إحدى غرف معاونى النيابة وجلس على كرسى محاذ للمكتب وامتنع كل الموجودين بالحجرة عن التحدث إليه إذ كانت القضية محاطة بهالة كبيرة من الأهمية إلى جانب رصد مكافأة مالية ضخمة لمن يُدلى بأقوال تُساعد على فك أسرارها كل ذلك أدى إلى أن يحتاط الجميع فى التعامل مع المتهمين.. خوفًا من البوليس السياسى وتشديدهم الرقابة عليهم.

ومع ذلك فقد نجح أحد كتبة المحامين وكان يعرف «سعد» معرفة جيدة فى الاقتراب منه وأخبره أنه مستعد لأى خدمة.. فأعطاه «سعد» رقم تليفون والده ليطلب

منه أن يكون على صلة مستمرة بالدكتور إبراهيم حسن لأنه سيعرض عليه فى ميعاد قريب.

وبذلك اطمأن بأنه عند ذهابه للعلاج عند الدكتور إبراهيم حسن سيجد والده ليخبره بضرورة التخلص من الممنوعات الموجودة بحجرة السفرة!

وبعد فترة انتظار طويلة دُعى «سعد» للتحقيق بمعرفة (كامل أفندى قاويش) وبعد العديد من الأسئلة الروتينية سأله عن علاقته بحسين توفيق تبعه بسؤال استنكارى،كيف تكون هناك علاقة صداقة بين طالب فى الصف الثالث الثانوى وبين محام قد تخرج بعد أربع سنوات دراسة فى الجامعة. ونفى سعد وجود صداقة ولكنه ابن خالة نجيب فخرى ومحمد إبراهيم كامل ولا يراه إلا من خلالهما.

وحدد وكيل النيابة الاتهامات «لسعد» فى أن حسين توفيق قد اعترف بأنه عضو معه فى جمعية سرية لقتل الانجليز والمصريين المتعاونين معهم، وإنه اشترك مع حسين وآخرين فى محاولة قتل النحاس باشا فى شارع قصر العينى وكان محددا له مكان معين ليقف فيه ومعه مسدس لحماية حسين أثناء انسحابه بعد الجريمة. كما أنه كان يقوم بدور المستشار السياسى للجمعية وإن تحديد الأسماء المطلوب اغتيالها تأتى بفتوى منه وسبق له أن ذهب للتدريب على استخدام السلاح بالمقطم.

إذن كما اعتقد «سعد» وكما تُوحى الأسئلة والاتهامات اعترف حسين بكل ما يعرف فالأسئلة ليست محاولة من النيابة التعرف على الحقائق.. بل هى حقائق والنيابة تريد فقط التأكيد.

وأجاب «سعد» على هذه الاتهامات بأنه لا يؤمن بالعمل السرى ولكنه يؤمن كل الإيمان بالعمل الحزبى والجماهيرى، ويشاركه فى هذا الإيمان كل من نجيب ومحمد، وأن العلاقة التى تربطه بحسين لم تكن تسمح له بمشاركته فى مثل هذه الأمور، كما أن سعد ليس لديه وقت ليذهب إلى المقطم والتمرين على السلاح هناك.

وكان السؤال الأخير هو لماذا إذن يوجه إليك حسين كل هذه الاتهامات؟

وكان رد«سعد» بأن حسين توفيق يريد أن يظهر بمظهر القائد السياسى والزعيم.

إن هناك احتمالين.. أولهما أنه لم يرتكب الجرائم التى اعترف بها وإنما يريد أن يثبت أنه ذو أهمية تاريخية والاحتمال الثانى أنه ارتكب هذه الجرائم ويريد أن يوسع قاعدة المشاركين لكى لا يتحمل العقوبة بمفرده وأضاف «سعد» أنه سمع من أولاد خالته بأن لدى حسين خيالاً خصباً وكثيراً ما يروى عن مغامرات يقوم بها مستخدما الأسلحة والعصى.

إنتهى التحقيق وعاد إلى السجن بنفس طريقة الحضور هيلمان العساكر والضابط وركوب التاكسى.. وعاد إلى حجرته ليجد عامود الأكل وصل من منزله والتهم جزءا كبيراً من الطعام ثم أخذ يدق على جاره سعيد ليعرف منه آخر الأخبار ومنها.. أن حسين فى الطابق الأول وأن التحقيق يتم دائما معه ليلاً.

وفى صباح اليوم التالى حضر مأمور السجن مستر هكمان وأطمأن على أحوال «سعد» وطلباته، كرر«سعد» طلب تكملة علاجه عند الدكتور إبراهيم حسن واهتم مستر هكمان لمطلبه ووعد بالتنفيذ خلال أيام قليلة وفعلا فى اليوم التالى قرب الغروب حضر إلى السجن هيلمان الحرس لتوصيله إلى عيادة الطبيب حسب طلبه كان سعيداً بهذه الرحلة أولا لإزاحة كابوس الأسلحة الموجودة فى المنزل والتى تمثل دليل الاتهام الوحيد ضده والسبب الثانى ولعله الأهم هو الخروج من السجن وتذوق طعم الحرية.. فهى نعمة لا يشعر بها سوى المحروم منها.. فالحياة لها طعم آخر وهو مقبوض عليه.... الترام كم منظره جميل والمشاة فى الشارع ما أروعهم.... ما أجمل مشاكل الحياة!!

بعد عودته إلى حجرته أخذ يدق الحائط على سعيد ولكن للأسف لم يجد أى استجابة مما يؤكد أنه قد تم نقله من هذه الحجرة وازداد قلقه حتى الصباح وجاء طابور الصباح والذى يهدف إلى إعطاء المسجون فسحة للرياضة والتعرض لضوء الشمس وذلك لمدة نصف ساعة وأثناء رياضته وتمشيته وجد نفسه فجأة أمام آنسة سنها حوالى ٢٥ عاما.. سمراء وبها مسحة كبيرة من الجمال.. والأكثر من ذلك أنها

ذات جاذبية خاصة... وعرف من السجان أن اسمها «ليلى» وهى هندية الجنسية ومحتجزة منذ فترة طويلة لأنها لا تملك أى أوراق تثبت جنسيتها.. مما يجعلها فى وضع غير المرغوب فيها فى مصر.. وبالمثل الهند لأن كلتا الدولتين لا تجدان الوثائق الرسمية التى تثبت جنسيتها وفى هذه الحالة يكون دور الصليب الأحمر هو التحرى عن جنسيتها لإحضار الوثائق.. فوجئ «سعد» بأن وجدها تنظر له بكل ثقة.. وكأنها تعرفه من قبل ورحب بها بكلمة «هالو» فردت عليه بمثلها واستطردت تسأله بالانجليزية

– هل أنت الذى فى الحجرة التى بجوار سعيد؟

تعجب من السؤال وكأنها تقرأ أفكاره.. فهو يريد أن يعرف ماذا حدث لسعيد؟؟.. فسألها فوراً.. أين سعيد؟

فردت عليه باللغة الإنجليزية وأخبرته أنه تم حبسه فى زنزانة أخيه.. وأضافت.. فقد اعترف بكل ما يريده أخوه والمكافأة هى إنهاء الحبس الانفرادى ليصبح مع أخيه وأقاربه وأصدقائه!!

كان لهذا الحديث وقع كبير فى نفس «سعد».. فسعادته أن يجد أحدا يتحدث إليه وبالإضافة إلى ذلك أنها من الجنس الآخر... وعاد إلى زنزانته وهو فى غاية السعادة بهذا اللقاء وكأنها قد وقعت فى غرامه من أول نظرة والغريب أنه اكتشف بعد ذلك أن جميع المتهمين فى القضية قد حدث لهم نفس الشعور مما يثبت أنها ذات جاذبية خاصة.

كانت «ليلى» تتمتع فى السجن بحرية أكثر من باقى المساجين ويعود ذلك إلى وجودها فى السجن مدة طويلة مما يتيح لها أن تتمتع بميزة نصف مسجون ونصف سجان.. وإدارة السجن تحرص على هذا الوضع أولا لتلطيف الجو العام للسجن ويعطى بعض الاسترخاء فى أعصاب المسجونين وبصلتها بالمسجونين يمكن لإدارة السجن أن تعرف أخبار المسجونين وما الذى يدور فى نفوسهم من الداخل!!

إلى جانب ذلك فهى تتعرف على رغبات المسجونين وتعمل على تحقيقها والتى يطلق عليها رسميًا بالممنوعات.. كالجرائد والمجلات أو إرسال رسائل للداخل أو

للخارج المهم كل شيء له ثمنه وتسعيرته، إنها تتحرك بسرعة وخفة وكأنها عصفورة محبوسة داخل قفص... لقد كانت المصدر الرئيسى للأخبار والتحركات والتنقلات للمتهمين فى القضية وأمكن عن طريقها أن يرسل رسائل إلى نجيب ومحمد وعرف منها أنهما مثله لم يعترفا بشئ.. لذلك فهم مسجونون كل منهم فى حجرة منفردة.. فى حين أن الذين اعترفوا قد تم تجميعهم فى حجرة مشتركة مع حسين توفيق.. وعرف سعد أن الذين اعترفوا هم: مدحت وسعيد والجوهرى واحمد خيرى ومحمود مراد وعبد العزيز خميس (رئيس مجلس إدارة روز اليوسف فى السبعينيات).

بعد مرور أكثر من اسبوع على اعتقال «سعد» توالت اعترافات حسين والتى كان كل مساء يرويها على وكيل النيابة مما كان يستتبع القبض على مزيد من المتهمين إلى أن وصل العدد أكثر من ٥٠ متهما أحتجز منهم ٢٥ متهما فى سجن الأجانب والباقى تم سجنه بسجن مصر.

وأصبح التحقيق فى الصباح مع مسجونى سجن مصر أما فى المساء فينتقل المحقق والبوليس السياسى إلى سجن الأجانب لاستكمال التحقيق.

وفى إحدى الأمسيات طُلب «سعد» للتحقيق وذلك داخل إحدى حجرات السجن وعندما دخل «سعد» حجرة التحقيق حياه وكيل النيابة قائلاً : «خلاص ياعم أصحابك كلهم اعترفوا.. والقضية أصبحت واضحة.. وضحك -كامل القاويش - ضحكة عالية ولم يرد «سعد» سوى بابتسامة مفتعلة.. دون أن يتكلم بشئ.

لقد انزعج «سعد» من كلمة أصحابك فقد اعتقد أن محمد أو نجيب ولكن ظهر أن الذين اعترفوا على «سعد» وأكدوا كلام حسين هم: عمر حسن أبو على والجوهرى ومحمود يحيى مراد... واطمأن «سعد» أن محمد ونجيب صامدان مثله.

وكان السؤال الجديد الذى وجهه له وكيل النيابة هو: ماذا يعرف عن «المطبعة» المقامة بعزبة القبة - مديرية الشرقية - حيث يعمل أخوه جمال مع زوج خالته مصطفى مراد؟؟

فكان رد «سعد» إن حسين يبحث عن أى أفكار سياسية لتتحول القضية من قضية اغتيالات إلى قضية سياسية مؤثرة فى الرأى العام وكان السؤال التالى هو: أنه

جند أخاه «عز الدين» فى خلية الجيزة وكانت برئاسة مدحت فخرى وعضوية سعيد توفيق.. وعز الدين.

وكان رد سعد.. هو التأكيد على أن حسين يخترع القصص الخيالية.. والمؤسف أن النيابة تصدقه.

وأنهى وكيل النيابة التحقيق وأملى على كاتب النيابة الأمر بالقبض على شقيقيه جمال وعز وقد تم ضبطهما وإحضارهما وسجنهما بسجن مصر وبذلك ارتفع عدد المقبوض عليهم من أسرة «سعد» إلى ثلاثة اثنان بسجن مصر وهو بسجن الأجانب.

وبنفس راضية كانت تعد والدته أعمدة الأكل الثلاثة يوميًا.. ويقوم بمساعدتها طباخ الأسرة «أحمد محفوظ» .. والذى بدأت معرفته بالأسرة من بنى سويف وتواصلت عند انتقالهم إلى الدقى وتعلم فن الطبخ بمساعدة الوالدة.. ومع الزمن تحول إلى واحد من أفراد الأسرة وكان يحمل الأعمدة الثلاثة ويذهب إلى سجن مصر بالقلعة ثم يذهب بالعامود الثالث إلى سجن الأجانب.. يقوم يوميًا بهذا الجهد دون أن يشعر أنه يقوم بأى عمل إضافى فهو من أفراد الأسرة.

لقد سارت الحياة فى المنزل دون أى توتر.. فالأب والأم مؤمنان بأن العمل الوطنى ضريبة يجب تسديدها وأن ما يتم هو أقل القليل.

وفى صباح أحد الأيام وعند المرور الدورى لمستر هكمان.. أخبره بأنه وصلته إشارة من محكمة مصر بأن له معارضة فى أمر حبسه أمام قاضى محكمة مصر فى اليوم التالى... وجاءه هاجس باحتمال الإفراج عنه.. ولكنه استبعده لعدم الإفراج عن أى متهم مسجون فى سجن الأجانب حيث اعتبرتهم النيابة متهمين أساسيين وسوف يحولون إلى القضاء عكس المحبوسين فى سجن مصر، واعتبر أن المكسب الوحيد الذى سيجنيه من نظر المعارضة عند ذهابه إلى المحكمة وعودته هو فى حد ذاته للترفيه عن نفسه وتغيير الحياة الروتينية التى أصبح يحياها فى السجن.

وصل سعد بهيلمان الحراسة إلى حجرة قاضى المعارضات حيث التقى بجده (والد أمه) وأخيه عز وحضر فتحى رضوان بصفته محاميا عنه وحضر عن النيابة

كامل قاويش الذى باشر التحقيقات ويعرف تفاصيل موقف كل متهم وفُتحت الجلسة وطالب كامل قاويش بضرورة استمرار حبسه لحين صدور قرار الاتهام خاصة وأنه سيصدر بعد أيام معدودة أما فتحى رضوان فقد هاجم سرية التحقيقات والتى تحيل كل متهم إلى مجرم خطير إلى جانب أن سعد زميل ومحام والقانون هو شريعته.. وأن الإفراج عنه لن يؤثر على نظر القضية فى شئ.... وما إن انتهى فتحى رضوان من مرافعته أصدرت المحكمة قرارها بالإفراج عنه بكفالة ١٠ جنيهات (مايوازى حاليا ٣٠٠٠جنيه).

لقد كانت مفاجأة لم يتوقعها أحد فبكى الجد وهجم الموجودون عليه بالأحضان والقبلات.. وعاد إلى السجن فأذاعت ليلى الخبر على كل المسجونين بأن تطرق على كل زنزانة وتقول بالإنجليزية «إفراج لزنزانة ٢١».. الجميع تركوا ما بأيديهم ووقفوا خلف الأبواب ينظرون من الطاقة على أمل تحيته... فقد كان الإفراج عنه يمثل طاقة أمل لكل المسجونين فهو أول متهم يفرج عنه من متهمى سجن الأجانب.

وعاد إلى زنزانته ولملم حاجياته واتجه إلى الباب الخارجى ليجد أحمد محفوظ الطباخ على الباب فقد أحضر عامود الغداء وعرف من الحراس أنه مفرج عنه وعليه انتظاره... وتعانقا وفى نفس الوقت كان صوت الدق على الأبواب من داخل السجن دقة واحدة منتظمة هى أغنية الوداع له... والتمنى لهم بالإفراج القريب.

وما أن وصل إلى المنزل حتى وجد استقبالا حارا ودافئا.. فالإفراج المفاجئ جعل الاستقبال أكثر حرارة.. فالكل استعاد ذكريات الفراق وما تم من قصص وحكايات خاصة وأن الكل كان مشاركا معه الوالد بزيارة الدكتور والوالدة وجميلة بالتخلص من الأسلحة.. وجمال بالقبض عليه فى مديرية الشرقية وحضوره مكبلا بالحديد.. وعز كان فى مديرية الدقهلية وحضر مكبلا بالحديد إلى التخشيبه بمحافظة القاهرة.. ذكريات... وأخبار... وحكايات.. استمرت إلى الصباح.

* * *

[٧]
المحاكمة

أصبحت قضية الاغتيالات الكبرى من القضايا التاريخية فى ساحة القضاء المصرى.. وهى القضية التى بدأت بمتهم واحد.. وخلال شهرين ارتفع عدد المتهمين إلى ٥٦ متهما.. وهى القضية التى تشعبت إلى ٥ قضايا أخرى، بدأت كما لو كانت قضية قتل وانتهت إلى أنها قضية رأى عام.. تناقش وتؤازر مطالب الشعب.. فى أن جلاء المستعمر البريطانى أصبح ضروريا.. وهى القضية التى أدلى فيها بالشهادة أكثر من ٢٥ شخصية عامة من بينهم رؤساء وزراء.... إنها القضية التى صدر فيها الحكم على القاتل والمعترف بما اقترفت يداه.. بعشر سنوات سجنا فقط.. وذلك اعترافا من المحكمة بأنه عمل وطنى وليس عملا إجراميا!!!

بدأت القضية باغتيال أمين عثمان فى مطلع عام ١٩٤٦.. وصدر قرار الاتهام بأسماء ٢٦ متهما.. وكان المتهم الأول حسين توفيق.. يليه فى الاتهام - محمود يحيى مراد- محمد أحمد الجوهرى - عمر حسين أبو على - السيد عبد العزيز خميس - محجوب على محجوب - محمد أنور السادات- محمد إبراهيم كامل- سعد الدين كامل - محمد محمود كريم - نجيب حسين فخرى - مدحت حسين فخرى - سعيد توفيق أحمد- مجدى عبد العزيز أبو سعده - أحمد وسيم خالد- مصطفى كمال حبيشه- محمد على خليفه - محمد عبد الفتاح الشافعى - عباس محمود مرشدى - على عزيز دياب - أحمد خيرى عباس- أحمد خليل الحلوانى - كامل محمد إبراهيم الواحى - عبد الهادى محمد مسعود- جول أسود نعيم - أنور فائق جرجس.

وتراوحت أعمار المتهمين ما بين ٢٧ عاما و١٦.. عاما حيث كان أنور السادات قد بلغ من العمر ٢٧ عاما.. فى حين كان أصغر المتهمين مصطفى كمال حبيشه وأحمد وسيم خالد ١٦ سنة.

وجاء فى قرار الاتهام.. أن حسين توفيق أحمد.. نجل توفيق أحمد باشا وكيل وزارة الدفاع.. قام بقتل أمين عثمان باشا عمداً مع سبق الإصرار والترصد، كذلك الشروع فى قتل مصطفى النحاس باشا.. والامباشى البريطانى ميللر والامباشى يونج.. كما اشترك مع بعض المتهمين خلال سنوات ٤٤ - ٤٥ -١٩٤٦ فى اتفاق جنائى بغرض ارتكاب جنايات قتل.. بأن اتحدوا على قتل رجال الجيش البريطانى وفريق من رجالات مصر.

وأشعل فى ليلة ١٤ يوليو ١٩٤١.. النار عمدا فى مدرسة القنصلية البريطانية بالمعادى.. وكذلك فى ليلة ١٢ يوليو ١٩٤١ فى جراج ملحق بمنزل مستر جيراهام بالمعادى كما شرع مع آخرين فى ٢٦ فبراير ١٩٤٦ فى سرقة مسدس الكونستابل فؤاد محمد حسن بطريق الإكراه.. واعتدوا عليه بالضرب فى سجن الأجانب.

وجاء قرار اتهام سعد الدين كامل وأنور السادات بنفس الصيغة والاتهام وهو أنه شارك فى الشروع فى محاولة اغتيال النحاس باشا.. وفى الاتفاق الجنائى على قتل أمين عثمان.

ونالت القضية تعاطفا شعبيا واسعا.. وذلك لصغر سن المتهمين.. ولأن غالبيتهم أبناء لموظفين كبار فى الدولة من ذوى الجاه والسلطان.. والظن لدى العامة أن مثل هؤلاء لا يشاركون الجماهير معاداة الاستعمار.

تحدد يوم ١٢ فبراير ١٩٤٧ لانعقاد اولى جلسات المحكمة.. برئاسة المستشار عبد اللطيف بك محمد.. حيث أحاطت قوات البوليس بمبنى سراى المحكمة.. وتم تشديد إجراءات دخول وخروج الجمهور إلى قاعة المحكمة ووصلت عربتان للشرطة تحملان المتهمين المسجونين فى سجن مصر وعددهم ٢٣ متهما.. تحيط بهم موتوسيكلات البوليس، وكانت الجماهير تهتف وتحيى المتهمين.

إتخذ المتهمون أماكنهم فى قفص الاتهام.. وانضم إليهم الثلاثة المفرج عنهم وهم «سعد» - محمد إبراهيم كامل- نجيب فخرى - وأخذوا يتبادلون الأخبار والأحاديث سواء داخل قفص الاتهام أو مع الأهل والأصدقاء خارج القفص.

افتتح المستشار عبد اللطيف محمد الجلسة.. وذكر رئيس الدائرة أن الدفاع قال أمام قاضى الإحالة.. إن المتهم الأول غير مسئول عن أعماله.. وتساءل هل الدفاع مصر على هذا الدفع.. فرد أحمد رشدى محامى المتهم الأول بقوله إنه مازال متمسكا بذلك.. وبناء عليه أصدرت المحكمة قرارها بتأجيل القضية لشهر ابريل من نفس العام.. وبإحالة حسين توفيق إلى مستشفى الأمراض العقلية للكشف عن قواه العقلية.. وتحديد مدى مسئوليته عن الجرائم المنسوبة إليه.

وعقدت عدة جلسات بعد ذلك.. لمناقشة التقرير المفصل الذى ورد من مستشفى الأمراض العقلية.. عن حالة المتهم الأول حسين توفيق.. وقد شارك فى المناقشة العديد من الأطباء الاستشاريين الذين تقدموا للشهادة بناء على طلب الدفاع.

وانتهت المناقشات والتقارير.. إلى أن المتهم مصاب بحالة مرضية نفسية هى «السيكوباتية».. وهى ما يمكن أن نسميها جنون العظمة.. وهذه الحالة هى التى جعلته يعترف تفصيليا بكل هذه الأحداث.. حتى يسبغ على نفسه أهمية كبيرة.. ويوهم ذاته بأنه يترأس تنظيما سريا كبيراً.. وإن كان مثل هذا المرض لا يعفى المتهم من توقيع العقوبة عليه.. لكن يكون عاملا من عوامل التخفيف.

وفى جلسة ١٩ نوفمبر ١٩٤٧.. أعلن رئيس المحكمة أن الجلسات ستبدأ اعتبارا من أول ديسمبر ١٩٤٧.. دون قبول أى طلبات أو أعذار أخرى من الدفاع.

وفى الميعاد المحدد لاستئناف الجلسات.. استهل رئيس المحكمة الجلسة ببيان يستنكر فيه تناول الصحف القضية وكأنها قضية سياسية وليست جنائية.. والمحكمة ترفض هذا الأسلوب للتأثير على القضاء.

وبعد ذلك بدأت الجلسة بسماع شهود الإثبات.. وكان الشاهد الأول عبدالعزيز الشافعى - ويعتبر هو مفتاح القضية.. فهو الشاهد الذى كان قد تقدم للنيابة بعد الحادث بفترة وجيزة.. ورجح أن مرتكب الحادث هو حسين توفيق.. لأنه شاهده بجوار مدخل عمارة رابطة «نهضة مصر».. مما أدى إلى القبض عليه بعد ساعتين من ارتكاب الحادث.

وكرر شهادته.. ثم تمت مناقشته من الدفاع.. الذى حاول أن يثبت أن هناك خلافا شخصيا بين الشاهد وبين توفيق باشا أحمد والد المتهم.. الذى كان قد أصدر قرارا بنقله إلى الأرياف.. ورد الشاهد بأنه لا يعرف السبب فى هذا القرار.. ولكنه استقال من عمله بوزارة المواصلات.. وأنه يعمل حاليا فى إحدى شركات الثلج.. ولا يفكر فى العودة إلى الوزارة.. كما نفى اشتغاله بالبوليس السياسى.

ثم استمعت المحكمة إلى شهادة ٦ شهود.. كانوا بالشارع المجاور لمكان الجريمة.. وقد تعرفوا على المتهم.

واستمرت المحكمة فى سماع شهادة شهود الإثبات.. فى حادث محاولة اغتيال النحاس.. ولم تخرج شهادتهم عن أقوالهم فى التحقيق.. بأنهم شاهدوا الحادث ولكن لم يروا المتهم.

بعد الانتهاء من سماع شهادة شهود الإثبات.. بدأ الدفاع فى خطته بأن تتحول القضية إلى قضية سياسية.. خاصة وأن الرأى العام كان معبأ بعد دخول الجيش المصرى فى حرب فلسطين.. وعدم تحقيق أى انتصارات لإنقاذ فلسطين.

ووقف زكى العريبى.. وهو محام مصرى يهودى الديانة.. وقال:-

«للمحاماة اليوم كلمة يجب أن نقولها قبل البدء فى نظر القضية.. فقد شرفنى زملائى.. ووكلوا إلى أن ألقى كلمة عن فلسطين... يشغل الرأى العام الآن ياحضرات المستشارين مسألة تخص العدالة فى الصميم.. فلا عجب أن يأتى ذكرها فى مجلس العدل، فالرجل العادل، عادل فى قوله وعادل فى فعله وعادل فى سياسته، وفلسطين التى قضى فيها قضاء مجحف متحيز ظالم.. بخلاف ما يقضى به العدل والإنصاف.. إنها كلمة نقولها فى مجلس العدل... وليس عجيبا أن أكون أنا البادئ بهذه الكلمة، وفى اعتقادى.. إن اليهود فى فلسطين وفى خارج فلسطين هم أول من أصيب بالسهم فى الصميم.....».

واستطرد زكى العريبى المحامى اليهودى.. يشرح الظلم الذى وقع على فلسطين..

وقام بربطه بالظلم الذى وقع على مصر.. مما دفع المتهمين إلى دفع ثمن كان الواجب أن يكون لكم ولنا نصيب فيه... وأيد خطاب زكى العريبى الأستاذ محمد لطفى جمعة وقال ما نصه:- «تكلم الموسوى اليهودى المصرى زميلى الأستاذ زكى عريبى بشأن فلسطين.. وتكلم زميلى وحبيبى الأستاذ وهيب دوس بك القبطى المصرى مؤيدا له.. ولا بد أن يتكلم المسلم المصرى العربى.. تعقيبا على هذا الكلام.. لنظهر فى هذه اللحظة فى مظهر الاتحاد والتضامن فى محنة فلسطين فكل منهما أجمل المعنى وأوقع الأثر فى النفس فالدين لله والوطن للجميع.

وشارك ممثل النيابة الأستاذ كامل القاويش.. الدفاع هذا الشعور النبيل.. ولكنه رفض مبدأ إدخال السياسة فى محراب العدالة.

واختتم رئيس المحكمة بكلمة يحيى فيها القضاء الواقف (المحاماة) والنيابة فى شجب الظلم الواقع على فلسطين.. وأشار إلى هيئة الأمم بدلا من أن تكون رسول سلام.. كانت على السلام حربا وضده سهما.. فمشاركة لهذا الشعور والحزن الذى عم النفوس لا يسع المحكمة إلا تقرير وقف الجلسة فترة من الزمن تسجيلا لذلك.

وبذلك يكون الدفاع قد نجح فى أول محاولة لتحويل القضية.. من قضية جنائية إلى قضية سياسية.. فقد وضع الدفاع خطة من شقين.. الشق الأول.. إهدار التحقيقات الجنائية التى قام بها كامل القاويش وكيل النائب العام.. والذى كان مخلصا فى عمله ومجيدا فى أداء واجبه.. فقد أبعد الجانب السياسى أو العاطفى عن نفسه.. وعمل بالجانب المهنى دون النظر إلى الظروف السياسية التى تمر بها البلاد.

أما الشق الثانى.. فهو تحويل المحاكمة إلى محاكمة لحادث ٤ فبراير.. وكانت البداية الشاهد الأول مصطفى النحاس باشا.. الذى حضر كشاهد إثبات فى واقعة الاعتداء عليه.. ولم تستغرق الشهادة فى هذه الواقعة أكثر من خمس دقائق.. حيث أنه لم ير شيئا.. وأنه سمع انفجار القنبلة.. واعتقد أنها انفجار إطار السيارة.. ثم بدأ المحامون يوجهون الأسئلة نحو واقعة ٤ فبراير.. وقد استمرت الشهادة ثلاث ساعات

فى أول جلسة.... وساعتين فى اليوم التالى... وتعتبر شهادة النحاس شهادة تاريخية فى محاكمة حادث ٤ فبراير..

كانت شهادة النحاس من الأهمية بمكان.. فقد ساعدت على تحقيق هدف الدفاع فى القضية.. بتحويلها من قضية جنائية إلى قضية سياسية.. خاصة أن كافة الصحف والمجلات اهتمت بما دار فى الجلسات.. كما أبرزت عناوين الصفحة الأولى فى كافة الصحف.. مقتطفات من شهادة النحاس.. مما خلق مناخا عاما ينظر للقضية بأنها محاكمة لحادث ٤ فبراير.. وليس لمقتل أمين عثمان.

هذا النجاح بتحويل القضية إلى قضية سياسية.. شجع الدفاع فى أن يبدأ الشق الثانى من استراتيجيته.. وهو إهدار التحقيقات بتحويل وكيل النائب العام كامل قاويش.. من ممثل للنيابة إلى شاهد.. خاصة أن القانون الجنائى ينص على أن القضاة وأعضاء النيابة إذا شهدوا فى قضية.. فيصبحون خصوما ولا يجوز لهم الاستمرار فى عملهم فى القضية، وفعلا طلب الدفاع سماع شهادة كامل قاويش.. فهو الرجل الذى استوعب القضية استيعابا كاملا.. والوحيد القادر على التصدى لتحويلها إلى قضية سياسية... وفعلا استجابت المحكمة لطلب الدفاع.. وسمعت شهادة كامل قاويش ووكيل النيابة الذى شاركه فى التحقيقات محمد صدقى البشبيشى.. وكذلك النائب العام عبد الرحمن الطوير باشا.. وذلك فى جلسات سرية استمرت ثلاثة أيام.

ثم استأنفت المحكمة سماع الشهود.. وكان من أبرزهم رجال القسم السياسى بقيادة القائمقام محمد إبراهيم إمام.. ومساعديه الصاغين محمد توفيق السعيد ومحمد الجزار... وكانت خطة الدفاع هى إظهار أن التحقيقات لم تكن تسير طبقا للضوابط القانونية المتعارف عليها.. وهناك انتهاكات كانت تشكك فى صحة التحقيقات.. وانتقلت المحكمة إلى سماع شهود النفى.. فكانت البداية شهادة جلال الدين الحمامصى.. الذى كان رئيس تحرير جريدة «الكتلة» وقت حادث الاعتداء على النحاس.. فقد طلب دفاع أنور السادات.. إثبات أن أنور السادات كان فى مقر الجريدة وقت الحادث.. وهى شهادة وإن كانت تبرئه أمام القضاء.. ولكنها فى نفس الوقت تدينه أمام زملائه.. سواء «سعد» أو محمد إبراهيم كامل اللذين كان عليهما

تغطية انسحاب حسين وقت الحادث ومعهم أنور السادات.. الذى كان قد وضع لنفسه تخطيطًا آخر بأن يحضر فى الميعاد ليراه كل المشاركين فى حادث الاعتداء على النحاس.. وبمجرد أن يبدأ التنفيذ ينسحب إلى مكان بعيد عن الحادث حيث يثبت وجوده... وهو ما شهد به جلال الحمامصى.

ونادى حاجب الجلسة على الشاهد الثانى.. وهو على ماهر باشا رئيس وزراء مصر الأسبق... وبعد أن حلف اليمين سأله الدفاع عن أسباب اعتقاله أثناء الحرب العالمية الثانية... فرد بأن الإنجليز طلبوا اعتقاله لأنه كان رئيس وزراء مصر وقت قيام الحرب.. ورفض إعلان الحرب على ألمانيا.. إلى جانب رفضه تعيين حكام عسكريين من الإنجليز.. وقال: لقد قلت لهم إن الصحراء الغربية أرض مصرية.. ولا يمكن أن يحكمها إلا مصريون.. ومصر مسئولة عن سلامة الجيوش فى أراضيها.. مما أغضب الإنجليز لعدم التسليم المطلق للمطالب البريطانية... هذا بالإضافة إلى أن الإنجليز لم يكونوا يثقون فى الملك فاروق وإخلاصه للإنجليز إلى حد أن السفير الإنجليزى قال له.. إن سراى المنتزه تخرج منها أنوار لإرشاد الطائرات الإيطالية.. وهو كلام عار من الصحة.. وأضاف بأن الإنجليز طالبوا باعتقاله باعتباره – أسير حرب – بدأوا بالمطالبة بذلك فى عهد حسن صبرى فرفض.. وكرر الطلب فى عهد حسين سرى.. وعرض الأمر على البرلمان الذى استنكر الأمر... وتم اعتقاله فى عهد النحاس!!!

وأضاف على ماهر.. بأن النحاس أخبره بأنه والملك والشيخ المراغى يريدون عمل ثورة فى الأزهر ..وأنه عنده أوراق تثبت ذلك... وتحدى على ماهر أن يظهر النحاس أى ورقة تدل على هذا التآمر!!

واختتم على ماهر باشا رئيس وزراء مصر الأسبق شهادته.. باتهام مباشر لأمين عثمان بأنه وراء تدبير حادث ٤ فبراير مع قوات الاحتلال.. وقال « إن أمين عثمان كان رجلا فى غاية الذكاء.. وعنده من المقدرة أن يتصل بخصومه وأعدائه.. ويتظاهر بأنه صديق.

ثم جاء حافظ باشا رمضان رئيس الحزب الوطنى.. ووزير العدل فى وزارة أحمد

ماهر باشا عام ١٩٤٥.. وسأله فتحى رضوان.. عن أسباب عدم محاكمة النحاس فى كل الاتهامات التى وردت بالكتاب الأسود الذى أصدره مكرم عبيد، فكان رده بأنه عرف من أحمد ماهر باشا.. إن أنتونى إيدن طلب عدم محاكمة النحاس لأنه صديق الإنجليز.. ونفعهم أيام الحرب.. وخدمهم أيام العلمين.. وقد تم منح لقب«سير» لكل من النحاس وأمين عثمان.

وشهد بعد ذلك بهى الدين بركات باشا رئيس ديوان المحاسبة.. بأن أمين عثمان عندما تولى وزارة المالية.. كانت بريطانيا مدينة لمصر بمبلغ ٥٠٠ مليون جنيه.. وكان فى الإمكان تحصيلهم بمصادرة أسهم انجلترا فى قناة السويس.. ولكنه رفض لأنه كان موالٍ للإنجليز.

وفى شهادة محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ.. قال بأنه أثناء تشييع جنازة أمين عثمان.. قال السفير البريطانى له إنه من العبث أن أصدقاء بريطانيا يُعتدى عليهم مثل هذا الاعتداء الفظيع.

وبعد الانتهاء من سماع الشهود قررت المحكمة التأجيل إلى جلسة ١٠ ابريل لسماع المرافعات.

وفى اليوم المحدد لاستئناف الجلسات.. إمتلأت قاعة المحكمة عن آخرها بالمحامين والصحفيين والأقارب والأصدقاء، الكل فى حالة ترقب لسماع مرافعة النيابة وطلباتها من المحكمة.. خاصة بعد أن نجح الدفاع فى اقتلاع كامل القاويش وكيل النائب العام الذى اعتبر القضية هى قضيته الشخصية.. وبذل كل الجهد ليدين المتهمين الذين ينظر إليهم من الوجهة الجنائية.. وفُتحت الجلسة وطلب رئيس المحكمة من أنور حبيب الذى حل محل القاويش أن يبدأ مرافعته.. وكانت مفاجأة للجميع فقد انضمت النيابة للدفاع.. وترافع مرافعة لها أهميتها التاريخية.. فقد استهل مرافعته بقوله: إن يوم ٤ فبراير وصمة فى جبين الإمبراطورية البريطانية، وسيظل دليلا صارخا على البربرية التى هوى إليها الإنجليز فى ذلك اليوم الأغبر الكالح.. فقد قابلوا الوفاء بالنكران، والإحسان بالإساءة، والصنيع بالجحود... ولكن هذه القوة الغاشمة وقفت عند حدها، ودُحرت أمام البسالة والإقدام والشجاعة، والحصانة التى لمسها، ولقيها ممثلوها فى رمز وادى النيل... فاروق الأول حفظه الله.

سنظل نلعن الإنجليز أبد الدهر ما داموا محتلين بلادنا.. ولو كانوا فى أجدب بقعة منها.... ويخيل إلى أن كل باب يُغلق، كأنما ينصفق فى وجوههم... وأن كل حجر بأرض الوادى ود لو طار فحصبهم فى جباهم.. فإن كل كلب ينبح إنما يصرخ فى وجوههم.. أخرجوا... أخرجوا من هذا البلد.. الجلاء ووحدة وادى النيل... شعورنا وشعارنا... بل هو ترديد لوجيب قلوبنا، ونبضات دمنا... وهمسات أرواحنا... شيبًا وشبانًا.. رجالا ونساء... ولكن كيف السبيل إلى بلوغ ما نصبو إليه جميعا...؟ إلى بلوغ ما يتوق إليه كل مصرى.. أتراه بالتناحر والتنابذ فيما بينهم؟ أتراه أن نهاجم بعضنا بعضا فننقسم شيعًا وفرقًا، ثم يقوم منا نفر من الشباب أعماه الغضب، فساء حكمه على الأمور.. بقتل القادة منا والرجال، فيسود وادينا جو من الفزع، والتوتر، والقلق، والخوف... كل يتوجس الشر أينما راح، وكل يخشى القدر أينما حل... فتتبلبل الخواطر، ويفلت الزمام، فيذهلنا ما ألم بنا، وما ألم بوطننا، وننشغل بتطبيب جراحنا الداخلية عن مكافحة الأفعوان الأجنبى، وعن مداواة جرح الوطن البالغ من نكزاته، بل نزيد الأمور وبالا، فنثخن أنفسنا بجراح تصيب الصميم فى وطننا، اللهم إن هذا منكر لا يرضيك، فرفقا بكنانتك ورفقا بعبادك المصريين، وألهمنا من أمرنا رشداً... فنحن أحوج ما نكون إلى رحمتك وعنايتك نحن المصريين... ودعونى أتحدث إلى الشباب المسلمين، لنا من أحكام ديننا السمح وكتابه الكريم ما يرقق طباعنا ويهذب نفوسنا، وينظم جهادنا، فلنتق الله فى أنفسنا وليتق المصرى الله فى أخيه المصرى... ولنكن إخوانا مسلمين متحابين مؤمنين متآخين فى الله والوطن... ملتفين حول دستورنا السماوى، التنزيل الكريم... فليس أشمل ولا أكمل ولا أكرم ولا أعظم، من أن نرى حب الله وحب الدين قبلة للشباب فيصفو جوهرهم.

ثم قال: الدين المسيحى دين تسامح وسلام... لا يقر العنف وينفر من الشدة فنحن المصريين بشقينا، مسلمين ومسيحيين، نستلهم أول ما نستلهم ديننا، ونعلم أن الدين يدعو إلى حب الوطن.. ويدعو إلى طاعة ولى الأمر وقد جعلنا على مر العصور لهذا الوطن رمزًا أحطناه بالقداسة وأحطناه بقلوبنا ومهجنا، نخلص له أبداً ولو كلفنا ذلك أرواحنا... هذا الرمز الذى يلتقى عنده المصريون على اختلاف نحلهم ومللهم...

هو العرش... هو الملك... نخلص له، لأن في ذلك إخلاصًا لله، ونخلص له لأن في ذلك إخلاصا للوطن، والله يدعونا إلى حب أوطاننا... ويدعونا إلى طاعة أولى الأمر منا.. فشعارنا إذن... الله. الوطن. الملك.

وتوقف وكيل النائب العام بعد أن استعرض الشق العام للقضية وتم التأجيل لليوم الثاني ليبدأ في الشق الجنائي وما يخص كل متهم على حدة.

ولكن في اليوم التالي كانت مفاجأة.. أن جلس بجوار أنور حبيب النائب العام.. عبد الرحمن الطوير باشا وهو شيء غير معتاد أن يشارك النائب العام بنفسه في القضية.. وبعد فتح الجلسة طلب رئيس المحكمة من النيابة أن تواصل مرافعتها.. وهنا وقف النائب العام، ودهش الحاضرون وتساءلوا ماذا ينوى أن يقول، واشرأبت إليه الأعناق..... وران الصمت على القاعة، وارتفع صوت النائب العام يتكلم ملقيا الكلمة التالية:

« في الكلمة التي قدم بها أمس زميلي الأستاذ أنور حبيب مرافعته في هذه القضية عدة تعبيرات وتشبيهات ومجازات.. لم أشك حين اطلعت عليها في الصحف أنها جاءت وراء مراده، ووقعت بعيداً عن مقصوده، نتيجة للتعرض لخاطر الارتجال وأثراً عرضيًا لجو القضية في نفسه. على أن تلك العبارات بما مست من شئون السياسة الخارجية – يصعب في الواقع تبرير إزجائها على هذا النحو، كما يصعب ربطها بهذه الدعوى، ولذلك قد استأذنت زميلي أنور بك فأذن لي في أن أصرح بأن تلك العبارات لا تعبر بحال عن رأى النيابة العامة، فأرجو أن يثبت ذلك في محضر الجلسة.

وهنا هاج فريق من المتهمين بينهم حسين توفيق، وأنور السادات، وعمر حسين أبو علي، وسعد كامل، ومدحت فخري، وطلبوا ألا يثبت كلام النائب العام في محضر الجلسة، وقال أنور السادات موجهًا كلامه إلى النائب العام.. « إيه ده يا سعادة النائب العام، إنك مصرى، والجميع وعلى رأسهم رئيس الحكومة يرددون أماني المصريين.. وهي وحدة وادى النيل والجلاء التام، والنقراشي باشا قال في مجلس الأمن.. إن الإنجليز لصوص وقراصنة، فتأتي أنت لتسحب هذا الكلام... يجب عليك أن تستقيل وتتنزل عن الكرسي» .

وقال حسين توفيق« عار عليك يا حضرة النائب العام.. أن تسحب هذا الكلام الوطنى... كن شجاعا ولا تخش شيئًا» .

واستمر هياج المتهمين وثورتهم. وعلت الأصوات، وتناثرت الألفاظ هنا وهناك... وأخذ كثيرون يتكلمون، وحاولت المحكمة إسكات المتهمين وتهدئتهم فصاح حسين « إيه هو الكلام ده... إحنا أعصابنا ما تستحملش نسمع الكلام ده... أخرج من الجلسة ياحضرة النائب»...

وقال أنور السادات « أنا أفضل أن أشنق ألف مرة على أن أرى النائب العام يتراجع ويقف هذا الموقف غير المشرف».

وقال وهيب دوس بك.. إن أنور بك لم يرتجل مرافعته، كما قال النائب العام، وإن أنور بك يمثل النيابة فيجب ألا يثبت كلام النائب العام.

واعترض الأستاذ أحمد رشدى.. على عدم إثبات كلام النائب العام فى المحضر، وقال إنه يهمنا جميعًا أن يثبت كل ما قيل فى محضر الجلسة، وأن يسجل إلى جانبه أن سعادة النائب العام أراد أن يبرر تلك الكلمة.. بأن أنور بك كان يرتجل أمس.. على حين أن الواقع الذى لاحظناه جميعًا أنه كان يتلو مرافعته، ويرجع إلى أوراق مكتوبة.. فلا بد إذن أن يكون ما قاله بعلم النائب العام، ولا بد أن تكون هناك بواعث وأن ما قاله النائب العام لا يرجع إلى الارتجال لأننا كلنا نعلم، أن من أوليات قواعد القانون أن وكيل النيابة المترافع حر فيما يقوله فى مرافعته، ولا يمكن أن يجبر على سحب كلام قاله علنا فى الجلسة، أو يستأذن فيما قاله، فهناك إذن سبب آخر. وقد ترامى إلينا - ونرجو ألا يكون صحيحًا - إن هناك تدخلا فى الأمر، وتلك هى العلة المباشرة لكلمة النائب العام.

وهنا وقف النائب العام ورد قائلاً:

« هذا غير صحيح فإن النيابة مستقلة تمام الاستقلال، ولا تسمح لأية سلطة أن تتدخل فى عملها كما يقول حضرة الزميل رشدى بك.. وإنما هذا حق للنائب العام وهو

صاحب الدعوى العمومية، وأن حضرة عضو النيابة المترافع وكيله.. وله أن يطلب من المحكمة تصحيح ما ليس له اتصال بالقضية وما أقحم عليها.. والمحكمة صاحبة الشأن فى ذلك.

المحكمة - إن المسألة انتهت ونرجوكم أن تهدأوا.

وهنا أخذ الأستاذ أنور حبيب فى إكمال مرافعته، ولكن المحكمة رأت أن المتهمين هائجون فرفعت الجلسة للاستراحة، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف.. ولما عادت الجلسة إلى الانعقاد، وقف الأستاذ أنور حبيب ليستكمل مرافعته، وكان جو القاعة قد ساده الهدوء، حيث لم يعد النائب العمومى إلى القاعة بعد ذلك.

وبدأ أنور حبيب مرافعته والتى استمرت على امتداد يومين.. قام فيهما بعرض اتهام كل متهم... وقد بدأ بالمتهم الأول حسين توفيق.. حيث أنه قسم المتهمين إلى ثلاث درجات:

١- فاعل أصلى: حسين توفيق.

٢- شركاء بالاتفاق والمساعدة محمود يحيى مراد، ومحمود أحمد الجوهرى، وعمر حسين أبو على، وعبد العزيز خميس، ومحجوب على محجوب، ومدحت فخرى، وحسين توفيق.

٣- شركاء بالاتفاق فقط وهم: أنور السادات ومحمد إبراهيم كامل، وسعد كامل، ونجيب فخرى ومحمود محمد كريم... ثم بدأ فى إثبات أن حسين توفيق هو الفاعل الأصلى والمتهم الأساسى بقتل أمين عثمان.. والشروع فى قتل النحاس.. وانتقل بعد ذلك إلى المتهم الثانى محمود يحيى مراد ابن على مراد وهو أيضا كان متهما فى قتل بطرس غالى باشا.. وذكر وكيل النيابة إنه وجدت تذكرة سجين باسم والده تعود إلى ٢٣ فبراير ١٩١٠.. مما يدل على أن المتهم سار على نهج والده والاشتراك فى الاغتيالات السياسية.

ثم استأنف أنور حبيب بك مرافعته.. بالكلام على المتهم السابع محمد أنور السادات فى التهمة الأولى، فقال إن هذا المتهم اشترك بطريق الاتفاق فقط فى قتل

أمين عثمان باشا، ثم تحدث عن ماضى المتهم، فقال إنه تخرج فى الكلية الحربية، والتحق ضابطًا بالجيش المصرى بسلاح الإشارة، وأخذ يُرقى حتى بلغ رتبة اليوزباشى، وأشيع عنه أنه من المناصرين للألمان، وأنه يتجسس لحسابهم، وفى سنة ١٩٤٢ اتهم صراحة بذلك، وأجرى معه تحقيق فى عهد وزارة النحاس باشا، ومع زميله الطيار حسن عزت، وانتهى التحقيق إلى فصلهما من الجيش، وفى نفس اليوم اعتقلا بأمر الحاكم العسكرى، وتمكن أنور وزميله من الهرب، وأطلق أنور لحيته وتسمى باسم «الحاج» وكوّن الاثنان شركة للنقل، وضما إليهما عبد الفتاح عنايت المحامى - وهو أحد المحكوم عليهم فى قضية مقتل السردار، ولكن هذه الشركة لم توفق فى أعمالها وقد استعان أنور بأحد الأغنياء فى تكوين هذه الشركة - على حد قول حسين توفيق فى التحقيق- ثم كون أنور بعد ذلك جمعية إجرامية وتوصل بواسطة صديقه عمر حسين إلى التعرف بحسين توفيق وقد وجد فيه ضالته المنشودة... استهتاراً، وجنوحا للجريمة، وحسن تدبير، فاستغل الفرصة، ووجد حسين توفيق وجماعته وجهة جديدة، لم يكونوا قد طرقوها بعد، وهى قتل المصريين، وعرض عليهم فى لباقة فكرة قتل النحاس باشا، وكان فى أثناء ارتكاب الحادث ينتظر زملاءه فى سيارة قريبا من متحف الشمع... ثم قال حضرته إن هذا المتهم كان حريصا فلم يساهم فى هذه الجرائم مساهمة فعلية، وكفاه بأنه دفع بأغرار إلى الجريمة، ولا يهمه بعد ذلك أن يصيبهم مكروه، طالما هو سليم أمين، فهو شخص من صفاته المكر والحذق والإغواء، ومظهره يوحى بالثقة، وهو قوى الشخصية حتى ليحمل المرء على الوثوق فيه.... وقد جاء اسمه فى التحقيق على لسان محمد إبراهيم كامل، إذ ذكر أن حسين توفيق تصادق مع شخص جديد اسمه « الحاج» وآخر اسمه حسن، وكان أن انصرف ذهن رجال القسم السياسى إلى أنور السادات وصديقه حسن عزت، وبعد ذلك اعترف حسين توفيق على شركائه ومن بينهم أنور السادات.. وقال إنه قد اشترك معه فى حادث الشروع فى قتل النحاس باشا يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٥.

واستطرد وكيل النائب العام فى مرافعته.. وتناول بعد ذلك الورقة التى ضبطت فى جيب بيجامة أنور السادات.. وقد جاء فيها عبارات باللغة الإنجليزية ترجمتها ما يأتى:

التقرير رقم ١ فى ٢/١٣ التشكيل رقم ٢ جمعية بلا عمل - التشكيل رقم ٢ يتصل بى. ابتعدوا وأنا أتولى القيادة من هنا- التشكيل رقم ٢ ينتظر الأوامر- أتعشم أن أصل إلى الضربة الكبرى قريبا- يعتبروننى شخصاً خطيراً ولكن الدليل ضعيف جداً- فى انتظار الأوامر- الحمد لله وليحيا رجلنا.....

وأشار حضرته إلى الإجراءات التى اتخذها المحقق إزاء هذه الورقة، فإنه احتفظ بها، وكلف محمد طلعت السادات، شقيق أنور السادات أن يحضر مساء الغد لأخذ الملابس القذرة، ثم عرض الورقة على النائب العام وكلف الخبير محمد على سعودى بك، أن يلتقط صورة للورقة الأصلية التى ضبطت فى جيب البيجامة، وسلمها لشقيق أنور واحتفظ بصورتها.. وكلف البوليس بمراقبة شقيق أنور لمعرفة من سيتسلمها منه، ولكن المراقبة أخفقت وضاعت الورقة، وبقيت صورتها.

وأخذ حضرته يشرح معانى هذه الكلمات وما يمكن أن يستخرج منها، وإنها لأقطع دليل على اشتراك أنور فى أعمال هذه الجمعية.

ثم انتقل إلى المتهم الثامن فى هذه التهمة، وهو محمد إبراهيم كامل، وقال إنه ولد فى ٦ يناير ١٩٢٧، وأنه نجل المرحوم أحمد كامل بك وكيل محكمة استئناف أسيوط، وهو الابن الوحيد على خمس بنات، ثم أشار إلى صلته بوالد هذا المتهم، وأنه سبق أن ترافع أمامه، وهو وكيل نيابة ناشئ، ثم دار الزمن دورته فإذا به يطلب معاقبة ابنه، بيد أنه فى سبيل تأدية واجبه، يترك العاطفة جانبا. ثم قال إن محمد إبراهيم كامل، ظهر فى القضية عندما ضبط كتاب علم الحيوان على مكتب حسين توفيق، ومفتوحا على صفحتين، بإحداهما صورة جسم الإنسان وأحشائه، وبالأخرى صورة المخ والمخيخ، وإن حسين لما سئل عن الأماكن التى يتردد عليها، قرر إنه يجلس مع ابن خالته، محمد إبراهيم كامل، ومع سعد الدين كامل ونجيب فخرى.. وعندما اعترف حسين اعترافه الكامل ذكر اسم محمد إبراهيم كامل من بين أعضاء الجمعية- كما جاء فى أقوال خميس أن محمد إبراهيم كامل هو الذى عرفه بحسين توفيق وكونوا

جماعة الشباب المجاهد لمناهضة الإنجليز.. وإنه وسعد كامل ونجيب فخرى يكونون مجلسا استشاريا للجمعية.

وانتقل بعد ذلك إلى المتهم التاسع سعد الدين كامل.. وقال عنه وكيل النائب العام... بأنه من الشباب المتحمس لمبادئ الحزب الوطنى - وهو محام ناشىء تخرج عام ١٩٤٥ من جامعة فؤاد الأول.. واتصل بمحمد إبراهيم كامل وهو صديق قديم لحسين توفيق.. وقد اتخذه حسين مستشارا قانونيا وللتوجيه نحو احترام القانون والالتزام بأوامره وإنما كمستشار سوء وشر.. يزين له الجريمة ويقره عليها.. وقد جاء ذكر اسمه على لسان حسين توفيق وباقى المتهمين.

واستمر وكيل النائب العام فى مرافعته وكانت مرافعة روتينية تقليدية وكأنه يؤدى «واجب» وليس حريصا على النجاح.. وبعد نهاية مرافعته تم تأجيل المحاكمة ثلاثة أيام لبدء سماع دفاع المحامين.

شارك فى معركة الدفاع عن المتهمين أكثر من عشرين محاميا.. هم صفوة محاميى هذا الزمن.. فقد اكتسبوا شهرة واسعة فى ساحة القضاء.. مما جعل المحكمة تتحول إلى ساحة سياسية يحاضر فيها أساتذة على أعلى مستوى من الخبرة القانونية والسياسية.. وتعتبر فترة المحاكمة بالنسبة «لسعد».. فترة دراسة وتأمل فى الحياة السياسية فى مصر لقد ساهمت فى صقله وإعداده وتأهيله لدخول مراحل جديدة أكثر تطورا وتقدما.

البداية فى الدفاع كانت مرافعة محاميى الحق المدنى.. عن ورثة أمين عثمان وطالبوا بتعويض مالى لموكليهم قدره ٢٠ ألف جنيه. وقد تولى هذا الشق محاميان من قيادات حزب الأول.. أولهما عبد اللطيف محمود الذى تلخص دفاعه على.. أن صداقة أمين عثمان مع الإنجليز ليست بدعة.. بل هى شريعة كل من يجد نفسه فى موضع المسئولية... وشاركه فى الدفاع عن ورثة المجنى عليه إبراهيم فرج المحامى والوزير الوفدى السابق.. ودارت مرافعته حول تفنيد شهادة السياسيين الذين أدلوا بشهادتهم فى المحكمة.. وهم على ماهر باشا، حسين سرى باشا، حافظ رمضان باشا، محمد حسين هيكل باشا، واتهمهم بأنهم كانوا لا يمانعون فى المشاركة فى وزارة ٤ فبراير.

بنهاية مرافعة محاميى الحق المدنى بدأت المرافعات عن المتهمين.. والتى قام بها كبار وأساتذة محاميى هذا العصر.. وللتسجيل سنقتطف نبذة من مرافعة كل محام.

* على الخشخانى - عن حسين توفيق وقال: لقد ظهر من أقوال الشهود أن أمين عثمان كان سمسارا سياسيا.. وكان يعمل لصالح الإمبراطورية البريطانية.. ولذات نفسه.. وإنه هو الذى مهد لحادث ٤ فبراير.

* أحمد رشدى - عن حسين توفيق:- لقد أجمع الأطباء على أن حسين توفيق مصاب بما سموه «الحالة السيكوباتية».. أو اعتلال الشخصية.. وأن مسئوليته عن جرائمه قائمة ولكنها مسئولية جزئية.

* زكى العريبى:- رغم أنه يهودى الديانة.. ولكنه كان ذا شهرة واسعة فى عالم المحاماة.. وقد تم توكيله للدفاع عن كل من: محمود مراد، ومحمد على خليفة، ومحمد عبد الفتاح الشافعى وقال فى دفاعه:- لقد أسقطت النيابة فى مرافعتها الديانة اليهودية.. وهى الديانة التى تحرم القتل.. وهذا ماجاء فى الوصايا العشر.

* مصطفى الشوربجى - وزير العدل السابق.. وترافع عن مدحت فخرى ومحمود محمد كريم وتلخص دفاعه بالهجوم على رجال البوليس السياسى الذين انتقاهم النائب العام لمساعدته وهذا مخالف للقانون الذى فرق بين رجال الضبطية القضائية والضبطية الإدارية.

* بسطا شكرى: عن محجوب على محجوب وقال:- «إن الجهاد فى بلادنا يعتبر جريمة وأنه يتساوى القتل فى سبيل الوطن.. بالقتل فى سبيل الاحقاد.

* وهيب دوس: عن محجوب على محجوب قال:- إنه هو شخصيا ووكيل النائب العام يستحقان المحاكمة مع المتهمين.. لأنهما يفكران تفكير المتهمين ولكن تنقصهما الجرأة والشجاعة.

* فتحى رضوان - وكانت مرافعته عن ثلاثة متهمين: سعد كامل... ومحمد إبراهيم كامل.. ونجيب فخرى. وأشار إلى أن التحقيقات مع المتهمين الثلاثة (سعد

ونجيب ومحمد) غير قانونية فقد تم القبض عليهم يوم ١٠ يناير.. فى حين أن حسين توفيق لم يعترف عليهم إلا يوم ١٦ يناير.. فالنيابة قد قبضت عليهم بلا دليل ولا شبهة.. وهذا ضد المادة ٣٥ التى تحرم على النيابة إحضار المتهم فضلا عن حبسه إلا إذا وجدت أدلة قوية على ارتكاب الجريمة... فكان اعتقالهم مخالفا للقانون وكان استمرار حبسهم مخالفا للقانون أيضا وباطلا .

* توفيق دوس: ترافع أيضًا عن محمد إبراهيم كامل- لا توجد أى أدلة مادية تدين محمد إبراهيم كامل.. ولكن الواقع أن النيابة تحرجت وخشيت ألا تقدم محمد كامل... على الرغم من تفاهة الأشياء التى ضبطت فى منزله.. حتى لا تتهم بمحاباته لأنه نجل وكيل محكمة استئناف أسيوط.. أحمد كامل بك.

*الدكتور محمد زهير جرانة: الدفاع عن أنور السادات وعباس محمود المرشدى « إن أنور السادات هو شخص يكره الإنجليز ويريد تحرير مصر وهذه كلها رغبات وطنية لا تؤدى إلى رفع دعوى جنائية عليه!!».

*محمد شوكت التونى - مترافعا عن عبد العزيز خميس... إن تهمة الاتفاق الجنائى التى يحاكم عليها موكلى.. هو اتفاق المصريين جميعا منضمون إليه فهو يهدف إلى خير مصر لتحقيق فكرة الحرية.

* الدكتور محمد هاشم باشا- وترتفع عن محمود الجوهرى - تكلم عن نظرية الشك واليقين التى يرفضها علماء الهندسة.. وبذلك فالأولى فى ميدان القضاء أن ترفضها.

* عبد الرحمن البيلى - على أيوب - على كمال حبيشة - عن مصطفى كمال حبيشة.. ويعتبر على أيوب من أساتذة القانون المعروفين.. وصاحب العديد من المؤلفات القانونية التى تعتبر مرجعا لكافة المحامين.

أما على كمال حبيشة وهو والد المتهم مصطفى كمال حبيشة والذى كان الرجل الأول فى وزارة الداخلية وكان يتبوأ منصب الوكيل الدائم بالوزارة.. وقد استقال من

منصبه ليترافع عن ابنه الوحيد مصطفى حبيشة الذى غلبته دموعه فى كثير من المواقف واعتذر فى نهاية مرافعته للمحكمة إذا كان قد قصر فى أداء واجبه كمحام وأنه لولا ثقته فى عدالة المحكمة لما ترافع عن ابنه.

* مكرم عبيد باشا: ترافع عن سعيد توفيق.. ويعتبر من أشهر المحامين فى ذلك الوقت.. وقد استمرت مرافعته عن سعيد توفيق خمسة أيام، ووصل عدد ساعات المرافعة خمس عشرة ساعة.. وكانت مرافعة شاملة تعدت سعيد توفيق لتتناول كافة المتهمين

* وأخيرا الحكم:

جلسة السبت ٢٤ يوليو ١٩٤٨

ضرب عدد كبير من قوات بلوك النظام نطاقا منيعا من الحراسة فى ميدان أحمد ماهر، وعلى أبواب المحكمة الخارجية، وردهاتها والأفنية المؤدية الى قاعة الجلسة.

وما أن جاءت الساعة العاشرة حتى كانت قاعة الجلسة، قد ازدحمت ازدحاما لم يسبق له مثيل، بمن تتبعوا أدوار المحاكمة فى هذه القضية ومن بينهم أسر المتهمين، وكانت علامات الاضطراب بادية علي وجوههم، وتبدو شفاههم تتحرك وكأنهم يتمتمون بأدعية إلى الله أن يفرج كربهم، وظلت أبصارهم متجهة نحو باب حجرة المستشارين.. ثم ترتد فتتجه صوب المتهمين.. وفى الساعة الثانية عشرة والثلث ارتفع صوت الحاجب «محكمه» فوقف الجميع وران الصمت على القاعة، ثم ارتفع صوت رئيس المحكمة يتلو الحكم الآتى:

١ - حكمت المحكمة بمعاقبة حسين توفيق أحمد بالأشغال الشاقة عشر سنوات.

٢ - وكل من يحيى مراد ومحمود الجوهرى وعمر حسين أبو على والسيد خميس بالسجن خمس سنوات.. وبراءة مراد من تهمة الشروع فى سرقة مسدس الكونستابل.

٣ – سجن كل من محجوب على محجوب، ومدحت حسين فخرى وسعيد توفيق، ووسيم خالد ومصطفى حبيشة ثلاث سنوات مع الشغل.. وبراءة سعيد ومدحت من حادث سرقة المسدس.. وبراءة مصطفى حبيشة من تهمة الشروع فى قتل الشلقانى.

٤ – حبس محمود محمد كريم سنتين مع الشغل.

٥ – حبس كل من محمد على خليفة، ومحمد عبد الفتاح الشافعى سنة مع الشغل.

٦ – حبس أحمد خيرى عباس شهراً مع الشغل عن تهمة التعدى على الكونستابل، وبراءته من تهمة الاتفاق الجنائى العام.

٧ – براءة كل من أنور السادات ومحمد ابراهيم كامل وسعد الدين كامل ونجيب فخرى ومرشدى وعزيز دياب وخليل الحلوانى وكامل الواحى وعبد الهادى مسعود وجول أسود وأنور فائق.

٨ – إلزام كل من المتهم الأول إلى السادس والحادى عشر.. بأن يدفعوا متضامنين لرفعة النحاس باشا الوصى على كريمة أمين عثمان باشا.. خمسة آلاف جنيه تعويضاً.. وخمسة آلاف جنيه للسيدة حرم أمين باشا بالنسبة لهؤلاء المتهمين أيضاً... ورفض الدعوى المدنية قبل السادات ومحمد كامل وسعد ونجيب فخرى.

وإلزام كل من مصطفى حبيشة ووسيم خالد متضامنين.. بدفع خمسمائة جنيه تعويضاً لممدوح الشلقانى. ورفض الدعوى المدنية قبل والدى هذين المتهمين.

وما أن انتهى رئيس المحكمة من تلاوة الأحكام.. إرتفعت الهتافات بحياة العدالة والزغاريد.. الكل سعيد.. والكل غير مصدق للأحكام التى صدرت.. والتى تبين أن المحكمة اقتنعت بأن القضية سياسية وليست جنائية.. وأن المنصة قد انضمت للمقاومة الوطنية ضد الإستعمار وأعوان الإستعمار.. وقد توصلت لذلك بعد سماع شهادة ١٥ شاهداً.. هم من طليعة العمل السياسى فى مصر.. وتأكدت المحكمة أن هؤلاء المتهمين على صواب فيما فعلوه.. وأنهم كانوا فى حالة دفاع شرعى عن بلدهم.

كانت الفرحة تعم الجميع.. رغم أن الأغلبية سواء متهمين.. أو أهالى المتهمين.. لا يعرفون نص العقوبة.. ولكن بمجرد أن قال رئيس المحكمة.. إن حسين توفيق المتهم الأول عشر سنوات.. حتى تأكد الجميع أنها أحكام تفوق خيال المتهمين.

كان سعد متعجلا لمغادرة المحكمة.. لإبلاغ حسين بهذا الحكم غير المتوقع بالمرة... وفعلا كانت هناك سيارة يقودها أحد أقارب الشخصية السياسية التى يقيم لديها حسين توفيق خارج القاهرة.. الذى استلم من سعد ملخص الأحكام وطار بها إلى محل إقامة حسين.. الذى لم يصدق ما تسمعه أذناه.

* * *

[٨]
هروب حسين توفيق

سيطرت فكرة هروب حسين توفيق.. بعد الانتهاء من مرافعات النيابة والدفاع - حتى يصدر حكم المحكمة حضورياً.. بدلا من غيابياً.. خشية إعادة المحاكمة وصدور حكم جديد يكون أكثر قسوة ..وتم الاتفاق بين «سعد» وحسين توفيق على ذلك.. خاصة بعد أن سمحت المحكمة بعلاج المتهم بعيادة خارجية.. عند طبيب أسنان.

جاء في مذكرات حسين توفيق والتي نشرتها أخبار اليوم.. تفاصيل خطوات الهروب.. ولكن بالطبع دون ذكر لأي أسماء شاركت في نجاح خطة الهروب.. ويمكن أن نستعرض كل الأسماء التي ساهمت في هروب حسين توفيق.. وبعد الهروب.. مباشرة أعلن البوليس عن مكافأة مالية قدرها ألفي جنيه.. أي ما يوازي حاليا أكثر من مائة ألف جنيه.. لمن يرشد عن مكان اختباء حسين توفيق مما زاد من صعوبة عملية الهرب.

لقد كانت المحطة الأولى بعد هروب حسين من حرسه.. هي الذهاب إلى منزل «سعد» بالدقي.. ثم انتقلا معا إلى مكتب ومنزل عصمت سيف الدولة المحامي بميدان السيدة زينب.. الذي كان قد وافق على استقباله حسب اتفاقه مع سعد قبل الهروب.. ولكن عندما وجد أن حسين توفيق أمامه بشحمه ولحمه.. إعتذر لسعد وطلب منهما الرحيل.. فاتصل «سعد» بالكاتب الصحفي إحسان عبد القدوس.. الذي احتفى باستقباله هو وزوجته ووالده محمد عبد القدوس.. وزيادة في التمويه على البوليس.. تم إرسال خطاب شخصي من حسين إلى إحسان كتبه سعد.. ونسخه حسين ثم أرسله إلى إحسان على عنوان جريدة روز اليوسف.. والذي قام بدوره بتسليمه للمحكمة وجاء في الخطاب:-

«إلى الكاتب الحر الأستاذ إحسان عبد القدوس.... «أحييك تحية المجاهد لأخيه المجاهد.. عندما تصلك رسالتى هذه أكون فى طريقى إلى فلسطين.. لأساهم فى تطهير الأرض المقدسة من عصابات الإجرام الصهيونية، وقد ظن بعضهم أننى تركت السجن فراراً من وجه العدالة.. ولكن ليعلم هؤلاء أنى ما أقدمت على هذا العمل إلا.. لأتمكن من مواصلة الكفاح ضد الاستعمار وأذنابه.. فما كنت لأخشى يوما حكم القضاء.. إلا إذا كانت الوطنية جريمة يعاقب عليها القانون، وحتى فى هذه الحالة فإن إشفاقى لن يكون على نفسى ، ولا على إخوانى فى الجهاد، وإنما إشفاقى على مصر من أن تهوى إلى هذه الهاوية السحيقة... قل بالله عليك ما الذى تجنيه مصر من سجن وتشريد أبر أبنائها بها... أما كان الأولى أن تشجع وتنمى هذه الروح الفتية الوثابة، حتى تجنى البلاد ثمارها وتحقق الآمال التى تجيش فى صدر كل مصرى.

لقد قرأت فى صحف الصباح تصريحاً للنقراشى باشا.. يقول فيه عن هربى إنه حادث مزعج.... ولا أدرى لماذا ينزعج ؟ مع أن خروجى من السجن لا يزعج أحدا إلا الخونة وأعداء البلاد.. وإننى واثق من أن دولته ليس منهم.

وإنى وإن كنت آسفا على شئ.. فعلى مصير الضابط كمال عرفة.. وهو الذى كان مكلفاً بحراستى.. وثق أننى لم أتعمد إيذاءه، وأنى فكرت كثيراً فى طريقة للخلاص من سجنى بدون إيذاء أحد، ولكن كان ما كان، جزاه الله خيراً وغفر له.

وقد أرسلت لك هذا الخطاب.. لأنى أعلم أنك الصديق الصحفى الوحيد الذى يفهمنى ويقدر ظروفى.. وشكراً لدفاعك دائمًا عنى، وإلى اللقاء إن كان هناك أمل فى اللقاء... حسين توفيق ١٠ يونيو ١٩٤٨».

لقد اهتمت النيابة بهذا الخطاب.. وقامت بندب بعض الخبراء لمضاهاة خطها بخط حسين توفيق.. فإتضح انه مكتوب فعلا بخط يده وإن كان المحققون قد رجحوا أنه كتب لتضليل الشرطة.. إذ لاحظ المحققون أن الخطاب مكتوب بأسلوب عال لا يتفق وثقافة حسين توفيق، واستنتجوا من ذلك أن شخصا ما قد أملاه عليه... مما يؤكد أن له شركاء قد دبروا له طريق الهرب وعملوا على إخفائه.

قرأ هذا الخطاب أيضًا مصطفى أمين واستشف منه.. أن «سعد» هو كاتب الخطاب.. كما لايشك أيضًا أنه مخطط الهروب.. فطلب من معاونيه أن يقابل «سعد» الذى كان بدوره من المعجبين بالأسلوب الصحفى الجديد.. الذى بدأه مصطفى أمين فى الصحافة المصرية.. فحرص على الذهاب إليه.. وطلب مصطفى امين من «سعد» أن يعتبر نفسه من الآن أحد أبناء أسرة أخبار اليوم... وكلفه مصطفى أمين بأول عمل صحفى بأن يستكتب حسين توفيق مذكرات هروبه لتنشر فى اخبار اليوم.. وبذلك يحقق انفرادا عالميا لأخبار اليوم.

وأحس «سعد» خلال اللقاء بارتفاع الحس الصحفى عند مصطفى أمين.. الذى عرف أنه كاتب الخطاب إلى إحسان عبد القدوس.. لتشابهه مع أسلوب كتاباته فى مجلة اللواء الجديد.. وافق «سعد» على عرض مصطفى أمين.. ووعد «سعد» أن يرفق المذكرات بمجموعة من الصور الفوتوغرافية لحسين.. متنكرًا فى شخصيات متنوعة.. تبدأ من ضابط بالجيش.. ونزولا إلى خادم لا شأن له.

بعد فترة من إقامة حسين عند إحسان.. انتقل إلى بنى سويف بعزبة عضو مجلس نواب مركز ببا - بنى سويف - والذى رحب بإقامة حسين واستعداده أن يستضيفه أى فترة يحددها «سعد».. ولكن تشاء الصُدف الغريبة أن ينشب صراع مسلح بين أهالى القرية.. وقرية أخرى مجاورة سقط فيها العديد من القتلى والجرحى.. ولم يتوقف القتال إلا بعد أن تحولت القرية إلى معسكر لرجال البوليس.. وأصبحت إقامة حسين غير آمنة ..فرتب «سعد» انتقاله إلى منزل مصطفى مراد.. وهو زوج خالة سعد بالدقى بنفس الشارع الذى يقيم فيه مع والده.. والذى شجع «سعد» على استخدام الشقة أن مصطفى مراد يتميز بأنه وطنى غيور.. وينتمى لحزب مصر الفتاة وكذلك زوجته أمينة رضوان.. وشقيقتها عزيزة رضوان التى كانت تقيم فى الشقة المقابلة التى يقيم بها حسين.. وكانت تشرف على توفير كافة احتياجاته المعيشية وتقوم بها بكل شجاعة وإخلاص.

أما من قام بتهريب حسين عبر الحدود المصرية .. فهو الشهيد الصاغ عبد الرؤوف نور الدين.. وكان ضابطا فى حرس الحدود بالغردقة.. وقد قام بتهريبه

إلى السعودية على ظهر إحدى مراكب الصيد... وكان رمز«أ» خلال المذكرات تشير بالطبع إلى «سعد».

وقد نشرت المذكرات فى جريدة أخبار اليوم فى ١٩٤٨/٩/١١ - العدد رقم ٢٠١- السنة الرابعة.. وقد تصدرت الصفحة الأولى باللون الأحمر العناوين التالية:

مذكرات حسين توفيق بخط يده

نصر صحفى عالمى

أول صورة تنشر له بعد الهرب

أغرب قصة هروب فى تاريخ مصر

واستطردت الجريدة بقولها: «إستطاعت أخبار اليوم أن تظفر بنصر صحفى عالمى.. فقد خصًّها حسين توفيق بمذكراته عن كيف هرب؟ وأين هرب؟ والحوادث المثيرة التى وقعت له منذ اختفائه.

وفى الوقت نفسه استطاعت«اخبار اليوم» أن تحصل على صور لحسين توفيق فى أثناء هروبه وتخفيه..».

«ولهذا النصر الصحفى قصة.. فى أثناء نظر قضية الاغتيالات أمام محكمة الجنايات طلبت «أخبار اليوم» من الأستاذ سعد الدين كامل المحامى.. ومندوب«أخبار اليوم» الخاص أن يتصل بحسين توفيق ويطلب منه أن يخص «أخبار اليوم» بمذكراته من يوم القبض عليه إلى يوم الحكم، كما خص محمود العيسوى قاتل الدكتور أحمد ماهر باشا «أخبار اليوم» بمذكراته.. ووعد حسين توفيق أن يخص«أخبار اليوم» بمذكراته.. ومضت الأيام...

وهرب حسين توفيق ويئسنا من أن تصل إلينا المذكرات..

وقال سعد كامل.. إنه ما دام حسين قد وعد «أخبار اليوم» فإنه سيفى بما وعد..

ومرت أيام..

وذات صباح وجدنا ظرفا كبيرا مغلقا وفيه المذكرات، وفيه فيلم صور لقصة أعظم هروب فى تاريخ مصر.

والمذكرات كلها بخط حسين توفيق، ونحن ننشرها بحروفها:

لست هاريا

قد يعجب الناس من أمر هربى.. فهل هربت لخوفى من العقاب.. أو لإتمام رسالتى.. أو لأنى مظلوم.. والواقع أنى لم أدخل فى حسابى أحد هذه العوامل عندما فكرت فى الهرب ، لأنى لم أعتبر نفسى خارجا على القانون.. أو سجينا.. إنما مثلى كأسير حرب وقع فى يد الأعداء.. وقد يبدو هذا غريبا ... لأنه وإن كان حارسى مصريا وقضاتى مصريين.. إلا أن القانون الذى سوغ اعتقالى وضع فى عهد الاحتلال وبوحى المحتل.. فلم يحسب المشرع حساب تقدم الوعى الوطنى بهذه الصورة القوية.. لذلك فقد ظلمنا حضرة ممثل النيابة أنور بك حبيب عندما قال فى مرافعته (أعرض على حضراتكم اليوم قضية عصبة من الأشرار المفتونين... اتخذوا القتل هواية وسفك الدماء غواية) ألا فليعلم ممثل النيابة مع تقديرى لموقفه أنا لسنا كما تخيلنا عصبة من الأشرار اتخذوا القتل هواية. لأن القتل مهما سما الدافع إليه مناف للطبيعة البشرية.. فلو أن الدولة تكفلت بالزعماء والقادة وحاكمتهم وحكمت على الخونة منهم.. لما جاز لإنسان أن ينصب من نفسه قاضيا وجلادا لهم ولكنها تركت حبلهم على غاربهم.. لا رقيب ولا حسيب إلا الرأى العام.. ممثلا فى الصحف.. الذى يتهم أغلبهم بالخيانة والتعاون مع الأعداء.. ولم يحرك أحد ساكنا ليدافع عن نفسه، أفلا يحق للإنسان عندئذ أن يخرج على طبيعته البشرية.. وأن يلتمس من القانون أن يساوى على الأقل بينه وبين الزوج الذى الذى يضبط زوجته متلبسة بالزنا فأباح له القتل.

إنى لم أفعل إلا ما يفعله الجندى فى ميدان القتال.. فليس لى هدف إلا تحرير بلادى.. وحريتى الشخصية من حرية بلادى.. فأنا لا أملكها ولن أفرط فيها.

ها هى يومياتى.. أقدمها لأبناء وطنى.. فإن فيها ما يقطع بقوة الروح الوطنية بين أفراد الشعب المتوثب إلى المجد.

* ٩ يونيو ١٩٤٨

٩يونيو أيها اليوم الخالد فى تاريخ حياتى.. لن أنساك وسأظل أحتفل بك ما دمت حيا.... إنه اليوم الذى حطمت فيه قيودى ونجوت من الأسر البغيض... كنت أعقد آمالا كبيرة دائما على الضابط الذى سيرافقنى.. وحوالى الساعة التاسعة استدعيت للخروج إلى العيادة.. وبمجرد أن وقع نظرى على كمال أفندى عرفه - الضابط الذى عليه مرافقتى - إرتحت اليه وأشفقت عليه فى نفس الوقت.. وعندما جاذبته أطراف الحديث أيقنت فى الحال أنى سأستطيع الإفلات منه.

لم أشعر إلا وأنا أمام عربة والدى.. التى اعتادت أن تنقلنى فى إيابى إلى السجن لأتمكن من النزهة بها.. لقد دهش كمال عرفة أنى أتقدم نحو العربة. فلما سألنى قلت له حضرات الضباط قد تعودوا منى هذا.. وأن النيابة سمحت لى بالتنزه فى الطرقات كلما خرجت لعيادة الدكتور.

إستقبلتنى والدتى مذهولة.. ولكن دهشتها اختفت سريعا.. لأن أخى سعيد كان قد حضر إلى المنزل.....

ذهبت إلى دورة المياه ولها بابان.. دخلت أمام الضابط من باب.. وخرجت من الآخر إلى باب الحديقة.. فإذا بى أجد نفسى طليقا فى شوارع مصر الجديدة.

لم أتعجل فى السير.. بل مشيت مشية عادية.. لوثوقى فى أن أمرى لن ينكشف قبل ربع ساعة على الأقل... ثم اتجهت إلى موقف سيارات أجرة... وبإحداها وصلت إلى حى (×) وتوجهت فى هذا الحى إلى منزل صديقى «أ»(سعد)... ووجدت «أ» يتناول طعام الغداء مع أسرته وقد دهشوا، وظنوا أول الأمر أنى آت لزيارتهم بصحبة الحراس، .... انطلقنا بسيارة أجرة إلى منزل صديق فى حى السيدة زينب.. اتخذناه نقطة ارتكاز لنفكر فيها.... استقر الرأى على الذهاب إلى منزل «ح»(إحسان عبد القدوس) وقد اتصلنا به فحضر بسيارته فى الحال لينقلنى إلى منزله، وفى دقائق

وجدت نفسى داخل منزل أنيق.. يستقبلنى أفراد الأسرة بكل حفاوة وترحيب كأنى قريب عزيز.. أو صديق حميم.. مع أنى لا أعرف أحدا منهم قبل الآن.. لا يفوتنى الإشادة بشجاعة سيدة المنزل... إنها تمثل الجيل الجديد من النساء.

*** ١٤ يونيو**

بينما كنت خارجا من دورة المياه فى الصباح.. إذ بى أجد نفسى وجها لوجه أمام سفرجى المنزل.. وما كاد يرانى حتى حملق فى وجهى.. وشعرت عندئذ أنه عرفنى.. وأسرعت إلى غرفة أهل المنزل أخبرهم بما حدث....

وفى التاسعة مساء حضر صديقى «أ» فوضعت منظارا أبيض على عينى.. ولبست طربوشا لأغير من سحنتى... وذهبنا إلى ڤيللا ضابط فى الجيش.

*** ١٦يونيو ١٩٤٨**

إن المنزل الذى أقيم فيه هذه المرة بالزمالك.. مكون من طابقين وبدروم.. وتسكن فيه أسرتان من عائلة واحدة. ومن أغرب المصادفات أنه يقع بالقرب من أحد أقاربى... لقد شاهدت اليوم والدتى تزور منزل هذا القريب... لشد ما كنت أتلهف لكى أقفز من المنزل لأقبل والدتى التى ازداد شوقى إليها....

*** ٢٧يونيو ١٩٤٨**

تقرر نقلى اليوم إلى عزبة أحد أعضاء البرلمان الحالى.. وهو نائب شاب معارض.. شهم متطرف فى الوطنية... فقد استضافنى فى عزبته أى مدة أشاء إلى أن تضعف رقابة البوليس.. وأتمكن من السفر خارج القطر...

*** ٥ يوليو ١٩٤٨**

دارت مشاجرة بين عائلة العمدة وأهالى البلدة المجاورة.. استعملت فيها كل أنواع الأسلحة.. وقد أسفرت عن مقتل شخص وجرح اثنين... وانتشرت المباحث فى

القرية وقامت النيابة بتفتيش منازل القرية.. وأصبح المنزل الذى أقيم فيه مهددا بأن يقتحم بين ساعة وأخرى.. انتقلت إلى منزل النائب متمتعا بالحصانة البرلمانية..ثم انتقلت إلى القاهرة فى عربة النائب.. واستضافتنى أسرة من أقارب النائب كانت فى انتظارى.

*** ١٠يوليو ١٩٤٨**

حضر صديقى «أ» ووافقت على فكرته.. وهى أن أحسن مكان أختبئ فيه.. هو المكان الموضوع تحت مراقبة البوليس.. وبمعنى آخر هو منزله الذى يراقبه البوليس ليل نهار.. ويراقبون كل خطاباته وبرقياته.... إن العمارة التى يقطنها يسكن أغلب شققها أقاربه. وقد رتب أن احتل إحدى الشقق التى غاب أهلها فى الريف.

*** ١٢ يوليو ١٩٤٨**

أثار فضولى مسألة حضور الطعام.. فأردت أن أتحرى كيف يهبط. ورابطت بجوار الباب.. حتى إذا ما جاء موعد الإفطار دخلت بالأكل سيدة وقورة... أى والله سيدة.. كم من الرجال يخشون القيام بهذه المهمة... بادرتنى بالتحية بهدوء وقالت إنها لم ترد إزعاجى فى اليوم السابق لأنى كنت نائما.

*** ٢٤ يوليو ١٩٤٨**

إن هذا الحكم (حكم محكمة الجنايات فى قضية أمين عثمان) انتصار رائع للوطنية والوطنيين.. وهو أول اعتراف بالجريمة السياسية.. إنه ضربة قاضية لكل مستوزر وخائن.

*** ١١أغسطس ١٩٤٨**

حضر اليوم صديقى«أ» وأخبرنى أن الترتيبات اللازمة قد وضعت لكى أخرج من مصر.. واستحضر بعض الملابس البلدية التى سوف أرتديها فى خطة الخروج.. فسأمثل دور طباخ اسمه محمد عثمان.

* ١٧ أغسطس ١٩٤٨

اليوم هو آخر أيامى فى هذا المنزل.. أقمنا حفل عشاء حضر فيه كل الذين يعرفون بوجودى فى العمارة.. وكان الوداع حارا. لقد قالوا إن لولا أن خروجى خارج القطر أكثر فائدة من بقائى عندهم لما فرطوا فى.. فتأثرت من عطفهم وشعرت كأنى أحد أبنائهم.

لقد صليت إلى الله صلاة عميقة.. وابتهلت أن ينجينى.

«حسين توفيق»

الفصل الثالث

أنصار السلام يتقدمون

[٩]
عالم جديد

وجد «سعد» نفسه أمام عالم جديد... سواء داخل مصر أو خارجها.. ففى الداخل وبصدور الأحكام فى قضية أمين عثمان إتسعت دائرة أصدقائه واتصالاته السياسية والصحفية.. وأصبح صحفيا معترفا به بعد الخبطة الصحفية التى انفردت بها أخبار اليوم.. والتى أفرد لها مصطفى أمين العديد من الصفحات والمانشيتات لنشر مذكرات حسين توفيق... لقد كان من رأى الكثيرين فى ذلك الوقت أن الأحكام المخففة التى صدرت كان وراءها الملك والسراى والذى اعتبر المتهمين يخدمون أهداف السراى بهجومهم على النحاس وحزب الوفد.. بالإضافة إلى رأى آخر يؤكد.. أن أنور السادات كان على صلة مباشرة بالدكتور يوسف رشاد - الطبيب الخاص للملك - وأنه كان يرسل له دفعات مالية.. تحت مسمى الصرف على المتهمين المحتاجين لمساعدات مالية.. ويشهد سعيد توفيق بأن أنور السادات وقت سجنه معه فى سجن مصر.. أن وكيل مأمور السجن (الصاغ محمد السيد) كان همزة الاتصال بين أنور السادات ويوسف رشاد.. وإنه فى إحدى المرات عاد أنور من حجرة وكيل المأمور ثائراً ويقول عنه.. إنه حرامى.. فقد حجز وكيل المأمور لنفسه ٥٠٠ جنيه.. وأعطى لأنور ٥٠٠ جنيه من المبلغ المرسل من يوسف رشاد.. ويضيف سعيد توفيق مؤكدا صلة أنور السادات بالسراى.. فالخطاب الذى ضبط فى جيب بيجامته.. قد عرف سعيد توفيق إنه كان موجها إلى يوسف رشاد.. وفيه يعطيه «التمام» بأسلوب تلغرافى بالشفرة.. والذى أنهى الخطاب بقوله عاش الزعيم.. وكان يقصد الملك...

هذا بالإضافة إلى أن مصطفى أمين صاحب أخبار اليوم.. والذى كان منحازاً بشكل مباشر للملك.. قد اهتم بمتابعة القضية وكان اهتمامه غير عادى.. فقد أفرد لها صفحات من جريدة أخبار اليوم.. وأظهر المتهمين كأبطال شعبيين....

فكل الطرق كانت مفتوحة أمام سعد.. أن يقترب من معسكر السراى أو الملك.. ولكنه لم يقتنع بهذا الطريق.. فكل المؤشرات تشير إلى أن الاتجاه العام يسير فى اتجاه آخر... فخارجيا كانت حركات التحرر الوطنى تشتعل فى العديد من بلاد آسيا وأفريقيا.. مستندة إلى قوتها الذاتية الآخذة فى النمو.. ومستفيدة مما ألحقته الحرب العالمية الثانية بالدول الاستعمارية التقليدية من ضعف اقتصادى وسياسى وكذلك الصراع العالمى بين الجانبين الاشتراكى والرأسمالى.. وما حققته القوى الاشتراكية خلال عامى ١٩٤٨ - ١٩٤٩ من انتصارات ومن بينها إنتصار الثورة الاشتراكية فى تشيكوسلوفاكيا بوصول الحزب الشيوعى سلميا إلى السلطة فى فبراير ١٩٤٨.. مقتطعا من العالم الرأسمالى بلدا ذا طاقة صناعية مهمة.. وموقع حربى ممتاز.. إلى جانب إعلان الاتحاد السوفييتى فى سبتمبر ١٩٤٩ عن امتلاكه القنبلة الذرية ونجاحه فى تفجيرها.. وبذلك كسر احتكار أمريكا للسلاح الذرى... هذا بالإضافة إلى نجاح الثورة الصينية وإعلان قيام الجمهورية الشعبية فى أول أكتوبر ١٩٤٩.

وبنهاية الحرب العالمية ورفع الأحكام العرفية.. بدأت الحياة تعود للنشاط الحزبى. واتفق حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى مع فتحى رضوان.. وأعضاء مصر الفتاة الذين أعلنوا رفضهم لموقف أحمد حسين بالانضمام للحزب الوطنى الجديد.. والذى تولى فيه فتحى رضوان رئاسة اللجنة العليا للحزب.. تحت مسئولية متابعة العمل اليومى للحزب وأنشطة فروعه فى الأقاليم.. وضمت اللجنة عدة أسماء مهمة من بينهم «سعد» والدكتور نور الدين طراف - ومحمود الحناوى المحامى- وأحمد شوقى المحامى- وبرهان سعيد - ويوسف حلمى - وزهير جرانة - ومحمد ابراهيم كامل- ونجيب فخرى- وابراهيم ابو على - وابراهيم حلمى - ومحفوظ عزام.

من خلال اجتماعات اللجنة العليا للحزب الوطنى.. توطدت العلاقات بين يوسف حلمى «وسعد» فقد وجد «سعد» فى يوسف شخصية متعددة المواهب.. فهو إلى جانب أنه محام ناجح.. ومكتبه مكتظ بالفنانين والفنانات.. فهو يعمل مستشارا قانونيا لعدد كبير من الفنانين، ولا عجب فى ذلك فهو فنان بطبعه، إذ بعد حصوله على ليسانس الحقوق.. التحق بمعهد التمثيل مع الدفعة الأولى من طلابه.. واشتغل بالنقد الفنى أو

المسرحى على وجه خاص.. فى جريدة كوكب الشرق التى كان يحررها طه حسين عام ١٩٣٢.. ثم فى جريدة الوادى التى تولى طه حسين تحريرها كذلك لحساب الوفد.. وله اهتماماته أيضا فى الثقافات الأدبية الأجنبية... وكان يحب الموسيقى والغناء وذا صوت جميل.. عندما يتجلى يرتفع صوته بالغناء بصوت عذب.. وتلحين جميل.. وكأنه يغنى مصطحبا لجوقة موسيقية كاملة.... إنه مؤسس جمعية أصدقاء سيد درويش.. ذلك الفنان المصرى الأصيل والذى نقل الفن من الطرب والتواشيح.. إلى العالمية والأوبريتات والتمثيليات الغنائية.. فكان يوسف شديد الاهتمام بفن سيد درويش ، ورغم اهتماماته المتعددة من صحافة ومحاماة وسياسة ، فكل ذلك لم يحل بينه وبين أن يواصل اهتمامه بإحياء ذكرى سيد درويش.. وتسجيل أغانيه.. وإعادة تمثيل أوبريتاته.. وقد اكتشف موهبة محمد البحر ابن الشيخ سيد درويش، وكان يقدمه فى حفلات خاصة فى الأندية السياسية.. أو فى منزله فى سهرات تجمع الأصدقاء وهذا مما يجعلنا لا ننسى.. أن سيد درويش عندما مات.. شيعه إلى مثواه الأخير خمسة أفراد.. ولولا يوسف حلمى لاندثر هذا الفن الأصيل والجميل.

لقد وجد «سعد» فى هذا العالم الجديد والغريب.. والذى فتحه أمامه يوسف حلمى.. وسيلة للتقارب بينهما.. إذ كانت تجمعهما موضوعات مشتركة عديدة.. فبداية «سعد» فى العمل فى أخبار اليوم.. قد سبقه فيه يوسف حلمى بنشره العديد من المقالات السياسية والاجتماعية.. وكان على صلة وثيقة بالعديد من الصحفيين والقيادات الصحفية.. مما يجعل التواصل بينهما مستمرا ومشتركا فى الكثير من الأمور. إلى جانب أن فتحى رضوان.. أوكل ليوسف حلمى مسئولية رئاسة تحرير مجلة اللواء الجديدة.. الصادرة عن اللجنة العليا للحزب الوطنى.. وقد كانت تصدر فى البداية شهرية... فأبدع يوسف فى تخطيطها.. وجعل «سعد» يشارك معه فى تلك المهمة.. سواء بالتخطيط والتنفيذ أو الكتابة. كل هذا جعل المسافة بينهما تقترب أكثر فأكثر.

فى ظل هذا الوضع المتغير والمتجدد الذى يواجهه «سعد».. وصل إلى القاهره مندوب عن حركة السلام العالمى.. لدعوة ممثل عن مصر لحضور المؤتمر المزمع عقده فى «شفيلد» بانجلترا.. وكان مع المندوب أسماء شخصيتين لدعوتهما للحضور.. أولهما

المفكر المصرى سلامة موسى.. وثانيهما الصحفى الوطنى يوسف حلمى ، وللصدفة اعتذر الاثنان عن السفر.. واتفقا على أن خير من يمثلهما هو سعد كامل ، فالتقى المندوب «بسعد» الذى قبل الدعوة لحضور مؤتمر السلام العالمى الثانى.. حيث إن المؤتمر الأول كان قد انعقد فى استوكهولم.. واتخذ العديد من القرارات المهمة التى تطالب شعوب العالم بأن تقف صفا واحدا فى معسكر السلام.. وكانت الثوابت التى تدعو لها حركة السلام العالمى تنحصر فى نقطتين هما:-

محاربة الاستعمار.. والوقوف مع الدول التى تسعى للاستقلال.. ورفض الدخول فى أى أحلاف عسكرية.

واعتبرت حركة السلام.. أن كل من يؤمن بمبادئ السلام هو من أنصار السلام.. بصرف النظر عن توجهاته السياسية.. أو الدينية.. أو العرقية.. مما سهل عليها النجاح فى كسب الشخصيات العالمية الليبرالية والوطنية....

ومن تلك الشخصيات كان الرسام العالمى بابلو بيكاسو.. والمعروف عنه إنه ليبرالى وليس شيوعيا... لقد كان انضمامه للحركة مكسبا كبيرا لها.. خاصة وأنه أهداها شعارها المرسوم.. وهو حمامة السلام.. والتى عبرت خير تعبير عن أفكار السلام.... لقد شاركت «حمامة بيكاسو» فى كل نشاطات حركة السلام.. فتجدها فى أوراق الدعوة للمؤتمر.. وعلى رأس الصحف المنادية بالسلام.. وفى قاعة الاجتماعات تتصدر مؤتمرات السلام.. إنها الرمز الحى المجسم لأهداف حركة السلام العالمى.

* * *

[١٠]

أنصار السلام فى مصر

سافر «سعد» إلى باريس.. والتقى هناك بهنرى كوريل.. الذى أخبره أن انجلترا قد رفضت أن يقام المؤتمر على أرضها.. ونقل المؤتمر من شفيلد إلى وارسو.. وتم إعداد طائرة ركاب خاصه لنقل رؤساء الوفود إلى وارسو.

ومن باريس.. كانت الطائرة العملاقة تقف لتحمل على متنها أساطين العالم.. فى الأدب والفن والسياسة والدين. لقد ضمت هذه الرحلة التاريخية.. جوليو كورى رئيس المؤتمر وزوج ابنة عالمة الطبيعة مارى كورى مكتشف الراديوم - وابنة عالم الطبيعة المشهور جوليو كورى مكتشف أشعة إكس.. ومن انجلترا أكبر قيادة دينية دين اوف كنتربرى.. ومن إيطاليا بيترونينى رئيس الحزب الشيوعى الإيطالى.. ومن الاتحاد السوفييتى الكاتب العالمى إيليا اهرنبورج.. ومن تركيا الشاعر ناظم حكمت.

إنها رحلة تاريخية.. تضم صفوة مفكرى العالم.. متجهين فى مهمة إنسانية.. لمنع نشوب حرب ذرية بين دولتين.. تمتلك كل منهما سلاح القنبلة الذرية.

وصلت الطائرة إلى مطار وارسو.. وشاهد «سعد» من النافذة حشدا جماهيريا ملأ المطار عن آخره. إنهم فى انتظار استقبال قادة ومفكرى العالم.. الذين قطعوا آلاف الأميال.. ليؤكدوا تضامنهم مع الشعوب المناهضة للاستعمار.

ومع نزول كل شخصية عالمية ترتفع الصيحات المدوية مرحبة.... وكان على كل رئيس وفد أن يلقى كلمة قصيرة.. ردا على هذا الاستقبال الحار..... وجاء الدور على «سعد» فارتجل كلمة بالإنجليزية قال فيها: «باسم ١٧ مليون مصرى.. وباسم حضارة وادى النيل من أربعة آلاف عام.. نقف مع السلام فى كل مكان فى العالم».

يقول «سعد»: إنه لم يعرف إن كان قد أنهى كلمته أم لا.. ولكن كل ما يتذكره أن عشرات من الشباب هجموا عليه دون بقية رؤساء الوفود.. ولم يشعر سوى أنهم يقذفونه إلى أعلى وما إن يعود إلى البساط المشدود لاستقباله.. يقذفونه إلى أعلى وهكذا.. ولمدة ليست بالقليلة والآلاف تهتف وتصرخ.

وفى صباح اليوم التالى تم افتتاح المؤتمر. وكانت حمامة بيكاسو تتصدر القاعة. لقد كانت غير حمامة المؤتمر السابق.. ففى المؤتمر الأول كانت الحمامة واقفة ضامة لجناحيها وفى هذه المرة أصبحت ناشرة لجناحيها.. تعبيرا على انطلاق دعوة السلام إلى مختلف دول العالم.

إن أهم نجاح للمؤتمر.. هو قبول الدعوة من جانب العديد من المفكرين والمثقفين.. وإن كان قد تغيب البعض فهو لأسباب بوليسية.

افتتح المؤتمر «جوليو كورى» بكلمة.. مرحبة بكل الوفود التى شاركت فى المؤتمر.. وبدأت بانجلترا قائلاً: بأنه رغم منع الحكومة البريطانية إقامة المؤتمر على أراضيها.. فإن الشرفاء عارضوا ذلك الموقف المتعنت واعتبروها إهانة للإنسان البريطانى.. وكان رد الفعل لذلك.. هو أن شارك ورأس الوفد أسقف كنتربرى وهو رأس الكنيسة البريطانية... وانتقل بعد ذلك إلى أمريكا.. حيث قام ماك أرثر بمنع الوفد الامريكى الذى كان قد أعد حقائبه للحضور والمشاركة فى هذا الحدث العالمى... لقد اعتبر نظام الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية.. أن معسكر السلام هو المعسكر المعادى للسياسة الأمريكية.. وأعلنت رئيسة المؤتمر أسماء الوفد.. وكلهم من صفوة مثقفى المجتمع الأمريكى.. وكان يقابل كل اسم بعاصفة من التصفيق.. وعند ذكر اسم المغنى الزنجى العالمى «بول روبسون» تمت إذاعة رسالة صوتية له يقول فيها: «لقد نجحت الماك أرثرية فى منعى من السفر.. ولكن لن تستطيع منعى من الوقوف فى معسكر السلام.. ثم أنشد أغنية جميلة.. يندد فيها بماك أرثر تحت عنوان «الأخوة» وقد تم توزيعها على كل الحاضرين.. معبأة على إسطوانة مرسوم عليها حمامة بيكاسو الأولى.. وعلى الوجه الآخر حمامة السلام المنطلقة.... واعتبر«سعد» هذه الاسطوانة من

أعز الهدايا التى حصل عليها طوال حياته.... وبدأ كل رئيس وفد يلقى كلمته ويشرح مفهوم السلام في بلده.. واقتراحات كل وفد لتدعيم مسيرة السلام.... وجاء الدور على الوفد المصرى ووقف«سعد» على المنبر.. فى مواجهة ٨٢ وفدا من مختلف بلاد العالم.. وبمشاركة ما يزيد على ٢٥٠٠ عضو.. إلى جانب ترجمة فورية إلى ست لغات دولية.... وشرح «سعد» الوضع فى مصر.. حيث مازال الاستعمار البريطانى جاثما على صدر الشعب المصرى.. ويمنع حرية التعبير وحرية الانضمام لحركة التحرر العالمية.. فهناك قانون يجرم الانضمام إلى أية حركة عالمية.... واختتم كلمته بقوله «إنه الآن يقف أمام المؤتمر.. وفى نفس الوقت هناك عمل نشيط قد بدأ فعلا.. لتأسيس اللجنة المصرية لأنصار السلام »وقوبلت كلمته بتصفيق متواصل.. إمتد لأكثر من ثلاث دقائق.. وقد قامت رئيسة المؤتمر بالتعليق على كلمته بأن قالت: إن إنضمام مصر لمعسكر السلام هو مكسب كبير لحركة السلام العالمى لدورها المحورى.

ومن الخبرات المهمة التى استفادها «سعد» من المؤتمر.. تجربة وفد المكسيك.. التى ربطت قضية السلام.. بشعار الفن للحياة.. وبذلك شارك فى لجان السلام.. إلى جانب الفنانين والنجوم المشهورين الأطفال والشباب والنساء وكل محبى السلام.. لقد أبدعوا ورسموا من أجل السلام ليس فقط.. على الورق بل كانت الحوائط وكذلك الطرق الاسفلتية هى ميدان إبداعهم.. والوسيلة الفعالة للوصول إلى الناس.....

وفى نهاية المؤتمر أعلنت القرارات.. والتى هى حصيلة خبرات ٨٢ وفداً من كافة قارات العالم.. وتتلخص فى ضرورة تأسيس ونشاط حركة السلام فى كافة دول العالم.. وأن لا تقتصر عضويتها على المثقفين.. بل لابد من النزول إلى الشارع وأن تكون هناك مشاركة إيجابية من كافة أفراد الشعب.... فالسلام هو أمل الشعوب ومستقبلها..... لقد انفردت حركة أنصار السلام دون بقية الحركات التحررية.. فى كونها آمنت بالتعايش السلمى بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة. وتصفية المشاكل الدولية عن طريق التفاوض. وبحق كافة الشعوب فى الاستقلال الوطنى. كما أن الاشتراك مكفول لأى إنسان.. وأية جماعة من الناس يؤمنون بالسلام..

لقد انتهى المؤتمر.. وشعر«سعد» بعد قراءة متأنية لقرارات المؤتمر.. إنها قرارات مهمة وخطيرة.. وفى الإمكان أن يقابلها الشعب المصرى بكل ترحاب.. إنها حركة يمكن أن تضم الوفدى والسعدى والوطنى.. فالجميع ضد الاستعمار.. والجميع على استعداد للاتحاد من أجل هدف واحد.... وليس هناك هدف يجمع عليه الجميع سوى طرد المستعمر....

لقد أصبح «سعد» على شوق أن يعود إلى وطنه... ومن باريس ركب الطائرة عائدا إلى القاهرة.....لقد شاركت بصفتى شقيقه فى استقباله.. وكان موعد عودته إلى القاهرة فى الثانية ظهرا فى مطار هايكستيب.. أول مطار دولى لمصر ونزل سعد من الطائرة.. وعلى وجهه علامات السعادة والثقة فى الرسالة الإنسانية المهمة التى أداها... فهو أول مصرى يمثل بلده فى مؤتمر للسلم العالمى .... وساعد ذلك على ربط مصر بأهم حوار عالمى لتحقيق الاستقلال الوطنى.. والنجاة من الحرب الذرية.

وما أن قدم «سعد» جواز سفره لضابط الجوازات.. حتى طلب منه أن يدخل حجرة جانبية ليتم تفتيشه ذاتياً!!!

إن التفتيش الذاتى لا يتم إلا مع المهربين الخطرين.. خوفا من تسرب ممنوعات أو سموم يخبئها فى أماكن حساسة بالجسم.. فهل وصل الحال بالحكومة.. أن تعتبر أفكار السلام من الممنوعات التى تخشى أن تتسرب إلى أفراد الشعب المصرى؟؟

خرج «سعد» بعد هذا الإجراء التعسفى.. الذى لم يقابله بأى تشنج أو احتجاج.. لاقتناعه بأن تعاطى أفكار السلام.. تشكل خطرا على الحكومة.. أكثر من تعاطى السموم والمخدرات .

وفى أول لقاء بعد العودة ضمه مع يوسف حلمى.. أخبره بأنه بدأ فى تأسيس اللجنة التحضيرية لحركة أنصار السلام الأولى.. وقد لقيت قبولا واسعا بين المثقفين المصريين.. وانضم للجنة أسماء لامعة من بينها محمد كامل البندارى«باشا» وزير سابق وسفير مصر فى موسكو.. والدكتور محمد صبرى أستاذ جامعى.. ومحمد جبر التميمى– عضو مجلس الشيوخ.. والدكتور محمد مندور – عضو مجلس النواب ووفدى

ومن قياديى الطليعة الوفدية.. ومحمد على عامر- عامل نقابى.. وكمال عبد الحليم - الشاعر.. وإحسان عبد القدوس - الصحفى.. وسيزا نبراوى وإنجى أفلاطون - من طليعة الحركة النسائية.

لقد استوعب الشعب المصرى رسالة حركة أنصار السلام.. وجاء تشكيل أول لجنة يضم اتجاهات حزبية مختلفة.. من الوفد إلى الطليعة الوفدية.. إلى الحزب الوطنى.. كما ضمت شيوعيين.. وفى نفس الوقت إخوان مسلمين.. وكذلك العديد من الشخصيات المستقلة الليبرالية....

وفى الاجتماع الأول للجنة التحضيرية والذى انضم اليه يوسف حلمى وسعد كامل.. كانت القرارات الأولى بمثابة دعوة لكل المصريين لكى يشاركوا فى حركة أنصار السلام.. وجاء فى البيان انها ليست إلا هيئة ذات غرض واحد.. هو العمل على إقرار السلام العالمى.. وتوحيد كفاح الشعب المصرى لتحرير الوطن من الاستعمار.. وعدم قبول الارتباط بمعاهدات عسكرية تفقد مصر استقلالها أو تقودها إلى الاشتراك فى الحرب....

كما قررت اللجنة إصدار مجلة «الكاتب» بإشراف يوسف حلمى.. ورئيس التحرير سعد كامل.. على أن تكون اسبوعية وناطقة باسم حركة السلام المصرية.. وانتهى البيان بمطالبة كل المصريين.. أن يشكلوا لجانا لحركة أنصار السلام فى الأحياء والمدن والقرى ودور العلم والتجمعات الشعبية.. لتكون هى المحرك الأساسى للحركة والداعية لكل المصريين أن ينخرطوا فى صفوف أنصار السلام...

لقد كان لهذه القرارات الأولى للجنة التحضيرية لأنصار السلام.. صدى واسع بين كل العاملين فى الحقل السياسى مما دفع المزيد من الشخصيات السياسية أيضا لإعلان انضمامهم للحركة من بينهم: أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى - فتحى رضوان زعيم الاتجاه الجديد فى الحزب الوطنى - عزيز فهمى من الطليعة الوفدية- الشيخ الصيفى من الإخوان المسلمين - حفنى محمود من حزب الأحرار الدستوريين- عبد السلام الشاذلى- وعبد الرزاق السنهورى رئيس مجلس الدولة ووزير سعدى سابقا (بعد قيام الثورة رشح رئيسا للوزراء.. واعترضت أمريكا لتوقيعه على هذا البيان).

لقد كان لانضمام تلك الشخصيات البارزة.. إلى جانب العشرات من المهتمين بالعمل السياسى.. أثر كبير فى لفت الأنظار لذلك الكيان السياسى الجديد.. والذى نجح فى أن ينمو سريعا.. ويحقق وجودا واضحا فى الحقل السياسى.. خاصة وأن المناخ العام كان ملتهبا.. بعد أن اكتسح حزب الوفد انتخابات يناير ١٩٥٠.. وتزايد الضغط الشعبى مطالبا بإلغاء الأحكام العرفية.. والعمل الجدى لاستقلال البلاد.. وتحجيم السراى.. وعدم تدخلها فى شئون الحكم.

إن بداية حكم وزارة الوفد.. تعتبر من أخصب فترات التفتح السياسى فكراً ونشاطاً عمليا.. حيث انطلقت حركة الجماهير من عقالها وكان المكسب الأول هو إلغاء الأحكام العرفية فى مايو ١٩٥٠.. وانطلقت الصحافة الشعبية.. ونهضت الأحزاب والتنظيمات السياسية والاجتماعية.. وطفت على السطح وارتفعت الأصوات ضد الملك والحاكمين.. تهاجم البوليس السياسى مصدر الإرهاب.. وتطالب بالمساواة والحرية.. وتهاجم الملك والإسراف والغلاء وسوء توزيع الثروات.. سواء كانت أرضا أم رؤوس أموال....

وفى ظل هذا المد الشعبى تشكلت تنظيمات ولجان من حركة السلام.. خلال فترة وجيزة فى العديد من الأحياء ومناطق التجمعات الجماهيرية وكانت ركيزتها الرئيسية شباب الطليعة الوفدية.. وكذلك عناصر شيوعية مدربة على العمل الجماهيرى.

كان التكليف الأول لهذه اللجان.. هو حث الشباب المتحمس والمؤمن بقضية بلده للانضمام إلى لجان أنصار السلام.. وقد ساعدت الأفكار الاشتراكية والصورة الجديدة التى بدأت تظهر فى الاتحاد السوفييتى.. ساعدت على اعتناق مجموعة كبيرة من الشباب للمبادئ الشيوعية.. ولكن لكون التنظيمات الشيوعية كلها سرية ومجرمة قانونا.. فاتجهوا لتدعيم أنصار السلام باعتبارها تنظيمات علنية للبوليس المصرى....

لقد بدأت هذه اللجان نشاطها.. بكتابة شعارات على حوائط المنازل ضد الاستعمار وضد الأحلاف العسكرية.. وإنها مع السلام العالمى ورفض الأسلحة النووية.... كما شاركت هذه اللجان فى جمع التوقيعات على نداء استكهولم.. الذى

يطالب فيه جميع الشعوب.. بالعمل لتحريم استخدام القنبلة الذرية وبعدها نشطت اللجان لجمع التوقيعات على نداء برلين.. الذى يدعو رؤساء الدول الخمس الكبرى للاجتماع لبحث المسائل المتعلقة بصيانة السلم العالمى.....

وقف البوليس ضد جمع التوقيعات.. وألقى القبض على القائمين بهذا العمل.. مما جعل الحصيلة النهائية للتوقيعات فى مصر لا تتعدى ١٥ ألف توقيع.. فى حين تخطت السودان هذا الرقم ووصل إلى ٣٠ ألف توقيع.. وكذلك لبنان الذى وصل الرقم إلى ١٠٠ الف توقيع....

لقد ارتفعت حصيلة التوقيعات عالميا على بيان برلين ووصلت إلى ٤٠ مليون توقيع.... وأصدرت اللجنة التحضيرية بيانا تشرح فيه نجاح الملايين من التوقيعات فى كافة أنحاء العالم.. فى أن تحقق مكاسب ملموسة بقولها.. إن هذه التوقيعات كانت صرحا حقيقيا ألجم دعاة الهستيريا النووية فى البنتاجون.... وفرض إرادته عليهم... لذلك كان النصر الحقيقى لحركة السلم العالمى.. هو أن الشعار الذى رفعته عام ١٩٥٠ وجمعت جماهير الشعوب حوله.... وأصبح فيما بعد شعارا لعشرات من الحكومات والمنظمات الدولية.. وأخيرا أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها بتحريم القنبلة الذرية....

كما أصدرت اللجنة التحضيرية لحركة أنصار السلام توجيهها للجان الشعبية لأنصار السلام.. بأن تقف ضد اتفاقية النقطة الرابعة.. والتى كانت حكومة الوفد قد وقعتها مع الولايات المتحدة.. وتهدف إلى إعطاء الحكومة مساعدات مادية وعينية مقابل التغلغل داخل الجهاز الحكومى... ونجحت المظاهرات العديدة التى قام بها أنصار السلام فى كشف الحكومة الوفدية.. بأنها تهادن الاستعمار لا تعاديه كما كانت تقول فى ذلك الوقت....

بعد نجاح تأسيس وتفعيل اللجان الشعبية لأنصار السلام.. بدأ «سعد» ويوسف حلمى فى إصدار مجلة «الكاتب» لتصبح الصوت المعبر عن الحركة.. وقد شارك فى الإعداد للإصدار كتيبة من الفنانين المصريين.. من بينهم حسن فؤاد وعبد الغنى

أبو العينين إلى جانب أستاذ الإخراج الصحفى عبد السلام الشريف.. الذى لم يبخل بخبراته الواسعة فى أن تصدر فى ثوب جديد بحجم التابلويد. وتصدرت حمامة السلام رأس الصحيفة.. مع إخراج مقبول لاسم المجلة إلى جانب تبويب للصفحات جعل لها طابعا وشكلا مميزا.

وجاء دور التنفيذ العملى والتمويل.. فلم يبخل يوسف حلمى بتبنى كامل المشروع.. مع جمع تبرعات من المؤمنين بالرسالة السامية لمجلة «الكاتب».... ويأتى على رأس الداعمين الدكتور ابراهيم رشاد راعى الحركة التعاونية فى مصر.. والذى لم ينتظر نداء أحد بل كان من المؤسسين الرئيسيين لنجاح المشروع.

وشاءت الصدف أن يلتقى «سعد» بمحمد صبيح.. وهو من الرعيل الأول فى تأسيس مصر الفتاة.. وبعد أن عرف مشروع إصدار مجلة «الكاتب».. عرض على سعد أن تطبع فى مطابع جريدة «الأساس» وكان يرأس تحريرها.... ووافق «سعد» على العرض الذى كان موفقا لموقع الجريدة فى موقع سهل الوصول إليه بوسط البلد.. خاصة وأنه تم تخصيص حجرة للتحرير كانت لا تخلو من شباب الصحفيين والكتاب.. منهم عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ وحسن فؤاد وزهدى وأبو العينين ويوسف إدريس وكمال عبد الحليم و... و... وكانت خلية نحل تعمل وتتفاعل لتخرج المجلة ذات طعم وطابع خاص.. وبها العديد من المقالات والتحليلات على مستوى رفيع وذات انفراد خاص بها....

إلى جانب ميزة الموقع كانت هناك ميزة أخرى أكثر أهمية لم يقدرها «سعد» وقت الاتفاق.. وهو حل مشكلة التعثر المالى... وهى مشكلة عامة تعانى منها كل صحف الرأى... وخاصة أن البوليس قام بمصادرتها أكثر من مرة مما يضاعف الأزمة المحتدمة من الأصل... وكان دائما محمد صبيح هو الورقة الأخيرة التى تحل مشكلة الطبع... فالإدارة ترفض الطبع إلا بعد سداد المتأخرات المالية... وفى الدقيقة الأخيرة يأمر صبيح بطباعة المجلة مع وعد من«سعد» بأن يسدد كل المطلوب فى اليوم التالى.

صدر العدد الأول من «الكاتب» - يوم الاثنين ١٢ مايو ١٩٥١ - وقد استقبل استقبالا مشجعا من الجمهور.. حيث نفد العدد الأول وقد طبع منه ٢٠ ألف نسخة.. مما جعل سعد ويوسف يأمران برفع المطبوع فى الأعداد التالية إلى ٣٠ ألف نسخة.

لقد علقت صحيفة التايمز اللندنية على هذا النجاح بقولها: بالنص فى عددها الصادر ٢٥مايو ١٩٥١ : «إن الظروف تلعب دورا مهما لصالح هؤلاء الذين يديرون مجلة «الكاتب» ... بل إن كثيرين من خصوم الشيوعية المتعصبين يتفقون الآن مع الشيوعيين فى تأييدها» .

كما أفردت صحيفة التايمز البريطانية تحقيقا صحفيا.. ترصد فيه الخط السياسى وسياسة التحرير فى مجلة «الكاتب».. لشعورها بأن مجلة «الكاتب» تحقق نجاحات هائلة رغم أنه لم يمض على ظهورها أكثر من ثلاثة أشهر وتقول: «كما رفعت شعار أن السلام طريق الحرية... وخاضت وراء هذا الشعار مع التنظيمات الأخرى معارك الدفاع عن الحريات العامة ومقاومة تقييد حرية الصحافة».... وأضافت جريدة التايمز تقول «إن الحركة والحزب يقومان بمهارة فائقة بالربط بين تعاسة الشعب المصرى وبين «مصالح الغرب» وباسم السلام كانت تطالب بإلغاء المعاهدة وبرفض إبرام أى تحالفات مع الدول الاستعمارية باعتبار أن هذه التحالفات يقصد بها الاستعمار التمهيد والإعداد للحرب العالمية.... كما طالبت بإجلاء القوات البريطانية عن مصر بالكفاح المسلح ضد هذه القوات.. على أساس أن السلام فى مصر هو فى الكفاح المسلح ضد الاستعمار ، مع المطالبة بجيش شعبى ديمقراطى فى تحالف مع الشعب ضد الاستعمار عدونا الوحيد» إلى هنا ينتهى مقتطف من رصد كبرى الجرائد البريطانية لمجلة «الكاتب» والتى التزم «سعد» منذ عددها الأول بسياسة التمسك بالخط السياسى.. الذى يهدف إلى كسب التأييد لهذه القضية وحدها من كافة الاتجاهات السياسية الأخرى.. فلم تهاجم التنظيمات السياسية المختلفة ما دامت تدعو للسلام كما أفردت «الكاتب» أحد أعمدتها بشكل دائم تحت عنوان «كلمة الطليعة الوفدية» ... كما كانت تحيى أى بادرة متقدمة من جماعة الإخوان المسلمين.... ولكنها لم تهادن حكومة الوفد قبل إلغاء المعاهدة.. فكتب يوسف حلمى سلسلة مقالات يهاجم فيها

النحاس تحت عنوان « الرجل الجبار الذى يدخل القمقم». الكاتب عدد ٢٨ يوليو ١٩٥١ وكذلك مقال «النحاس باشا الذى نكب البلاد بمعاهدة الشرف والاستقلال» أول سبتمبر ١٩٥١ وكذلك هاجمت فؤاد سراج الدين واصفة إياه بأنه يعمل فى خدمة الاستعمار الأمريكى الجديد.

* * *

[١١]
١٩٥١عام الأحداث المهمة

فى عام ١٩٥١ كانت كل المؤشرات تشير أنه عام ملىء بالأحداث والمفاجآت.. لقد نبتت وازدهرت البذرة الأولى لحركة أنصار السلام وبسرعة غير متوقعة.. وهى التى تميزت بأنها حركة يسارية معارضة.. ولكنها علنية فى نشاطها.. والمنتمون لها شخصيات معروفة يعملون بصفة علنية. وكانت هيئات عديدة محلية وخارجية تتصل بهذه الحركة الفتية.. ومنها دعوات من السلك الدبلوماسى الأجنبى للمشاركة فى احتفالاتهم وأعيادهم القومية.. وكان «سعد» ويوسف حلمى حريصين على تلبية تلك الدعوات.. تدعيما لأواصر الصداقة مع مختلف دول العالم.... وكان من السفراء المميزين فى ذلك الوقت.. سفير المجر.. الذى نجح فى أن يبنى له فى مصر قاعدة عريضة من الأصدقاء والمحبين.... ومن نشاطاته الايجابية.. إقتراحه على الفنانين المصريين إقامة معرض يضم الرسومات والصور.. تحت عنوان «السلام والتحرر الوطنى».. وقد نجحت الفكرة وتحمس لها وشارك فيها عدد كبير من الفنانين التشكيليين.

شارك «سعد» فى الافتتاح الرسمى للمعرض.. ولم يكن يدرى أن القدر يخبئ له مفاجأة عاطفية فى وسط الدوامة السياسية التى يعيش فيها... فقد وقعت عيناه على فتاة من منظمات المعرض والتى تبدو شكلا أنها مجرية الأصل... اقترب منها وبدأ حديثه معها بالإنجليزية.. ولكنه فوجئ بأنها ترد عليه بالعربية بلكنة أجنبية.. مما جعله أكثر انجذابا إليها.. وخرج من هذا التعارف بأنها مصرية وتعمل فى السفارة المجرية.. واستمرا فى تبادل الحديث لمدة ليست طويلة.. ولكنها ذات تأثير عاطفى كبير على الطرفين.

لقد أصبح الطرفان فى انتظار اللقاء الثانى، وبات «سعد» فى ترقب لأى دعوة تصله من السفارة المجرية... وتحققت أمنيته فى حفل استقبال فى السفارة المجرية بمناسبة العيد القومى للمجر....

وكان الطرف الثانى ينتظر نفس الشيء ... وجلسا متقاربين وكل منهما يحاول أن يتجاذب أطراف الحديث مع الطرف الآخر... وكان لقاء ناجحا فقد تمت أولى خطوات التعارف وعرف سعد أنها... مارى روزنتال والدها مصرى يهودى الديانة.. وأصبح مسيحيا بعد زواجه من سيدة إيطالية مسيحية..... وزاد التقارب بينهما بوحدة الفكر اليسارى.. مما سهل تبادل أرقام التليفونات وقبولها الدعوة لحضور عرض سينمائى فى سينما مترو... وقد حضر العرض معهما يوسف حلمى الذى دعاهما إلى مشروبات خفيفة بالأمريكين... وبدأت الصداقة والتقارب يزدادان يوما بعد يوم.. وأصبحت مارى عنصرا أساسيا فى حياة «سعد» يتذكرها للمشاركة فى كل مناسبة ممكن أن تجمعهما سواء كانت سياسية أو فنية....

لقد شعرت مارى بنقلة نوعية مخالفة لما قبل لقائه.. فهى عضو فعال فى حركة «حدتو» (التنظيم الشيوعى: الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) وقد تم القبض عليها وتقديمها للمحاكمة.. وحكم عليها بالسجن لمدة عام قضته فى سجن مصر.. وبعد خروجها ولقائها مع «سعد».. وجدت العمل السياسى بأسلوب يختلف عن العمل السرى.. فمعه هناك مناقشات عامة وخاصة.. ولقاءات فنية وسياسية وثقافية.. مما جعل التقارب بينهما يزداد بسرعة.

إن إحساسه الغامر بالحب.. وحاجته الماسة لطرف آخر يشاركه النجاح والفشل.. لم ينسه أن يفكر فى مبادرة لتأسيس تنظيم سلامى يضم كل الفنانين المصريين.. فالفنان بطبعه يبدع ويتألق فى عالم تسوده المحبة والسلام...هذه الأفكار الثورية التقطتها الفنانة لولا صدقى وجعلتها حقيقة ملموسة.. بدعوتها للقاء كبير بمنزلها.. شارك فيه أكبر تجمع للفنانين المصريين من مختلف التخصصات.. من بينهم شعراء ورسامون وموسيقيون ونحاتون ومخرجون وممثلون سينمائيون ، لقد قامت لولا صدقى

بتمثيل أنبل دور فى حياتها.. وهو نشر السلام فى كل مكان. هاهو الفنان المصرى يعوض ما فاته.. ويحذو حذو أقرانه الفنانين فى ايطاليا وفرنسا وانجلترا وغيرها من دول العالم.. ليعلنوا للشعب المصرى ولشعوب العالم صوتهم.

لقد شارك فى ميلاد هذا التجمع الوطنى مجموعة متميزة وقعوا على محضر الجلسة التاريخية هم:

سينمائيون ومسرحيون: أحمد بدرخان - أحمد كامل مرسى- أمينة نور الدين- لولا صدقى - عبد القادر التلمسانى- لطفى نور الدين- مدحت عاصم.

شعراء: محمد كمال عبد الحليم- عبد الرحمن الشرقاوى - محمود توفيق - عبد المنعم المسعودى- ذكى مراد- فتحى خليل.

فنانون تشكيليون: إنجى افلاطون -جمال كامل- حسن التلمسانى- عبد السميع- إبراهيم مسعود- عبد الغنى أبو العينين - إبراهيم حسان- حسن فؤاد-جمال السجينى.

كتاب القصة: مختار العطار- يوسف إدريس- إبراهيم عبد الحليم- فوزى سرور.

صحفيون: صلاح حافظ- لطفى الخولى- على الدالى- يوسف حلمى- سعد كامل.

وبنظرة متفحصة لتلك الكتيبة نجدهم طليعة الفنانين والمبدعين خلال حقبة الخمسينيات والستينيات.. إنهم صفوة المثقفين المصريين.

لقد تم توقيع وثيقة الفنانين يوم ٧ أكتوبر١٩٥١.. وفى اليوم التالى مباشرة كان ٨ أكتوبر ١٩٥١.. وهو من الأيام الخالدة فى تاريخ مصر، لقد وقف النحاس يومها فى البرلمان وأعلن باسم الشعب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وقال كلمته المأثورة « من أجل مصر وقعت معاهدة ٣٦.. واليوم من أجل مصر أطالبكم بإلغاء معاهدة ٣٦».

ويشرح «سعد» تلك العبارة فى مجلة «الكاتب» قائلا : «إنها ذات مغزى عميق فالوفد الذى قاد الحركة الوطنية الديمقراطية منذ عام ١٩١٩متبنيا أسلوب الكفاح

السلمى المشروع ضد الاحتلال الإنجليزى.. والذى يعنى أن المفاوضات هى الوسيلة المثلى لتحقيق المكاسب الوطنية.. ولكن اليوم بانتهاج الوفد سياسة جديدة وإعلانه من جانب واحد إلغاء المعاهدة.. وحصوله على تأييد كامل من البرلمان.. بل ومن كافة القوى السياسية ، فإن هناك وفدا جديدا له من القدرات السياسية ما يلائم المرحلة الجديدة.. مرحلة الكفاح المسلح.. ورفض المفاوضات التى تجمع بينه وبين أعدائه...».

ويستطرد «سعد» فى مقاله فيقول:

«لقد أدت الحكومة واجبها والكلمة الآن للشعب».

«لقد أدى الوفد كحزب للكفاح الوطنى البرلمانى مهمته واستعمل وسيلته المشروعة.. وهى تقرير عدم شرعية وجود الاحتلال وشرعية كل ما يتخذه الشعب لمواجهة العدوان السافر».

واختتم مقاله بالقول: « لقد استجاب الوفد لحركة التاريخ بأن نقى نفسه فكان عمله تكثيفا لكل إيجابياته التاريخية......».

لقد تجلى التأييد الشعبى العارم لحكومة الوفد يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥١.. حيث تم تنظيم التظاهرة الكبرى.. التى شارك فيها أنصار السلام مع كل القوى الوطنية.. وكان فى طليعة المظاهرة مصطفى النحاس.. وبجواره على ماهر.. وسار فيها رجال الحكومة... والدين.. والقضاء.. والجامعة.. والعسكريين.. والمحامين.. والصحفيين.. والأطباء.. والمهندسين.. والمعلمين.. وسائر المهنيين.. كما حضرها ممثلون عن الدول والشعوب العربية.. وكان أغلب المشاركين فيها من العمال.. والحرفيين.. ومعهم الطليعة الوفدية.. كما كانت كتائب التحرير التى تكونت وقتها تقوم على حفظ الأمن والنظام على طول الطريق.. لقد قدر المراقبون عدد المشاركين فى هذه التظاهره بأكثر من ٢ مليون مواطن... كان يوما رائعا يؤكد الإجماع الشعبى!!

لقد علق «سعد» على هذا المشهد الوطنى الرائع فى مقال له تحت عنوان: «الزلزال» بقوله: «إن المستعمر سوف يغير خطته والتى تهدف إلى شق الصفوف التى خرجت اليوم متراصة متماسكة إلى أسلوب آخر هو «الزلزال» لتكسير هذا الإجماع القوى الذى لم تشهد البلاد مثله من قبل!!».

أما يوسف حلمى.. فقد وصف هذا اليوم وقال «إن ما يحدث هو ارتعاشة.. إنها ارتعاشة الحماس... قمة الإحساس بالوطن».

والغريب فى هذه المظاهرة الكبرى.. أنه لم يرتفع فيها صوت واحد بهتاف بل كانت هناك لافتات عديدة.. تم تقديرها بأكثر من ١٠ آلاف لافتة.. تحملها كل نوعية ممثلة فى التظاهرة.. وكتبت عليها شعارات عديدة من بينها (يسقط الدفاع المشترك) (الوساطة الأمريكية خدعة) (عمال القنال فداء للوطن) (الإفراج عن المسجونين السياسيين) (نؤيد إيران) (يسقط الاستعمار) (الموت للخونة).....

وفى الوقت نفسه تساقطت على المتظاهرين منشورات ثورية أغلبها من تنظيمات شيوعية...

لم يخف «سعد» قلقه من هذا النجاح الرائع.. فقال ليوسف حلمى قوله الذى كان يوسف يذكر «سعد» به دائما (إنه نجاح ينبئ بالفشل)!!

لقد استشعر سعد الخطر المحدق بهذه الهبة الثورية الوطنية.. من عشوائية الكفاح الشعبى دون وجود قيادة وطنية موحدة.. قادرة على تنظيم صفوف المناضلين الوطنيين لمكافحة الاستعمار.. والدخول فى معركة فاعلة أمام قوات المحتل بأسلوب منظم.. يمكن أن يحقق مكاسب حقيقية على أرض الواقع، إذ سيتجه الاستعمار إلى تحطيم هذه الهبة الثورية.

وقد كتب «سعد» سلسلة من المقالات يحذر فيها من هذه العشوائية واعتبرها نقطة الضعف التى سينجح الاستعمار من خلالها فى تحطيم الحركة الوطنية.

وطالب بتشكيل جبهة متحدة يختار لها قيادة حكيمة لتنظيم حركة المقاومة الشعبية.. سواء الجماهيرية أو التنظيم المسلح.

كما دعا لعقد مؤتمر يضم كل القوى الوطنية الشريفة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.. ينعقد فى القاهرة فى مطلع عام ١٩٥٢ لدعم المقاومة الشعبية المصرية.

كما اتخذت جريدة «الكاتب» خطا ثابتا فيما بعد إلغاء المعاهدة.. وهو الوقوف بشدة مع إطلاق الحريات.. وكشف وإحباط أى محاولة لإعلان الأحكام العرفية...

وإلغاء كافة القوانين الرجعية.. مع إحباط المؤامرات التى تحاك لإسقاط حكومة الوفد.. وإلغـاء قـانون حظر حـمل السـلاح.. وإلغـاء البـوليس السـيـاسـى.. وقطع المؤن عن معسكرات جيش الاحتلال.

كما طالب أيضا بعقد اتفاقية صداقة وعدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى.. والاعتراف بالصين الشعبية.. والدخول فى مفاوضات مع دول شرق أوروبا لشراء الأسلحة.. وأن يشترك الجيش المصرى فى طرد المستعمر.. مع تنظيم مقاطعة الإنجليز وحظر التعامل الاقتصادى والتجارى معهم.. حتى يتم الجلاء.. وكذلك قطع المياه العذبة والتموين والمواصلات عن معسكراتهم ومقاطعة الشعب لبضائعهم.

وفى أواخـر عـام ١٩٥١ انعـقـد مـؤتمر برلين للسـلام.. وشـارك فـيـه وفـد من الصـحـفيين والفنانين والكتاب المصريين.. من بينهم يوسف إدريس وحسن فؤاد وعبد الغنى أبو العينين.. وعرض «سعد» على مجلس السلام العالمى صورة كاملة عن كفاح الشعب المصرى ضد الاستعمار الإنجليزى.. وقوبلت كلمته بحماس شديد.. واكتسبت القضـيـة المصرية تأييد شعـوب العـالم.. وكـان من أهم القرارات التى صدرت عن المؤتمر.. إدانة الاستعمار البريطانى.. ودعم وتأييد الشعب المصرى فى كفاحه ونضاله من أجل التحرر.. ولقد لخص خالد محيى الدين فى كتابه «حركة السلام» الدور المؤثر الذى لعبته حركة أنصار السلام لدعم الكفاح المسلح بعد إلغاء المعاهدة بقوله: «وهكذا ومنذ اليوم الأول بدأ الامتزاج واضحا بين حركة السلام.. والحركة العارمة للنضال المعادى للاستـعـمـار فى بلادنا.. وامـتـزجت لجـان السـلام.. فـى نضـال مـشـتـرك مع الحركات واللجان الشعبية لمقاومة الاستعمار» وأضاف قائلا: «وفى الأيام المجيدة التى أعلن فيها شعبنا إلغاء معاهدة ١٩٣٦.. والتى انطلق فيها الفدائيون المصريون ليشنوا نضالا مسلحا ضد القاعدة الاستعمارية فى قناة السويس.. كان أنصار السلام وكانت مجلتهم «الكاتب» قوة رئيسية فى هذه المعركة... بل إن حركة السلام قد مثلت رسميا فى اللجنة التى تشكلت ضـمن الأحـزاب والقـوى الوطنيـة المخـتلفـة.. لقـيـادة وتنظيـم المعركة المسلحة».

واستطرد خالد محيى الدين قائلا : «وفى هذه الأيام أصبح أنصار السلام المصريون قوة حقيقية قادرة على العمل والتأثير.. وعلى أن تخوض معارك حقيقية ضد الأحلاف العسكرية لمنع المؤامرات الاستعمارية من جر بلادنا لمصيدة التكتلات الاستعمارية... وإذا كانت سنتا ١٩٥٠-١٩٥١ تتميزان باشتعال المعركة الوطنية إشتعالا لم يسبق له مثيل، وبانطلاق كل القوى المعادية للاستعمار فى معركة حاسمة.. فقد لعب أنصار السلام المصريون دورا مرموقا فى هذه المعركة، وبدا ثقلهم واضحا فى المؤتمرات والمظاهرات وفى المعارك المسلحة».

كان ينتاب «سعد» قلق كبير للعشوائية التى كانت تدار بها معركة الكفاح المسلح... صحيح ودون أدنى شك هناك خطوات مهمة تمت على أرض الواقع لعل أولها وأهمها انسحاب العمال المصريين من العمل فى معسكرات الإنجليز بالقناة.. وأصبح كل من يتعاون مع الاستعمار ينظر له كجاسوس وخائن للوطن.. ولكن على الجانب الآخر فإن البوليس السياسى ما زال متواجدا ويرصد ويراقب.. وأن دوره قادم لمواجهة هذه الهبة الوطنية العشوائية!!

وأثبتت الأيام صدق توقعات «سعد».. إذ استمرت المظاهرات بعد ذلك تشعلها حوادث القنال عند أى احتكاك عنيف يقع هناك مع الإنجليز... وارتفعت موجتها فى أواخر ديسمبر.. خاصة بين الطلبة مما أدى إلى تعطيل الدراسة فى الجامعات.. ووقوع اشتباكات مع البوليس.. وإشعال النار فى عربات الترام.. ورجم رجال البوليس بالطوب والزلط وكان الطلبة.. يتجمعون رغم إغلاق الجامعات.. كما انتقلت موجة المظاهرات إلى الأقاليم فضلا عن مدن القناة والعديد من المدن المصرية.. كالمنصورة وبنها والزقازيق وشبين الكوم.. وقد وقعت اشتباكات عنيفة بين الطلبة والبوليس وتعطلت الدراسة فى المدارس والجامعات.

لقد كان أول رد فعل للسراى على هذا التكتل الجماهيرى بزعامة الوفد.. بالتآمر عليها والسعى لإسقاطها وتصفية الحركة الشعبية.. والدليل على ذلك تعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى.. والمعروف باتجاهاته الرجعية وعلاقاته بالإنجليز.. مما

شـجع الدوائر الرجـعـيـة أن تزيد من نشـاطاتهـا.. وتقـوم بالعـديد من الاتصـالات والاجتماعات المكثفة...

بدأت الهـتـافـات فى المظاهرات تعلو بسـقـوط الملك.. وتنعـتـه هـو وعـائلتـه بأقـذع العبـارات.. كما توالى الـهجوم على إجـراءات الحكومـة والبـوليس السيـاسـى لمصادرة الصحف.. فقد تم فى أسبوع واحد مصادرة كل من صحيفة «الكاتب» و«الاشتراكية» و«صوت الأمة » و«الملايين»... مما يثبت أنه مخطط لكبح جماح الهبة الجماهيرية وذلك إلى جانب التصدى وقمع المظاهرات والتضييق على الحركات الشعبية...

فالوضـع القـائم جعل الملك يشـعر بحـاجـته للتعـاون مع الإنجليـز.. وكذلك حـاجة الإنجليز للتعاون مع الملك.

لقد كان الوضـع العام للبلاد يؤدى إلى الإحساس بالقلق.. فلا الحكومة قادرة على مواجهة الإنجليز.. ولا الملك يريد هذا.. بل كانت كل أمنيته التخلص من حكومة الوفد.

وطالب «سـعـد» فى مجلة «الكاتب» بتكوين جبـهة وطنيـة ديمقـراطيـة.. تضم كـافـة القوى الشعبية من الأحزاب والتنظيمات النقابية والمهنية... وقد استجاب لهذا الاقتراح الحـزب الاشـتـراكى.. والحـزب الـوطنى.. مع قـيـادات التنظيـمـات الشـيـوعـيـة المخـتـلفـة.. وكانوا جميعا متفقين على المبادئ الأساسية مع اختلافات فى التفاصيل.

وبدأت هذه التنظيمات فى تشكيل اللجان الوطنية فى الأحياء والمدن.. والتـأكيد على ضرورة وضـع برنامج مشترك للعمل السياسى بين هذه التنظيمات.. للعمل بكفاءة عالية فى صورة جبهة متحدة.

* * *

[١٢]

حريق فى المشروع الوطنى

الجمعة من كل أسبوع هو اليوم المهم لإصدار عدد جديد من مجلة «الكاتب»، إذ يتجمع فيه كل المساهمين فى التحرير والتنفيذ من كتاب وأدباء وفنانين.. الكل يعمل ويفكر لإنهاء إعداد كل المادة التى ستنشر فى العدد الجديد.. لتسليمها للمطبعة فى الموعد المحدد.. وجاءت الأخبار من مدينة الاسماعيلية تؤكد أن البريجادير اكسهام القائد البريطانى بمنطقة القنال.. قد استدعى ضابط الاتصال المصرى وقام بتسليمه إنذارًا بأنه تمت محاصرة مبنى محافظة الاسماعيلية.. والمطلوب أن تسلم جميع قوات البوليس بالاسماعيلية أسلحتها للقوات البريطانية.. وأن ترحل عن منطقة القنال كلها!!

وتوالت الأنباء تباعا بأن الجنود والمحافظة قد رفضوا الإنذار.. وأنهم سيقاومون إلى آخر جندى محاصر. كما وافق فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك على عدم التسليم.. ومقاومة أى اعتداء على المحافظة أو الثكنات.

واقترح «سعد» أن يكون مانشيت الكاتب هو «الفخ» وكتب فى افتتاحية العدد يقول: إنها المؤامرة للقضاء على المقاومة المصرية فهناك ١٢ ألف جندى بريطانى يحاصرون ٩٠٠ جندى من بلوكات النظام.. من بينهم ٩٠ جنديا مسلحا فقط بالبنادق.. والباقون سلاحهم هو العصى... إن الهدف كان واضحا، إنه كان يعنى مجزرة لتحطيم إرادة شعب مصر..... ووقعت الكارثة وخلال ساعات كانت المدافع الإنجليزية تحصد أرواح الجنود المحاصرين الذين لم يستسلموا.. بل قاوموا حتى نفدت آخر طلقة لديهم.. وقصف الإنجليز مبنى المحافظة على من فيه.. وسقط فى المجزرة خمسون شهيدا.. وأصيب ثمانون، وتم أسر من بقى على قيد الحياة وعددهم ٨٠٠ ضابط وجندى.

لقد وصلت رسالة الإنجليز إلى كل الشعب المصرى وأصيب كل المواطنين بالوجوم الشديد.. وشاع بينهم الإحساس بالألم والغضب والمهانة.

وفى صباح السبت ٢٦ يناير.. كان اللقاء لكل الأصدقاء والمهمومين بقضايا الوطن فى مكتب فتحى رضوان.. لتلقى آخر الأخبار وتحليلها سياسيا.... وكان أول رد فعل أن مجلس الوزراء قد اجتمع لقطع العلاقات مع بريطانيا.. وإصدار قانون يبيح حمل السلاح.

الشعور العام لكافة طوائف الشعب هو الإحباط.. وإحساس الموت أهون من تلك المذلة التى يعيشون فيها... وجاء فتحى رضوان من منزله وقال: إنه شاهد جنود بلوكات النظام بالعباسية قد خرجوا فى مظاهرة احتجاجا على مقتل زملائهم.. وأنهم يحملون البنادق متجهين إلى جامعة القاهرة.

والتحمت مظاهرات الطلبة بالجنود.. واتجهوا إلى مبنى رئاسة الحكومة بشارع قصر العينى.... وكانت المظاهرات تتجمع فى الشوارع وتتجمع أثناء سيرها.... وخرجت من الأزهر مظاهرة كبيرة.. اتجهت إلى ميدان عابدين.. وأصبحت كل الشوارع ممتلئة بالمتظاهرين والكل فى انتظار حل!!

ازدادت الأمور تدهوراً.. خاصة فى عدم وجود رجال أمن يضعون حدا لهذا الضياع.... الكل هائم على وجهه... هاجم المتظاهرون كازينو بديعة بميدان الأوبرا وأشعلوا النار فيه... ثم فى سينما ريفولى والمحلات التجارية بشارع فؤاد.. ولم تتدخل المطافئ لإخماد الحريق.

لقد عم الحزن والأسى كل المخلصين من أبناء هذا الوطن... فإن ما يجرى كان جريمة وخيانة مدبرة ولم يصدر أى رد فعل لإيقافه... ولقد ترددت الأقوال أن هناك عناصر تلقى بالمواد الحارقة وتتنقل على الأقدام أحيانا.. وبواسطة سيارة جيب أحيانا أخرى لتشعل النار طبقا لجدول عمل منظم... من سينما إلى فندق إلى مقهى إلى ملهى

ليلى.. وانتشرت الحرائق بوسط المدينة وامتدت إلى ملاهى أطراف المدينة فى شارع الهرم.....

لقد بلغت حصيلة هذا الخراب.. تدمير ٣٠٠ متجر منها محال تجارية كبرى كشيكوريل وشملا.. و٣٠ من إدارات الشركات الكبرى.. و١١٧ من الشقق السكنية ومكاتب الأعمال و ١٣ فندقا كبيرا منها شبرد والكونتننتال ومتروبوليتان، ٤٠ دار سينما و ٨ معارض سيارات، ١٠ متاجر للسلاح، ٧٣ مطعما ومقهى منها جروبى، ٩٢ حانة، ١٦ ناديا منها نادى «الترف كلوب» الذى قتل فيه ٩ بريطانيين.. وبنك باركليز الإنجليزى والذى احترق وبه ١٣ موظفا انجليزيا ومصريا.....

وبلغ عدد القتلى ٢٦ شخصا.. وعدد المصابين بالجروح والكسور أكثر من ٥٥٢ شخصا .

لقد عاش «سعد» مثله مثل بقية المصريين بعد هذا اليوم المشئوم.. فى مناقشات مستمرة لا تنتهى حول سؤال واحد... من الفاعل؟؟

كانت أصابع الاتهام.. تشير إلى أنها مؤامرة شارك فيها الملك والإنجليز.... فالإنجليز قاموا بتصعيد التوتر إلى أعلى حد... وانشغل الملك احتفالا بمولد ولى العهد بإقامة مأدبة غداء لحوالى ٦٠٠ من قادة الجيش المصرى... بدأوا يتوافدون فى الواحدة ظهرا، فى الوقت الذى كانت فيه حشود المتظاهرين تملأ ميادين وشوارع القاهرة منذ العاشرة صباحا.. والحرائق كانت تشتعل قبل ذلك الميعاد.

كان من المفترض - إذا لم يكن هناك تآمر- أن يلغى جلالته هذا الغداء.. حدادا على مقتل خمسين من جنود وضباط البوليس فى معركة كرامة بالإسماعيلية...

فهل يعقل أن يقام احتفال بمولد ابنه ولى العهد والبلاد كلها فى مأتم؟؟

وتوالت الأحداث السياسية.. ففى مساء نفس اليوم ٢٦ يناير قدم النحاس استقالة وزارته للملك ورفضها.. فاجتمع مجلس الوزراء وقرر إعلان الأحكام العرفية.. ووقف الدراسة فى الجامعات وكافة المعاهد والمدارس، كما أصدر قرارا عسكريا بمنع التجوال فى القاهرة ومدينة الجيزة من السادسة مساء إلى السادسة من صباح اليوم

التالى.. وقام بتعيين رقيب على كل الصحف، وأصدر قرارا بأن يكون مديرو المديريات حكاما عسكريين فى مناطقهم.... وصدر أمر عسكرى بمنع التجمهر.. واعتبر كل تجمع يضم أكثر من خمسة أشخاص مهدداً للسلم والنظام العام.. يعاقب من يشترك فيه بالحبس سنتين.. أو بالسجن خمس سنوات.. إن كان حاملاً سلاحا.

بعد أن أصدرت وزارة الوفد بنفسها كل هذه الإجراءات القمعية.. أصدر الملك قراره بإقالتها.. وبهذا استخدم الملك الوفد فى تصفية الحريات والحركات الشعبية ثم طرده.... وبذلك سبب حريق القاهرة أضرارًا بالغة لكل من الوفد والحركة الثورية بكافة تنظيماتها وتياراتها... إذ قلبت المائدة عليهم ومورست ضدهم إجراءات القمع والتصفية.

ونجح التآمر الملكى فى تصفية الهبَّة الشعبية وحزب الوفد بحجر واحد!!!

* * *

[١٣]
فـى معـتـقـل الهـايكسـتيب

كان شأنه شأن الآخرين المشتغلين بالعمل السياسى، جاءه مأمور قسم الدقى واصطحبه إلى سجن الأجانب حيث تم إيداعه، وهو السجن الذى سبق أن أقام به فى عام ١٩٤٦ أثناء تحقيقات قضية أمين عثمان.

إذن لقد نجحت مؤامرة القوى الرجعية لتصفية كل الجيوب الثورية، وحدث كل ما حذر «سعد» منه فى كتاباته... وفى ليلته الأولى استمرت أبواب الزنازين تفتح وتغلق دون انقطاع، مما يعنى أن الإيراد كان سخيا، أى زبائن جدد للسجن!!

وفى صباح اليوم التالى، فوجئ أن من بين المعتقلين فتحى رضوان، ويوسف حلمى، بخلاف الكثيرين الذين كان يعرفهم من مختلف الاتجاهات السياسية من الطليعة الوفدية، والوطنى، والشيوعيين، والاشتراكيين والذين دارت المناقشات بينهم حول السؤال الذى كان يطرح نفسه فى تلك الأيام: «من الجانى»؟ كانت مناقشات عميقة لأنها تدور بين سياسيين من مختلف الأجنحة السياسية، وكانت المحصلة أن الحكومة تصفى كل الحركات الثورية عامة، والحزب الاشتراكى بزعامة أحمد حسين بصفة خاصة.. حيث تشير المعلومات، وفق ما يرويه رجال البوليس السياسى، أن أحمد حسين وحزبه هم الذين أحرقوا القاهرة!

لقد تألم فتحى رضوان كثيرا عند سماعه أنهم يلصقون بأحمد حسين هذا الاتهام الشنيع، خاصة وأنه متأكد بأن أحمد حسين لا يقوم بمثل هذه الأعمال التخريبية، ولكن لتطرفه تم تحميله هذه التهمة الشنيعة.

ومضت الحياة فى السجن على وتيرة واحدة، والملل هو الطابع الغالب لتلك الفترة، والتى وصفها فتحى رضوان فى مذكراته «بأنها فترة رغم قبحها من حيث الظاهر،

ولكنها من أجمل فترات حياتنا... لقد أُرسلنا (سعد- يوسف حلمى- فتحى رضوان) إلى سجن الأجانب فعشنا فى زنازين متجاورة، وكنا نأكل من طعام واحد، إذ اتفقت عائلاتنا نحن الثلاثة على أن يتناوبوا فيما بينهم إرسال الطعام إلينا... وبقينا هكذا متجاورين متلازمين أربعة أشهر فى سجن الأجانب، ثم انتقلنا... أعنى نقلتنا الحكومة إلى معتقل الهايكستيب فى صحراء مصر الجديدة، وعلى مقربة من مطار القاهرة الدولى الآن... فعشنا فى حجرة واحدة، نأكل من طعام واحد، ونتنفس هواء واحدا، ويستيقظ الواحد منا على كلام أو مناقشة أو حركة الآخر.....».

ويستطرد فتحى رضوان واصفا تلك الشهور السبعة بقوله «لست أزعم أن أيامنا فى السجن أو الاعتقال خالية مما ينغص، فطبيعة حياة الاعتقال تؤدى وحدها إلى نفور زملاء الزنزانة من بعضهم البعض، وذلك لأن الاعتقال يثقل على نفس المعتقل، ويفسد أعصابه، فيصبح أسرع ما يكون للغضب، وأشد ميلا إلى توهم الإهانة وسوء الظن».

والشركة الإجبارية المفروضة على المعتقلين تصبح ولأنها مفروضة، كقيد الحديد الذى يربط الواحد منهم إلى الآخر، ولكن على الرغم من كل ذلك، كانت الأيام التى قضيتها مع سعد كامل ويوسف حلمى فى الاعتقال ممتعة... فقد أصبح من عادتنا أن نضحك على كل شىء وكل شخص. وأن نرسم لأنفسنا وللناس صورا كاريكاتورية، وأن نرى الحوادث، ونقرأ الجرائد ونعلق على ما يجرى داخل السجن وخارجه، بأسلوب الساخر الهازئ، ولم نكن فى هذا مفتعلين ولا متصنعين، فقد كان ضحكنا صادراً من قلوبنا، ولعل ذلك كان ثمرة اجتماعنا معا وزمالتنا فى العمل وتشابه أذواقنا، وتقارب مشاربنا فى الجملة.

ولقد كان الكثير من فكاهتنا يدور حول الطعام والملابسات المتصلة به، فمثلاً إذا وصل الطعام من منزل أحدنا وكان هزيلا، أخذ الزميلان الآخران فى السخرية منه، وكان كل منا يزعم أن فى مطبخ بيته طهاة يتخصص كل منهم لا فى فرع من الطعام، بل فى أجزاء الفروع فللأسماك طاه، وللمقليات آخر وللمشويات ثالث، وفى فرع الحلويات للكنافة واحد، وللكريم شانتيه ثان... ولأم على ثالث وهكذا، وحينما يهبط

الطعام عن أسوأ مستوى مألوف، نعلل هذه الحالة بحصول إضراب من موظفى المطبخ فى المنزل الذى أرسل الطعام».

ولما انتقلنا إلى الهايكستيب لعبنا سويا كرة القدم، وكان يوسف حلمى مشغولاً طوال النهار بإعداد حفل لذكرى سيد درويش، فكان منذ الصباح الباكر مع زملائه ومعاونيه منهمكًا فى إعداد الحفلة، يحفظهم الأدوار ويضبط الأصوات ويجرى «البروفات» وقد طال انتظارنا لهذه الحفلة، فلما أقيمت لم تستغرق سوى نصف ساعة أو يزيد على هذا بقليل، ولكنها كانت شيئا طريفا كسر الرتابة فى حياتنا.

ولما وصلنا إلى معتقل الهايكستيب اختار لنا زملاؤنا الذين سبقونا إليه حجرة، ما لبثت حتى تجملت وزينت بفضل السيدة سامية راشد، حرم يوسف حلمى، فقد أعدت للحجرة ستائر من (الكريتون) واشترت للمنضدة الموجودة فى الحجرة غطاء من المشمع ، وقد كانت الحجرة فى أول الأمر مليئة بأنواع الحلوى والمكسرات والمسليات الأخرى، كالفستق والفول السودانى المقشور، وكان زملاؤنا فى المعتقل يزوروننا فلا نبخل عليهم بتقديم ما جاد به علينا الأصدقاء والضيوف، ولكن هذه الحلويات بدأت تتناقص مع مرور الزمن، فكان ذلك التناقص موضوعا جديدا لفكاهاتنا وتعليقاتنا الضاحكة.

لقد وضعنا فى حجرتنا مروحة كهربائية، كنا نحسبها آية من آيات الصناعة الحديثة، فلما خرجنا من المعتقل أدركنا أنها أقرب ما تكون من الكراكة....

لقد نجح فتحى رضوان أن يلخص الجانب الإنسانى، ويعطى صورة واقعية لحياة زميلين معه فى المعتقل، الذى ضم كل الشخصيات المهمومة بالعمل الوطنى، والتى شاركت بجدية فى مقاومة المستعمر بعد إلغاء معاهدة ٣٦، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن كان فجر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو، حيث شعر المعتقلون بحركة غير عادية فى المعتقل، لقد ازدادت قوى الحراسة الداخلية والخارجية، وأصبحت فى حالة تأهب، وصدرت الأوامر للمعتقلين بعدم مغادرة العنابر. وفى الثامنة صباحا تم تجميع المعتقلين فى عنبر الطعام وحضر مأمور المعتقل ووقف على إحدى المناضد. واشرأبت

الأعناق، ودارت الهمسات بين المعتقلين، فمن قائل إنه سيتم توزيعهم على سجون ومعتقلات أخرى، ومن قائل إنه سيقرأ قرار الاتهام لهم كمحرضين لحريق القاهرة... وأخيرا نطق المأمور وكان فى حالة حيرة وقلق، وقال إنه يطلب من المعتقلين مساعدته!! فليس عنده أى أوامر جديدة، ولكن هناك جديد فى الأمر!! وأضاف بأن الجيش تحرك وحاصر قصر عابدين، وتقدم ببعض الطلبات إلى جلالة الملك، وقام أحد الضباط بإلقاء بيان فى الإذاعة، لخص فيه هدف تحرك الجيش... وليس عنده أى أخبار أخرى، سوى أنه بدون أى تعليمات رفع حالة الاستعداد فى المعتقل إلى حالة الاستعداد القصوى، وأن أى تجاوزات من جانبهم سيقابلها بعنف شديد.

عاد المعتقلون إلى عنابرهم، وعرفوا أن الذى ألقى بيان الجيش هو البكباشى أنور السادات الذى كان متهما فى قضية أمين عثمان ، فاتجهت كل الأنظار نحو «سعد»، إذ من المعروف أنه كان زميلاً للسادات فى تلك القضية، وقطعا إن (سعد) يعرف كل شىء، وأنه يعلم أسرار هذا التحرك العسكرى!!

قالوا له: صديقك من أبطال الانقلاب العسكرى، فما هو توقعك لمستقبل هذه الحركة ؟ وكان سعد متحفظا فى إجابته، فهو يعرف أنور السادات جيداً، ويعرف أنه فى الإمكان أن يشارك فى كل أنواع الانقلابات، وله صلات بالسراى والألمان والأمريكان، وهو على استعداد لأن يشارك فى كل أشكال التآمر والانقلابات العسكرية.

ولم تمض ساعات، حتى تم تجميع كل المعتقلين مرة ثانية، وتم إذاعة البيان الأول للثورة، الذى جاء فى مقدمته «من اللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة إلى الشعب المصرى ».

وبذلك أصبح من المؤكد أنه انقلاب ضد الملك، ذلك لأن محمد نجيب على رأس قائمة المعادين للملك، وقد بدا ذلك واضحا أثناء انتخابات نادى الضباط، وظهرت بعض الآراء تشرح وتبشر بأن الانقلاب فى صف المعتقلين وضد السراى والإنجليز، وبعض الآراء طالبت بالتريث فى الأحكام، إذ من الممكن حدوث مفاجآت، كأن يتحرك

الجيش الإنجليزى من الإسماعيلية !! وآخرون يقولون إن الحرس الملكى سيتدخل، خاصة وأن لديه كافة أنواع الأسلحة بل وأحدثها!!

وعند الحادية عشرة صباحا، وصل إلى المعتقل مندوب من وزارة الداخلية ومعه أمر بالإفراج عن كل من فتحى رضوان ويوسف حلمى... تنفيذا لحكم محكمة مجلس الدولة، فى القضية التى كانا قد رفعاها ضد الحكومة، وصدر الحكم لصالحهما منذ أكثر من شهر، ولكن لم يتم تنفيذه منذ صدوره... وخشى المسئولون فى وزارة الداخلية مساءلتهم بعد انقلاب فجر اليوم؛ لذلك سارعوا لتنفيذ الحكم !!

سادت حالة من الفرح والبشرى بين كافة المعتقلين – خاصة لدى «سعد» – رغم أن زميليه سيغادران ويتركان فراغا كبيرا.. ولكن لعله أول الغيث...

ثم توالت الأنباء.. استقالة وزارة الهلالى التى حلفت اليمين فى الساعة الخامسة مساء أمس فقط.. وقبول طلب الجيش وتعيين على ماهر رئيسا للوزراء.. وتعيين محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة مع ترقيته إلى رتبة «فريق» أى أن الملك وافق على طلبات الضباط.

كما طلب الجيش من على ماهر، الإفراج فورا عن كافة المعتقلين السياسيين وإغلاق المعتقلات...

لقد كانت الأخبار آنذاك تدور بين الإشاعة والحقيقة وأحيانا التمنى.. كل المعتقلين لا يعرفون تحت أى تصنيف من الاحتمالات الثلاثة يوضع الخبر الوارد إلى المعتقل...

وكانت أولى الحقائق عند الساعة الثانية والنصف ظهرا، حيث وصل إلى المعتقل ثلاثة لوارى مجهزة لنقل المعتقلين، وحضر مندوب الداخلية يحمل كشفا بأسماء مائة معتقل.. وعن طريق الميكروفون ينادى على المفرج عنه ليتوجه إلى صالة الطعام ومعه حاجياته، لتبدأ خطوات الإفراج... لم يرد اسم «سعد» فى القائمة الأولى... وهكذا الحال بالنسبة للقائمة التالية.. وبدأ «سعد» يقلق بأن يكون أحد من الضباط يعاديه وأمر باستمرار اعتقاله... واستمر القلق يساوره حتى اليوم التالى، إلى أن جاء الأمر

بالإفراج عنه، وعاد إلى المنزل واستقبلته الأسرة التى كانت فى انتظاره، إذ كان فتحى رضوان قد أكد لهم أنه سيتم الإفراج عنه فورا، ولا يحول دون ذلك سوى الإجراءات الروتينية.

اتصل «سعد» تليفونيا بخاله فتحى رضوان، ردت عليه زوجته وأخبرته بأنه تم استدعاؤه فى الإسكندرية، فطار إلى هناك على متن طائرة حربية.. وفيما بعد تبين أن الذى استدعاه هو سليمان حافظ، الذى لعب فى ذلك الوقت دورا مهما كمستشار لعلى ماهر رئيس الوزراء ولقيادة الثورة ولمحمد نجيب...

وكان دور فتحى رضوان المطلوب منه، هو تعريف الوزراء المدنيين بالضباط العسكريين الجدد، وفى نفس الوقت تعريف العسكريين بالمدنيين.

وفى لقاء «سعد» مع يوسف حلمى، كان الحديث ساخنا جدا، ويتأرجح ما بين التفاؤل الشديد، ثم ينخفض إلى حد التشاؤم المخيف... وهذا شىء طبيعى، فالأخبار والأحداث تتلاحق بشكل غير منتظر وغير متوقع... وكل التجمعات السياسية تحلم بأن حلمها قد تحقق، فالضباط يمثلون كافة الاتجاهات، دون أى رؤية واضحة للمستقبل.

* * *

[١٤]
انقلاب.... أم ثورة؟

السبت ٢٦ يوليو.. كانت المفاجأة غير المنتظرة بالمرة... إنذار الملك للرحيل.. المحروسة تغادر الإسكندرية حاملة الملك وولى العهد.. لا أحد يعرف ماذا يحمل له الغد؟

كافة التنظيمات السياسية ترى بأن حلمها قد تحقق..... فقيادة الضباط تمثل كافة القوى السياسية الموجودة فى الساحة... فالحزب الوطنى ظهرت الرؤية له باستدعاء فتحى رضوان، ووجود تقارب كبير بين الثوار والأجهزة المعاونة والحزب الوطنى... الشيوعيون أصبحوا وبدون سابق إنذار فى دائرة الضوء، فقد كان هناك أكثر من ضابط فى القيادة العامة، إلى جانب الدور الرئيسى الذى قام به البكباشى يوسف صديق وهو من حركة «حدتو»، فقد كان رأس الحربة يوم ٢٣ يوليو، واستولى على قيادة الجيش وكان السبب الأول لنجاح الثورة.

وهكذا الأخوان المسلمون، فقد وجدوا أن الثورة تسعى لكسبهم. السفير الأمريكى كان متواجدا خلال الفترة من ٢٣ - ٢٦ يوليو، ولعب دورا رئيسيا فى مغادرة فاروق للبلاد.

أصبحت الساحة السياسية متسعة لكل الاحتمالات، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار مرورا بكل الاتجاهات السياسية.

وعاد فتحى رضوان من الاسكندرية ووجده «سعد» أكثر حيوية، وله آمال وطموحات أكثر من ذى قبل... لكن لاحظ أنه أكثر تحفظا فى التعليق والحديث.... وكان أول طلب له هو عقد اللجنة العليا للحزب الوطنى؛ ليعرض عليها آخر ماعنده من أخبار واتصالات....

وفى الموعد المحدد انعقدت اللجنة العليا، ولم يتخلف أحد من أعضائها عن الحضور، فكل المصريين فى ذلك الوقت يريدون أن يجتمعوا ليسمعوا ويتكلموا ويعلقوا. فالأحداث كانت خطيرة وسريعة ومؤثرة...

رأس الاجتماع فتحى رضوان واستهله بشرح تفصيلى للأيام الحاسمة التى أمضاها فى الاسكندرية، والتغيرات التاريخية التى تمت....

ودافع عن وجهة نظره التى عرضها على الضباط، وتتلخص فى ضرورة التخلص من العهد البائد وعلى رأسه على ماهر، وأن يتولى الضباط الحكم بأنفسهم دون وساطة بينهم وبين الشعب، خاصة وأن لهم قبولا شعبيا منقطع النظير... فالذين نجحوا فى عزل الملك خلال ٤٨ ساعة، فى إمكانهم حل مشاكل مصر المستعصية، والتى مضى عليها عشرات السنين دون أى حل جذرى، كالاستقلال والتحرر الاقتصادى....

ودارت المناقشة وكانت الأغلبية مقتنعة أساسا بفتحى رضوان وبكل ما يقوله!! والأقلية أبدت تخوفها من أن الجيش إذا دخل ميدان السياسة سنفقد ما تحقق من ديمقراطية....

وانتقل بعد ذلك إلى مدح يوسف حلمى عن الفترة التى أمضياها سويا فى معتقل الهايكستيب، إلى جانب جهوده الملموسة فى رئاسة تحرير مجلة «اللواء الجديد»، وطالبه بأن يضع اليوم النقاط فوق الحروف، فهو يعمل فى حقل أنصار السلام، وصاحب صحيفة «الكاتب» - صوت أنصار السلام - وقد تم اعتقاله فى الفترة السابقة لأنه يسارى ومن أنصار السلام، وليس لأنه من الحزب الوطنى!!

كانت المفاجأة كبيرة «لسعد» وليوسف حلمى، فلم يكن على بالهما إثارة هذا الموضوع، وطلب يوسف حلمى الكلمة، وعلق على كلام فتحى رضوان شارحا بأن أنصار السلام ليست حزبا، وليس هناك تعارض بين أن يجمع بين عضويته للحزب

الوطني وحركة أنصار السلام، واستطرد يوسف حلمي قائلا: إنه إذا كان وجوده فى الحزب الوطنى يحول دون انطلاقه وتقدمه، فإنه يضع استقالته أمامهم من رئاسة تحرير مجلة اللواء، وكذلك من عضوية اللجنة العليا للحزب، واختتم كلمته متمنيا لهم كل توفيق ونجاح...

وعقب «سعد» على ما حدث بقوله: إذا كان يوسف حلمي صاحب جريدة «الكاتب»، فهو رئيس التحرير المسئول سياسيا وأدبيا عن سياسة المجلة، لذلك فإنه يطلب تجميد عضويته فى اللجنة العليا، وانسحب إثر ذلك من الاجتماع متضامنا مع يوسف حلمي... واستمر انعقاد الاجتماع بعد ذلك، وتم انتخاب أحمد شوقى المحامى وعضو اللجنة العليا للحزب الوطنى رئيسا لتحرير مجلة «اللواء الجديد»، خلفا ليوسف حلمي....

وكان السؤال الذى طرحاه «سعد» و«يوسف»: هل قام فتحى رضوان بالتخلص منهما استعدادا لدخول الحزب إلى دور جديد... بأن يكون الحزب مشاركا إيجابيا فى الحياة السياسية ؟

سؤال كان من الصعب وقتذاك الرد عليه!!!

لقد صدرت فى الأسابيع الأولى للثورة «مجلة التحرير» لتمثل حركة الجيش وفكر الضباط الأحرار، ورأس تحريرها الضابط الشيوعى اليوزباشى أحمد حمروش، واستعان بكوادر من الكتاب والفنانين الشيوعيين، وعلى رأسهم الفنان حسن فؤاد، وقد لاقت نجاحا جماهيريا واسعا، وأثبتت أن هناك تعطشا للفكر اليسارى، سواء للجماهير أو لضباط الثورة، مما شجع «سعد» و«يوسف» للعمل على إعادة إصدار مجلة «الكاتب» . ورأى سعد قبل الإصدار أن يتعرف على موقف الانقلاب العسكرى من الإصدار... فاتصل سعد بأنور السادات، وكان قد عين رقيبا عاما على الصحف، فوجد «سعد» من أنور السادات ترحيبا كبيرا لإصدار الكاتب، بل شجعه أنور السادات وأخبره أنه تسهيلا للأمور، سيتولى هو شخصيا أعمال الرقابة على المجلة، وأنه هو الذى سيراجعها بنفسه بمنزله بالمنيل، مساء اليوم السابق للصدور.

حمل سعد بروفات العدد الأول وتوجه إلى منزل أنور السادات، وفتحت له «جيهان» ورحبت به، وقامت بواجب الضيافة، ويقول «سعد» إنه وجد أن أنور السادات لم يختلف كثيرا عن أنور رفيق سجن الأجانب، وكان معه فى غاية التبسط والتقبل، ولم يعترض على أى سطر من العدد المجهز للطبع...

كانت هذه الجلسات التى يذهب فيها سعد ببروفات «الكاتب» لأنور السادات، جلسات نقاش وتبادل للأخبار، وحرص الطرفان على استمرارها فترة طويلة، كان «سعد» يخرج منها بمعرفة فكر الضباط، والسادات يتعرف بدوره على فكر اليسار المصرى.

* * *

وتزامن صدور قانون الإصلاح الزراعى مع إعادة تشكيل الوزارة برئاسة اللواء محمد نجيب، والذى يمكن تفسيره أنه بداية الطريق لإعلان أن الجيش قد بدأ فى تنفيذ خطة الاستيلاء على الحكم.

كان سليمان حافظ يمثل العقل المفكر والمنفذ لرغبات الجيش، وقد تم تعيينه نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية، وهو الذى قام بترشيح كل الوزراء المدنيين فى الوزارة لمعرفته كافة القوى السياسية، وهى الخبرة التى كان يفتقدها رجال الجيش، وقد ضمت الوزارة كلا من فتحى رضوان والدكتور نور الدين طراف وهما من الحزب الوطنى، وكذلك تم تمثيل الأخوان المسلمين بوزيرين هما أحمد حسن الباقورى وزيرا للأوقاف وأحمد حسنى وزيرا للعدل... وعاد التساؤل القديم.. هل كان إقصاء كل من يوسف حلمى وسعد كامل من اللجنة العليا للحزب الوطنى صدفة.. أم كان الأمر صفقة متبادلة بينه وبين سليمان حافظ.. ليدخل بمقتضاها الوزارة.. هو وعضو آخر باللجنة العليا مقابل التخلص من العناصر اليسارية فى الحزب؟؟

وتعتبر وزارة محمد نجيب هى أول وزارة تكنوقراطية، فرئيس الوزراء والوزراء لا يعملون وفقا لفكر سياسى محدد، لقد كانت الوزارة جهازا فنيا يتولى تنفيذ سياسة

رجال الجيش، خاصة وأنه تم تعيين جمال عبد الناصر مديرا لمكتب محمد نجيب رئيس الوزراء.

اتسمت تلك الفترة بسرعة الأحداث وتلاحقها، وكان الرأى العام يلهث وراءها... وصدرت أربعة أعداد من مجلة «الكاتب» غير أن الرأى العام كان غير مهيأ لأن تقوم بدورها الطليعى الذى أدته قبل يناير ١٩٥٢... وهكذا الحال بالنسبة لكل الصحف المعارضة التى لم تنجح فى قيادة الرأى العام، وذلك لعدم وضوح الرؤية والمبادرات السريعة الصادرة عن مجلس قيادة الثورة.

* * *

رغم تصاعد الأحداث السياسية، فقد كان «سعد» يفكر فى «مارى» وحاجته إلى عودة لقاءاته معها... كان يتمنى أن يلتقى بها دون موعد سابق.... ومرت الأسابيع بعد خروجه من المعتقل ولم يحدث ما يتمناه... ثم التقى صدفة بصديق قديم وهو «ألبير آربيه» وهو يعرفها، فهى زميلة له فى التنظيم الشيوعى، وعرف منه أنها تعمل سكرتيرة فى مكتب للاستيراد والتصدير بماسبيرو، وحصل على رقم تليفونها...

استجمع «سعد» كل ما يمتلك من شجاعة وثقة فى النفس وطلبها تليفونيا، وكانت هى على الطرف الآخر، كانت المكالمة دافئة جدا، فكأنما الطرف الثانى يشعر نفس الشعور، وتم الاتفاق على اللقاء مباشرة مع نهاية المكالمة. لقاء أمام مدخل العمارة التى تعمل بها، وكان لقاء حارا، وكل طرف عنده الكثير ليقوله وليتساءل عنه... تمشيا أكثر من ساعة على كورنيش النيل، ثم قام بتوصيلها لمنزلها القريب من محطة «الإسعاف»، على أمل لقاء قريب... ومنتظم.

كانت المقابلة التالية عند خالته «عزيزة»، وهى تعتبر صديقة «سعد» قبل أن تكون خالته، وكانت المقابلة دافئة جدا، فقد استقبلتها الخالة وكأن بينهما صداقة قديمة، وخرجت مارى من الزيارة وهى أكثر قربا والتصاقا «بسعد»، واكتشفت أن هناك الكثير من الأمور تجعلهما سويا، فهى وإن كانت مهتمة بالتحول الاشتراكى الذى

يجرى فى العالم عامة، وبالخطوات الأولى التى تسير بها مصر، فسعد قد قطع شوطا كبيرا فى هذا المجال... وهى تحب الفنون التشكيلية، فاكتشفت أن من أعز أصدقائه أشهر الفنانين المصريين.

إنهما يتفقان فى حب السينما والمسرح الذى ساهم فى تقريب المسافة بينهما، إذ كثر ترددهما على دور العرض السينمائى والمسرح والأوبرا.

وأخيرا الهدوء والترابط العائلى، وجدته فى صداقتها «بسعد»، والتى تتزايد يوما بعد يوم.

وقبلت مارى دعوة «طنط عزيزة» لحضور مأدبة غداء عائلية، تكريما لفتحى رضوان الذى أصبح أول وزير فى العائلة، وكانت فرصة لمارى للتعرف على كل أفراد العائلة، خاصة وأن كل الأفراد متفائلون بالإنجاز الذى حققه فتحى رضوان، والكل يشعر بأنه أصبح له «ظهر» بما فيهم «سعد» رغم عدم ارتياحه واقتناعه بدخول خاله الوزارة، ولكنه عاطفيا يشارك الجميع فرحتهم.

وقبل نهاية عام ١٩٥٢، طلب «سعد» من مارى أن يخطبها من والديها. وأخبرت مارى والدها الذى يعمل مهندسا كهربائيا فى الهيئة الأمريكية للأبحاث الطبية بالمناطق الحارة (النمرو)، وطلب من ابنته أن تترك له عرض الموضوع على والدتها، لكى يعمل على تذليل أية عقبات قد تبدو فى الطريق. وفعلا نجح الوالد فى إقناع الوالدة فى عدم رفض الطلب قبل أن تقابله وتناقشه.

وتمت المقابلة وقام والد مارى بدور المترجم.... فوالدة مارى ايطالية حتى النخاع، ورغم أنه مضى على وجودها فى مصر أكثر من عشرين عاما إلا أنها لا تجيد العربية، لذلك فلابد من وسيط ليترجم لها، وفعلا قام الأب بهذا الدور، مما جعله يتحكم فى المقابلة، ويترجم لها ما يرى أنه فى صالح استمرار العلاقة وتنميتها، واستبعاد ما يجعلها لا توافق على إتمام الزواج... وتصف «مارى» «سعد» فى ذلك اللقاء بأنه كان واثقا فى نفسه، وقدم نفسه بأنه محام وصحفى وقادر على تكوين أسرة، خاصة وأن دخله لا بأس به، إلى جانب أنه لم يعد صغيرا فى السن (٢٩)عاما......

وافقت أم مارى من حيث المبدأ، وانتقل الحديث إلى البند الثانى وهو الأهم، وهى عقبة اختلاف الأديان... ورغم أن سعد وافق على أن يحافظ كل منهما على ديانته، خاصة وأن الدين الاسلامى لا يمانع فى زواج المسلم من المسيحية، ولكنها طلبت موافقة الكنيسة على هذا الزواج!!

وفى اليوم التالى بدآ فى تحقيق رغبة الأم، وذهبا معا إلى كنيسة «الكرمل» وقابلا راعى الكنيسة، وهو المسئول الروحى لأسرة مارى، وكان رده بأنه لا يستطيع أن يوافق على هذا الزواج، بل لابد من أخذ رأى بابا الفاتيكان!!!

فذهبا إلى كنيسة «سان جوزيف» بشارع عماد الدين... وقابلا راعى الكنيسة... الذى أعلن رفضه لذلك، وأن الموضوع غير قابل للمناقشة!!! فأعلنا له إنهما سيتزوجان.. سيتزوجان..«إننا نريد فقط حلا يرضى كل الأطراف» ... تراجع القس وطلب منهما أن ينتظرا حوالى شهر أو شهرين، حتى يرسل لبابا الفاتيكان طالبا رأيه فى تلك المشكلة!!

فرحت والدة مارى بالخطوات التى اتخذوها، ووافقت على إعلان خطوبتهما.. وتم ميلاد كيان جديد اسمه «سعد ومارى»، واعترف أصدقاء وأهل مارى وسعد بهذا الكيان، والكل يدعوهما إلى حفلاتهم وسهراتهم، وكان الكريسماس هو أول حفل كبير ضم أصدقاء وأقارب عائلة مارى. لقد نجح «سعد» فى أن يتأقلم مع الأصدقاء الإيطاليين، وأن يشاركهم «الديك الرومى»، ويحتفل معهم بأعيادهم.... وبالمثل جاء العيد الكبير (عيد الأضحى) وكانت مارى فى الصباح بمنزل «سعد»، تأكل مع أسرته لحم «رقبة الخروف» وتستطعم «الفتة»، وتعود إلى منزل والديها حاملة لجزء من لحم خروف العيد.

وهكذا أصبحا متلازمين، سواء فى حى بولاق أبو العلا، حيث يقيم أهلها وأصدقاؤها، أو فى حى الدقى مع أهل وأصدقاء «سعد»، أو حدائق القبة مع «طنط عزيزة».

وهكذا انتهى عام ١٩٥٢ الذى كانت بدايته المعتقل، ثم الانقلاب العسكرى، وبداية التعايش مع الثورة، غير أن الرؤية لم تكن واضحة، كان البعض يرى أنها ثورة وطنية وسوف تحقق الكثير لمصر، وآخرون كانوا يرون أنه انقلاب عسكرى أمريكى، سينتهى إلى الانضمام إلى حلف بغداد. لم يكن هناك شىء أكيد... كلها شواهد، والجميع يتأرجح فى اليوم الواحد ما بين إننا مقبلون على مجتمع سياسى ديمقراطى، وما بين نظام عسكرى سينفرد بالرأى، وسيفتح أبواب السجون والمعتقلات لكل من يقف فى طريقه.

الكل يفسر ولكن لا أحد يستطيع أن يجيب.

والكل كان يأمل أن تتضح الرؤية مع بدايات العام الجديد عام ١٩٥٣.

* * *

الفصل الرابع
نحو جبهة وطنية ديمقراطية

[١٥]
١٩٥٣ بين الحب والسياسة

بدأ عام ١٩٥٣ وكان الجميع يرجون بأن يكون عامًا أكثر هناء واستقرارًا، و«سعد» شأنه شأن الآخرين كان يحلم أيضًا بعش الزوجية، لقد تلقى مكالمة من مارى تطلب مقابلته أمام باب عمارة المكتب الذى تعمل به، وجاءت وصعدا إلى الدور الثالث وفتحت شقة بمفتاح معها وطالبته بأن يقول رأيه فيها، إنها متسعة فاخرة وعلى أعلى مستوى من الذوق والتصميم، ويكفى أنها تطل على نهر النيل، وإيجارها ١٢ جنيها شهريا!!! إنها هدية الزفاف من مديرها صاحب العمارة، مساهمة منه فى تأثيث عش الزوجية.

ووقفا فى الشرفة يتأملان النيل البديع ويحلمان بالمستقبل المشرق، إن الحياة تبدو جميلة والبداية أكثر من رائعة.

ولكن لأنه دائما «لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن» فقد أبلغ بقرار مصادرة ترخيص «مجلة الكاتب» ومنع صدورها، كما تم التضييق ومصادرة باقى صحف الرأى، وحتى «مجلة التحرير» والتى تعتبر الناطقة باسم الجيش، فقد تم استبعاد أحمد حمروش وتعيين ثروت عكاشة بدلا منه. وبدأ صلاح سالم وزير الإرشاد القومى فى تضييق الخناق عليها، إلى أن نجح فى التخلص منها نهائيا فى منتصف عام ١٩٥٣.

وما أن انتصف شهر يناير، وتحديداً فى ١٧ يناير ١٩٥٣، أعلن مجلس قيادة الثورة قرارا بحل كافة الأحزاب السياسية وإعلان قيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات، يتم خلالها الإعداد لإقامة حكم ديمقراطى سليم. لقد شمل القرار كل الأحزاب

الموجودة آنذاك بالساحة، وتم استثناء جماعة الأخوان المسلمين من هذا القرار.

كما تم القبض على يوسف حلمي وأرسل إلى معتقل الطور مع قيادات الأحزاب المنحلة، مما يعنى ضرورة أن يكون أكثر حذرا.

وشهد يناير أيضا بداية الانقسام والخلاف بين أعضاء مجلس قيادة الثورة، وظهور قوى معارضة فى سلاح المدفعية برئاسة رشاد مهنا، تطالب بإعادة تشكيل مجلس قيادة الثورة بالانتخاب. واتسعت الحركة لتضم ضباطا من سلاح الفرسان برئاسة البكباشى على النكلاوى، ومن سلاح المشاة برئاسة البكباشى حسنى الدمنهورى صحيح أنهم لم يكونوا من الضباط الأحرار، ولكنهم بحكم أقدميتهم فى الجيش إعتبروا أنفسهم أحق من غيرهم فى هذه القيادة. وتقدموا إلى مجلس قيادة الثورة بمذكرة يطلبون منه ذلك غير أن مجلس قيادة الثورة قرر رفض المذكرة، بل وتقديمهم لمحاكمة عاجلة سرعان ما أدانتهم، وأصدرت ضدهم أحكاما رادعة بالسجن.

وهكذا أصبح المناخ العام أكثر توترا، بعد أن تم إغلاق كل نوافذ الديمقراطية ممثلة فى الأحزاب والصحف، أو أية تجمعات مدنية.

خلال هذه الفترة توثقت عرى صداقة «سعد» مع زكى مراد- المحامى- وأحد قيادات حركة «حدتو» والذى اقترب منه كثيرا أثناء تواجدهما فى معتقل هايكستيب، وقد تقاربت لقاءاتهما نظرا لتقارب مسكنيهما فى الدقى، وأصبحت هذه اللقاءات هى النافذة الديمقراطية الوحيدة التى تشعره بالنبض الحقيقى لليسار المصرى. ومن خلال هذه اللقاءات كانت تتم مناقشة كافة الموضوعات السياسية الساخنة وعلى رأسها موقف «حدتو» من حركة الجيش، والتى أعلنت تأييدها واعتبرتها حركة وطنية ديمقراطية، خاصة وأنه يمثلها داخل مجلس قيادة الثورة كل من يوسف صديق وخالد محيى الدين إلى جانب أحمد حمروش رئيس تحرير مجلة التحرير. غير أن الواقع أثبت عكس ذلك إذ تمت محاصرتهم جميعا وعزلهم عن المشاركة الإيجابية. بل وصل الأمر إلى محاربة حتى المتعاطفين مع اليسار، وبدا ذلك واضحا بإلقاء القبض على الدكتور إبراهيم رشاد (باشا)، والذى كان من الأسماء الشريفة التى لها كل الاحترام

داخليا وخارجيا وهو من قيادات الحركة التعاونية المصرية، ونجح فى دعمها إلى أن أصبح لها ثقلها فى الاقتصاد المصرى ومن أول المطالبين بإقامة مزارع تعاونية جماعية على الأرض المستصلحة، بدلا من تقسيمها وتوزيعها على مساحات صغيرة، وكان قد تقدم بمشروعه هذا قبل الثورة للبرلمان الذى رفضه، غير أنه أصبح مشهورا بميوله الليبرالية ورحب بالانضمام لحركة أنصار السلام عندما عرض عليه «سعد» ذلك، وكثيرا ما كان يدعم مجلة «الكاتب» وينقذها من عثراتها المالية وهى عديدة وتم انتخابه رئيسا للجنة الوطنية لأنصار السلام، واعتبر هذا الاختيار موفقا لما عرف عنه من سمعة طيبة إلى جانب كبر سنه (٧٠عاما)، مما شجع غيره من أصحاب الفكر الليبرالى على الانضمام لحركة أنصار السلام قبل الثورة.

ولكن بعد مرور عام من الثورة وانتهاجها سياسة معادية، بدأ التحرش به وتجريحه وإهانته ليبتعد عن دعم ورئاسة اللجنة الوطنية لأنصار السلام. وتم انتهاز فرصة القبض علي بعض الطلبة فى مدينة شبين الكوم بتهمة توزيع منشورات باسم حركة أنصار السلام، فأرسلت نيابة شبين الكوم تستدعيه لسماع أقواله، ولمزيد من إهانته تم استدعاؤه بقسم بوليس كوبرى الجلاء فذهب بسيارته بقيادة سائقه، ودخل ليستفسر عما هو مطلوب منه، فعومل معاملة قاسية وغير إنسانية وتم إرساله مكبلا بالكلبشات إلى محطة مصر، حيث وضع تحت الحراسة المشددة فى إحدى عربات الدرجة الثالثة بالقطار المتجه إلى شبين الكوم، بعد أن رفض البوليس أن يستخدم سيارته الخاصة فى التوجه إلى هناك... وبعد أن تأكدت الحكومة أن الرسالة وصلت إلى الدكتور رشاد تم الإفراج عنه.

ونجح سعد فى تسريب خبر القبض علي إبراهيم رشاد وإهانته إلى العديد من وكالات الأنباء العالمية، مستعينا بصداقته بسفير المجر، وقد تم نشر الخبر فى أماكن بارزة بكافة الصحف العالمية، سواء بالمعسكر الشرقى أو الغربى.كبارقة أمل فى أن تخف حدة المطاردة للأصدقاء والزملاء. وتم الإفراج عن يوسف حلمى.

اتصلت السيدة سيزا نبراوى «بسعد» تليفونيا، وأخبرته بأنها تلقت دعوة من الاتحاد النسائى العالمى لحضور مؤتمر كوبنهاجن، وتطلب مقابلته للتشاور معه حول تشكيل الوفد المرافق لها.

ولم يكن «سعد» يستطيع أن يرفض طلبًا من سيزا نبراوى وهى السيدة الفاضلة التى شاركت فى ثورة ١٩، وتعتبر كابنة هدى شعراوى وشاركت إيجابيًا فى تحرير المرأة وتعليم الفتاة ودخولها الجامعة... وكان قد عرض عليها «سعد» عند تأسيس اللجنة التحضيرية لأنصار السلام المشاركة فيها فلم تتردد، وكانت عضوًا عاملاً وفاعلاً فى كافة الاجتماعات وتعمل بكل إخلاص من أجل نشر السلام محليا وعالميا... وقد اختارها مجلس السلام العالمى عضوًا ممثلاً لمصر إلى جانب انها أختيرت عضوًا فى الاتحاد النسائى الدولى، حتى أصبحت وكيل الاتحاد النسائى الدولى.

ذهب «سعد» لمقابلة سيزا نبراوى فى منزلها الفاخر بجاردن سيتى، وكانت ترافقه مارى لتخصصها فى النشاط النسائى محليا وعالميا....

رحبت سيزا نبراوى بهما وعرضت مشكلتها، لأن هذه هى المرة الأولى التى تسافر لحضور مؤتمر دولى بعد الثورة، وتريد التشاور معهما فى شأن تشكيل الوفد، وفى الإجراءات المطلوب تنفيذها لأخذ موافقة الجيش، وكلها أمور جديدة عليها لا تعرف أسلوب العمل بها...

واقترحت مارى أن تشارك فى الوفد عزيزة رضوان، وهى شقيقة فتحى رضوان، لأسباب عديدة من بينها، إنها ممتلئة حماسًا ووطنية، وهى وجه مشرف، إلى جانب أنها شقيقة فتحى رضوان ولها فى نفسه مكانة خاصة، مما قد يسهل إجراءات سفر الوفد دون أى اعتراضات من الجيش...

لقى الاقتراح كل ترحيب من الحاضرين، وتقدم «سعد» باقتراح آخر بأن تشارك فى الوفد «رضا»، وهى زوجة الفنان حسن فؤاد، وهى إنسانة فاضلة وفى الإمكان أن ينفتح أمامها الطريق، لتصبح ايجابية بعد دعوتها إلى التنظيم النسائى المصرى... إلى جانب أن زوجها حسن فؤاد له صلات قوية ببعض الضباط، بعد أن تعرف عليهم أثناء

عمله فى إصدار مجلة التحرير، كما اقترحت سيزا نبراوى اسم حنفى الشريف كشخصية سياسية مبشرة من خلال عمله معها فى التنظيم النسائى المصرى، كما أنه كان فى حزب الوفد وله اتصالات مع العديد من قياداته.. وتم وضع خطة العمل وتوزيع المسئوليات، على أن يكون الوفد فى كوبنهاجن خلال أسبوعين، واتصلت مارى بعزيزة رضوان التى رحبت بالفكرة ونجحت اتصالاتها وأخبرت شقيقها فتحى رضوان، الذى عرض الموضوع على زكريا محيى الدين، الذى قام بدوره بتذليل كل العقبات أمام وفد الاتحاد النسائى، وتمت كل الإجراءات فى موعدها وسافر الوفد، وقد قوبل فى حفل الافتتاح بترحاب شديد، لكونه أول وفد نسائى مصرى يشارك بعد الانقلاب العسكرى.. وأشارت سيزا نبراوى فى كلمتها، إلى أن المرأة المصرية تكافح اليوم للحصول على حق التصويت والترشيح للمجالس النيابية، وإنها فى سبيلها لتحصل على الكثير من المكاسب والحقوق.

* * *

ومازال السؤال قائما، حول السبيل لإيقاف الزحف المتقدم بانتظام وبخطوات ثابتة، لإنهاء أى تجمعات مدنية.

كانت مارى كزميلة وزوجة المستقبل، ترى أن دعم التنظيم السرى يفتح الطريق أمام المقاومة الشعبية، بينما يوسف حلمى كان يرى أن السياسة هى فن الممكن وأن الممكن اليوم هو بقايا الأحزاب التى تم حلها، وتنظيم شيوعى تمرس على العمل السرى، وكوادر قادرة على العمل تحت الأرض وتحريك الجماهير، ولا بد من العمل على ضم العناصر النشطة فى الأحزاب إلى التنظيم السرى. وكان «سعد» يرى صعوبة تنفيذها ذلك، لأن كوادر الأحزاب متمرسة على العمل العلنى، ومن الصعب تطويعها للعمل السرى. واقترح تعديل الفكرة، وأن تصبح «تحالف الكم مع الكيف»، فلدى الأحزاب أعداد كبيرة من الجماهير القادرة على العمل العلنى، بينما لدى الحزب الشيوعى أعداد محدودة، ولكنها كوادر متمرسة قادرة على العمل السرى، فاتحادهما

فى العمل مع احتفاظ كل طرف بأفكاره ومبادئه، سيدعم المقاومة ويزيد تأثيرها.

وجدت الفكرة قبولا وتحمس لها زكى مراد، وأطلق عليها اسم «الجبهة الديمقراطية المتحدة»، وطالب بعرض الأمر على اللجنة المركزية «لحدتو». ووافق «سعد» أن يصبح عضوا عاملا بحدتو بتزكية من زكى مراد ومارى. ووافقت اللجنة المركزية فى «حدتو» على قبوله عضوا، وكذلك الموافقة من حيث المبدأ على مشروع الجبهة وتم تحديد موعد لمناقشة الاقتراح وبحضور كمال عبد الحليم المفوض السياسى عن اللجنة المركزية. وقد اقترح بأن تكون الجبهة المقترحة على مستويين.. أولهما جبهة تضم كافة التنظيمات الشيوعية، والأخرى جبهة تضم كل أفراد الأحزاب المنحلة، وطالب «سعد» بأن تكون جبهة واحدة عريضة تضم كل المواطنين، سواء كانوا من بين الأفراد أو الأحزاب المنحلة حتى ولو كان الاتفاق على أمر واحد فقط وليس بالضرورة على كل البرامج، والعمل على استبعاد أكبر قدر من نقاط الاختلاف.

لقد بدأت القيادات الوفدية التنسيق مع التنظيمات الشيوعية، خاصة بعد أن تم تشكيل محكمة الثورة واعتقال العديد من الشخصيات الوفدية. وقد كان من المتحمسين لنجاح الجبهة كل من الوزيرين الوفديين إبراهيم فرج وسليمان غانم، وكان النحاس موافقا من الناحية السياسية وأظهر عطفه على هذا الاتجاه.

لقد أصبح هناك رأى عام واسع بين الوفديين من الشباب والكبار واستعدادهم للتحالف لتحقيق أهداف الجبهة.

كما تم الاتفاق على إصدار نشرة تحت اسم «الجبهة» لحصر أخبار العمل الجبهوى، وقد تم إسناد رئاسة تحريرها إلى «سعد»، وتقوم مارى بحلقة الوصل بين التنظيم الفنى (المطبعة) لحدتو و«سعد».

وأثناء تلك الفترة إلتقى «سعد» بالدكتور شريف حتاتة.... الذى كان فى ضيافة زكى مراد، كان يرتدى الملابس الريفية فقد كان يقوم بعمل مسئول «حدتو» لتنظيم الفلاحين بالوجه البحرى، ومقره مدينة طنطا...

[١٦]
مهرجان الشباب العالمى

لقد أصبح الجو العام متوتراً... وأصبحت الحكومة فى حالة تحفز ضد تشكيل جبهة من القوى المضادة للثورة، فأودعت فى المعتقلات كافة ألوان الطيف السياسى، سواء من الليبراليين كإحسان عبد القدوس أو بالشيوعيين أو الاشتراكيين أو الوفديين، وحتى العديد من ضباط الجيش تم القبض عليهم ومحاكمتهم تحت اسم قضية المدفعية، كل هذا جعل «سعد» لا يقيم فى منزل العائلة بالدقى، ويقيم عند خالته عزيزة رضوان بحدائق القبة، التى قد يكون لديها بعض الحماية كونها شقيقة فتحى رضوان الوزير بحكومة الثورة.

وفى صباح أحد الأيام جاءت مارى لزيارته فجأة ودون سابق اتصال، وعرف أنها التقت والسفير المجرى بناء على طلب منه، وأفادها أن المطلوب هو مقابلة الملحق الثقافى الرومانى، على أن تكون المقابلة دون علم السلطات المصرية، وحدد اللقاء فى بهو أحد الفنادق الكبرى بمصر الجديدة ، وعلى ذلك ذهبا معا «سعد» ومارى إلى الفندق وأفادهم أحد موظفى الفندق أن الملحق الثقافى الرومانى فى انتظارهما بحجرته بالدور الثالث، حيث قابلهما بترحاب كبير وأخبرهما بأنه يقيم بالفندق للإعداد لحفل رسمى يضم مسئولين من الحكومة المصرية. وأفادهما أن رومانيا تعد لاستضافة «العيد العالمى للشباب» فى بوخارست فى الفترة ما بين ١٠- ٢٠ أغسطس ١٩٥٣، ويشارك فيه ممثلو أكثر من ٣٠ دولة، وخاصة ممثلى الدول الأفريقية التى تسعى إلى الاستقلال، ومنها مصر والسودان والجزائر وغيرها... وهى تظاهرة سياسية ثقافية رياضية.

وأضاف بأن كل الإمكانيات المطلوبة سيمكن توفيرها ولأى عدد للمشاركين فى الوفد، مما يجعل فى الإمكان دعوة أكبر عدد من المشاركين، وأنه قد تم تخصيص باخرة لنقل وفود دول الشمال الأفريقى...

وأن كافة المصروفات اللازمة للإقامة والتنقلات والإعاشة، تتحملها منظمة الشباب الرومانى.

وبعد أن انتهى اللقاء أحس «سعد» أن مهمة إعداد الوفد ليست مهمة هينة، ولكنها فرصة لفتح قنوات اتصال مع الشباب، وأنها وسيلة لدعم تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية.

كانت مارى سعيدة بهذا التكليف، خاصة وأنها تثق فى إمكانية أن يذلل «سعد» عقبة تشكيل وفد سياسى فنى رياضى لاتصالاته الواسعة والمتعددة.

وعند محطة المترو بمصر الجديدة وبالصدفة، تتوقف سيارة «فولكس فاجن» أمامهما، وهناك من يصيح عليه بصوت عال «ياسعد... ياسعد» إنه مصطفى كمال صدقى... الضابط السابق بالجيش والمفصول من تشكيل الضباط الأحرار لتهوره الشديد... عرض عليهما «توصيلة مجانية» الى أى مكان يتجهان إليه... لم يكن «سعد» سعيداً بهذا اللقاء، فمصطفى صدقى شخصية مغامرة ويعمل فى التنظيمات السرية منذ الأربعينيات، وكان على علاقة متينة مع يوسف رشاد الطبيب الخاص للملك، وقد نفذ العديد من المغامرات السياسية، وأنه يعمل فى السياسة دون عقيدة سياسية، لذلك استخدمه الملك فى ضرب أعدائه وعلى رأسهم النحاس. وقد قبض عليه ذات مرة وهو يقود سيارة جيب محملة بالأسلحة والمفرقعات، وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن، ولكن تم الإفراج عنه بعد ذلك فى ظروف غامضة، بل وواصل عمله فى الجيش!!

وعندما قامت الثورة تم استبعاده من كافة التكليفات، وكذلك من خدمة الجيش، مما جعله شديد الحقد على الثورة وكافة الضباط الأحرار....

كان اللقاء الحار الذى قابلهما به مصطفى صدقى.. وقد وضع «سعد» فى موقف حرج ولا يدرى كيف يمكنه التخلص منه، كما عرض عليهما أن يستضيفهما بمنزله بالزمالك، خاصة وأن زوجته ستسعد بلقائهما.

كانت مارى مرحبة بالدعوة فوافق «سعد»، على أساس أن يقتصر لقاء اليوم على التعارف، ويمكن تحديد موعد للعشاء فى مرة ثانية.

توقف مصطفى صدقى أمام إحدى العمارات الفخمة بالزمالك واصطحبهما إلى شقة زوجته... وكانت المفاجأة أن المضيفة أو زوجة مصطفى صدقى هى الفنانة تحية كاريوكا، راقصة مصر الأولى!!

ورغم أن اللقاء كان مصادفة، ولكنه كان حاراً وحميماً جداً...

إذ تتميز تحية أنها ذات شخصية مميزة وحضور قوى. تريد أن تتعلم... وأن تعلم... دون إقحام نفسها فيما لا تعرف، وهى ذات شخصية مرحة وبسيطة، تضفى على الجلسة روح البهجة والمرح. تدخل المطبخ لتعد بعض الأصناف الخفيفة للضيوف، فتجدها سيدة منزل كأنها لم تغادره أبدا، مضيافة.. كريمة بنفس رحبة وشعور بحب حقيقى للناس، دون أى افتعال أو تكلف، تجلس معها تشعر كأنك صديق لها منذ زمن بعيد. لقد تخلص «سعد» من تحفظه وانطلق يتكلم ويناقش، إلى حد أنه أخبرها بأنه يعد لمؤتمر الشباب العالمى ببوخارست، وأنه عليه تكوين ثلاث مجموعات: رياضية.. فنية... سياسية، وأخذ يستعرض الأسماء التى وردت على فكره، وكانت مفاجأة بالنسبة له، إنها طلبت المشاركة فى المجموعة الفنية، وإنها مستعدة أن تذهب إلى بوخارست وأن تتولى تقديم فقرة فنية ممتازة تليق بمكانة مصر. لم يصدق «سعد» ما يسمعه، فبعد أن كان يحمل هموم الدنيا كلها، ولا يعرف كيف سيتعامل مع المهمة الموكولة له، كان لتشجيع تحية كاريوكا أكبر الأثر فى رفع روحه المعنوية.

وبعد أن عاد إلى المنزل إنفرد «سعد» بنفسه، وأخذ يفكر وبعمق وتساءل: هل اختيار تحية كاريوكا لرئاسة الوفد الفنى يعتبر نجاحا أم فشلاً؟. إذ مازالت كلمة راقصة لا تلقى الاحترام الاجتماعى بين مختلف طبقات الشعب... وهل تنجح تحية كاريوكا فى تجاوز ذلك الأمر بما تملكه من مواهب فطرية، سواء فنية أو ثقافية أو اجتماعية؟

ثم انتقل تفكيره إلى وفدى المجموعتين الآخرين.. المجموعة السياسية والمجموعة الرياضية... فبالنسبة للسياسية فالمطلوب أن يرأس الوفد شاب واع متفهم، وعلى اقتناع بتشكيل الجبهة وأهدافها، وقد وافقه على هذا المفهوم يوسف حلمي، واقترح عليه أبو بكر حمدى سيف النصر، وهو المعروف بميوله الوفدية، إلى جانب علاقته الوثيقة بشباب الوفد، وبالاتصال بأبو بكر حمدى سيف النصر رحب بالمشاركة، ووعد بتشكيل وفد متجانس.

ولم يتبق سوى تشكيل الوفد الرياضى، واقترح عليه الدكتور شريف حتاتة اسم شقيقته سميحة حتاتة– وهى عضو فريق كرة السلة بنادى الجزيرة والتى وافقت من حيث المبدأ، واقترحت عقد لقاء بنادى الجزيرة للتعارف على كل من «سعد» ومارى، وطلبت مهلة للاتصال بإدارة النادى والإعلان عن الرحلة، للتعرف على مدى استجابة الأعضاء والإدارة لهذه الرحلة، وذلك بهدف طمأنة المشاركين على أنها رحلة رياضية فى إطار الشرعية، مما يزيح عنهم الرهبة ويسكت أية شائعات قد تنطلق لو تم تنفيذها فى سرية...

وخلال أسبوع انتهت الكابتن سميحة حتاتة من اختيار الوفد.

ومرة أخرى أكد الملحق الثقافى الرومانى على مارى، بأن «سعد» هو المسئول عن كل من يتم ترشيحه للمشاركة فى المؤتمر، خاصة وأن مصر هى أهم دولة فى أفريقيا وأنها تشارك بأكبر وفد، مما يحتم أن يكون هناك انسجام، وعلى مستوى عال من التذوق الثقافى والسياسى.

وللمتابعة ذهبت مارى إلى منزل تحية كاريوكا، وفوجئت بأن الشقة قد تحولت إلى أتيليه لإعداد ملابس الفرقة الفنية المصاحبة لها، والمكونة من ١٥ فردا من راقصين وراقصات وموسيقيين... تحية فى غاية الاستغراق فى هذا العمل وإعداد البروفات للفقرات الفنية التى ستقدمها... وجاءت كابتن سميحة تحمل معها أخباراً سارة، إذ نجحت فى تشكيل فريقين للسلة رجال ونساء، إلى جانب تغطية الكثير من اللعبات الأخرى، اكتملت إذن صورة الوفد: أبو بكر سيف النصر سياسة، تحية كاريوكا فن، سميحة حتاتة رياضة... كلهم شخصيات ممتازة ومخلصة لنجاح المهمة.

إستقر عدد المشاركين على ٦٣ عضوا، ١٥ سياسة و١٨ فن و٣٠ رياضة. وفى لقاء ضم كل الأعضاء المشاركين، عقد بنادى الجزيرة للتعارف والاتفاق على الخطوات النهائية، والذى انتهى بالاتفاق على موعد السفر إلى الإسكندرية، حيث تنتظرهم الباخرة التى تقلهم إلى بوخارست، والتى ستغادر ميناء الإسكندرية الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين ٤ أغسطس.

وقد سبقهما للميناء «سعد» ومارى، للاطمئنان على الخطوات النهائية للرحلة، ووصل الوفد وصعد على سطح الباخرة ليبرتى «الحرية»، وهم يرتدون الزى الرسمى للوفد المصرى ذى اللون الأخضر الجميل، ويغنون بقيادة تحية كاريوكا أغانى سيد درويش، والتى تعبر عن الأصالة والمودة والتضامن. لقد كان منظرا مؤثرا لسعد ومارى، خاصة وأن الباخرة بدأت تغيب عن الأنظار، ولكن صوتهم العذب المملوء بالحب والإخلاص ظل باقيا فى الآذان.

وعن طريق السفارة الرومانية بالقاهرة، كان «سعد» يتابع أخبار الوفد يوما بيوم على فترات متقاربة، كما كانت تصله خطابات شخصية من رؤساء الوفود، وكانت كلها أخبار جيدة ومشجعة...

لقد كتبت تحية كاريوكا، تصف سعادتها بالتجربة الفريدة عليها... لقد نجحت فى أن تحدث انقلابا فى حفل الافتتاح، وذلك بأن بدأت طابور العرض للوفد المصرى من مكان إقامة الوفد، على مسافة حوالى ثلاثة كيلو مترات من الاستاد، واخترق الطابور شوارع بوخارست الرئيسية يترأسه الوفد الفنى، مقدما رقصة مصرية فلكلورية أدهشت كل المراقبين، ووقف الشعب الرومانى مذهولا من هذا التفكير الثورى الجديد، وما إن وصل الوفد المصرى إلى الاستاد الرياضى المقام فيه الحفل، فى الوقت المحدد لدخول طابور العرض، استقبل بعاصفة من التصفيق وإلقاء الورود، تحية وإعجابا بالعرض الفريد الذى قدمته الفنانة تحية كاريوكا.

لقد تصدرت صورة تحية كاريوكا صفحات كل الصحف العالمية، فكتبت جريدة « الجارديان» الإنجليزية بالبنط العريض تقول « كاريوكا تكتسح بوخارست»، أما جريدة

«واشنطن بوست» فكتبت «رقصة سياسية جديدة اسمها كاريوكا» .. كانت كل التعليقات تدور حول الأداء الجيد للشباب المصرى، الذى أمكنه أن يفلت من الحكم العسكرى، ويقدم عرضا مذهلا دون أى دعم حكومى، مما يثبت أن هناك تنظيما شعبيا قويا مكنه من أن يقدم عروضا فنية، نجحت فى لفت الأنظار إليه، وتنافس الكثير من العروض المدعومة كالاتحاد السوفييتى الذى شارك فى المهرجان بخمسمائة شاب.

وبعد عودة الوفد أقامت السفارة الرومانية حفل تكريم، حضره كل أعضاء الوفد إلى جانب سعد ومارى اللذين تم تكريمهما، للتنظيم والإدارة الممتازة اللذين أتيا بنتائج مدهشة.

وقد أشاد السفير فى كلمته بكل أداء الوفد عامة، وتحية كاريوكا بصفة خاصة، وقال إن ما قدمته يعتبر عملا فنيا ممتازا حاز استحسان الآلاف من الجمهور، المكون من جنسيات وشعوب مختلفة، وأضاف بأن النقاد ذكروا بأن تقديم فقرة راقصة لمدة ساعتين متواصلتين، وبأداء فنى متميز يثبت أن تحية فنانة الشعب بمعنى الكلمة.

* * *

[١٧]
تشكيل الجبهة وبداية المقاومة

شعرت الأجهزة الأمنية بالتقصير الشديد فى عدم متابعة ورصد خطوات تشكيل الوفد المصرى الذى شارك فى مؤتمر الشباب برومانيا، وكان السؤال الحائر بين أجهزة الأمن هو: كيف تم تشكيل وفد شبابى من ٦٣ عضوا ويترأسه شخصيات معروفة دون أى رصد أو متابعة من أجهزة الأمن؟ وكان رد الفعل من شقين أولهما: تكثيف المراقبة على «سعد» لمعرفة الأجهزة المعاونة، وثانيهما: إستدعاء تحية كاريوكا إلى قسم مكافحة الشيوعية، وبعد فترة انتظار وصلت إلى أكثر من ساعتين قابلها رئيس القسم حسن المصيلحى وطلب منها تقريرا كاملا عن الرحلة والشبكة التى تتعاون معها. رفضت تحية هذا الأسلوب وقالت له التالى: « واجهنى بالتهمة التى أحضرتنى من أجلها هنا، ولا تطلب منى أن أشارك فى اصطياد الأخطاء!!» أنهى المقابلة حسن المصيلحى ولكنه لم يغفر لها عدم تعاونها معه.

وجد «سعد» أن المراقبة الأمنية فى تزايد، وتصادف فى نفس التوقيت أن كانت والدة صديقه نجيب فخرى، تعد لرحلة صيف فى لبنان تستمر لأكثر من شهر فطلبت من «سعد» أن لا يترك نجيب خلال غيابها... كانت والدة نجيب تعرف أن نجيب يحب لعب الكوتشينة معظم الليالى، وكانت تود أن يترك نجيب الكوتشينة ويشارك «سعد» فى العمل السياسى.

نقل سعد نشاطه إلى منزل نجيب، وبدأ يكثف جهوده لتدعيم الجبهة الوطنية واتصالاته بالفصائل المختلفة، إلى جانب نشرة الجبهة ومطبوعاتها... وقد كان نصيب مارى من العمل السرى مسئولية متابعة الأجهزة الفنية (المطبعة وتوزيع المطبوعات)،

فأصبح عليها الربط بين «سعد» كتحرير، والأجهزة الفنية كمطبعة... وبعد أسبوعين من تسليم مادة أول عدد، اتصل بها البير - مسئول الأجهزة الفنية - يبلغها بأن المجلة قد تم طبعها، والمطلوب استلامها للتوزيع، وبدأت الاتصال بمسئولى الوجه القبلى والوجه البحرى وكذلك مندوبى القاهرة والإسكندرية للمقابلة، واستلام النسخ وتوزيعها كل حسب مسئوليته.

يعتبر صدور العدد وتوزيعه بطريقة منظمة وواسعة، بمثابة قنبلة انفجرت فى صفوف قيادة الحكم، فرغم اعتقال قيادات الأحزاب، ومصادرة أموالهم، وإغلاق مقار أحزابهم، ولم تعد هناك أى فرصة للمقاومة، ونجاح إصدار وتوزيع نشرة «الجبهة»، بمثابة حرب على قرار حل الأحزاب وإلغاء الدستور....

إنها بداية المقاومة للحكم العسكرى.

صدر العدد الأول فى ١٢ يونيو ١٩٥٣، تحت عنوان نشرة «الجبهة» لسان حال الجبهة الديمقراطية من ٨ صفحات ، حجم متوسط، وبسعر ٥ مليمات فقط. وحددت أهدافها فى: القضاء على الإستعمار الأنجلو أمريكى، وطرد قوات الاحتلال، وتحقيق الديمقراطية السياسية والاقتصادية للشعب، والتضامن الأخوى بين شعوب العالم لمنع الحروب، وتأييد قضية السلام.

وجاء فى افتتاحية العدد وتحت عنوان:

[بيان من اللجنة التحضيرية للجبهة الديمقراطية المتحدة]

« إن تكوين الجبهة هو حدث مهم فى تاريخ كفاحنا الوطنى. لقد ازداد الشعور بوطأة الحكم الفاشى، الذى تفرضه علينا العصابة العسكرية، والتى سلبت كل المكاسب الديمقراطية التى يتمتع بها الشعب المصرى».... واستطرد البيان يعدد أهداف الجبهة وأسلوب عملها، واختتم البيان بقوله «إن مجلة الجبهة تعبر عن آراء كل المواطنين. فهى لا تعبر عن تنظيم بذاته، ولا هى ملك لشخص بعينه، إنها تجميع وتنسيق لكافة القوى الوطنية فى معركتها المقدسة من أجل الاستقلال والديمقراطية».

ومـقـال آخـر بعنوان «الطبـقـة العـاملة فى طليـعـة الكفـاح من أجل الاسـتـقـلال والديمقـراطيـة» بقلم تنظيم طليـعـة العمال الشيـوعيين. ثم مـقـال بعنوان « دور الطبـقـة العاملة فى الكفاح الوطنى».

وتبعه مقال **(الجبهة الديمقراطية المتحدة)**، ثم مجموعة الأخبار عن نشاط العمال والمهنيين فى مقاومة النظام الحاكم، وقد كان فى الصدارة خبر القبض على الدكتور إبراهيم رشـاد رئيس اللجنة الوطنيـة لأنصـار السـلام.. ثم مقـال بعنوان « الحكم حكم الشعب» بقلم محامى وفدى.. ثم مقال «يا أبناء الشعب الأحرار» ومقال «المعركة دائرة» بقلم محامى عضو الطليعة الوفدية...

وتم اختتام العدد الأول بنداء يقول:« أيها الأحرار فى مصر... أيها الطلبة.. أيها العمال... أيها الفلاحون أيها المواطنون الأحرار... إجمعوا صفوفكم..أشـهروا سيفكم ولا تغمدوه ما زالت المعركة دائرة»...

وصدر العدد الثانى فى يوليـو ١٩٥٣، بعد شـهر من صدور العدد الأول، وفيـه زيادة أكثر من المشاركين فى التحرير، ومن الأحزاب السياسية المشاركة، كالوفد والحزب الإشتراكى والمستقلين، ومن المقالات التى نشرها كانت موضوعات عديدة من بينها: كفاح المرأة المصرية فى سبيل الاستقلال والديمقراطية، بقلم سيدة وطنية

وتحية تقدير إلى الأستاذ أحمد أبو الفتح، لموقفه الوطنى المشرف فى الدفاع عن الحريات، مما أثار حنق رجـال العـصـابة العسكرية، فأصدرت أمـرا بإبعـاده عن القاهرة...

وفى الصـفحة التـالية مـقـال بعنوان «تـغلغل النفـوذ الأمريكى فى مـعـاهد التـعليم المصرية» بقلم أستاذ جامعى، ثم بيـان يقـول » وزعت منظمـة طليعة العمـال المنشـور التالى: **[حكومة نجيب تعمل على قتل الأحرار فى السجون]**، إلى جانب أخبار متنوعة.

لقد كان «سعد» هو مسئول التحرير لنشرة الجبهة، إلى جانب مسئوليته فى كتابة المنشورات غير الدورية، وتولى مسئولية الطباعة حليم طوسون، ومسئولية التوزيع إلى

ألبير أربيه وكانت مارى هى همزة الوصل بين التحرير والأجهزة الفنية، وقد تم وضع تخطيط محكم ليتم نشر وتوزيع المنشورات خلال فترة قصيرة، وضرورة توصيله إلى كافة قوى الشعب وذلك بعد اعتماد مندوبى كافة القوى المنضمة للجنة لاستلام المنشور.. وكان أبو بكر حمدى سيف النصر يمثل الوفد، وإبراهيم يونس الإشتراكيين، ومصطفى كمال صدقى المستقلين والجيش.

سببت سخونة الموضوعات التى كانت تنشرها الجبهة، مع خطة التوزيع المحكمة، قلقا كبيرا لأعضاء مجلس قيادة الثورة، الذى أصدر أوامره بضرورة العمل بجدية، لمصادرة هذه النشرة، ومعرفة القائمين بإعدادها وطباعتها.

ولعل من أخطر المنشورات التى صدرت فى تلك الحقبة «منشور الجبهة الوطنية الديمقراطية» والذى جاء فيه : « يعلن نجيب توزيع الغنائم والأسلاب، فتولى هو رئاسة الجمهورية، وجلس على كرسى العرش فى عابدين، ويأخذ جمال عبد الناصر لنفسه وزارة الداخلية، حتى يستطيع إرهاب رجال البوليس والإدارة، وكانت خاتمة المأساة تعيين الصاغ عبد الحكيم عامر فى مركز القائد العام للقوات المسلحة، والقفز به إلى رتبة اللواء. يجرى كل هذا والشعب الجائع يتطلع إلى لقمة العيش دون أمل أو مجيب».

ومنشور آخر بعنوان **«حفلات الخيانة والطغيان»** جاء فيه : اليوم تحتفل العصابة بمرور عام على الحركة، فتقيم الحفلات التى تكلف الدولة الملايين من الجنيهات، وهى من عرق الفلاح والعامل والموظف... هل تقام بمناسبة تسليم السودان للاستعمار الإنجليزى؟؟ هل بمناسبة استجداء المفاوضات من الإنجليز ؟ هل تقام الحفلات بمناسبة إلغاء الدستور والأحزاب والصحف الوطنية ؟ هل تقام الحفلات بمناسبة الزج بمئات المعتقلين فى مختلف السجون وتدعيم الجاسوسية القذرة على المخلصين الشرفاء؟

[ومنشور آخر صادر من الجبهة الوطنية الديمقراطية] جاء فيه:

وأخيرا تقوم عصابة جمال عبد الناصر العسكرية، بإتمام الصفقة وبيع البلاد إلى الإستعمار الأنجلو أمريكى... ولكى تفرض الديكتاتورية المعاهدة فرضا على الشعب،

بدأت فألغت الأحزاب، ثم ألغت الدستور وكل مظاهر الحياة الديمقراطية وخنقت كل رأى حر، وفرضت أقصى أنواع الرقابة على الصحف، وزجت بالوطنيين الأحرار أعداء الاستعمار فى سجون قنا وأسيوط والمنيا، بل وتخلصت العصابة المجرمة من كل من يعارضها فى الرأى داخل الحركة، فنفت البكباشى يوسف صديق إلى سويسرا، وتخلصت من الصاغ أحمد حمروش والبكباشى رشاد مهنا، ونفت خارج البلاد أخيرا الصاغ ثروت عكاشة دينامو الحركة فى سلاح الفرسان.

وجاء فى «نداء من الجبهة الوطنية الديمقراطية إلى الشعب المصرى» فيؤكد هذا المنشور على ضرورة الدفاع عن مصطفى النحاس بقوله « إن كل وطنى مهما كان لونه الحزبى أو مذهبه، يجب أن يدافع عن النحاس لا لشخصه ولكن لكل المعانى التى ذكرناها... إن كل مدافع عن الديمقراطية يجب أن يدافع عن النحاس... فلنوحد كفاحنا مع كفاح مراكش وإيران والشعوب كلها... لن يتمكن الاستعمار من رقبة النحاس ومصدق لأن الشعوب تحمى الذين استجابوا للدفاع عنها...

وصدر المنشور الخامس تحت عنوان

[عاشت ذكرى ١٦ أكتوبر ١٩٥١]

وافتتحه بشعارات تقول: «تحيا ذكرى إلغاء المعاهدة الاستعمارية».. «تحيا ذكرى شهداء القنال»، «تسقط المفاوضات والمعاهدات الاستعمارية» «يسقط المفاوضون عملاء الاستعمار»، «تسقط الأحلاف العدوانية»، «عاش كفاح الشعب المسلح».

وفى نفس الوقت صدر منشور بعنوان « من لجنة الجبهة الثورية المتحدة إلى الشعب السكندرى» وهو لم يكتبه «سعد»، ولكن تمت طباعته بواسطة الأجهزة الفنية فى القاهرة، وتم تسليمه لأعضاء الجبهة بالأسكندرية، وتم توزيعه على نطاق واسع بالأسكندرية.

لقد كان لانتظام صدور المنشورات وتوزيعها بشكل مكثف، أكبر الأثر فى تصاعد حملات البوليس، لتتبع المصدر الرئيسى الذى تصدر منه هذه المنشورات، وذلك

استوجب من «سعد» أن يغير دائما مكان إقامته، ما بين نجيب فخرى فى العجوزة، وخالته عزيزة رضوان فى حدائق القبة. وكانت مارى تقوم بدور الربط بين «سعد» وتنظيم «حدتو».

وفى أحد الأيام بعد لقاء عمل مع مارى، قام بتوصيلها سيرا على الأقدام، من منزل نجيب بالعجوزة إلى منزلها بمنطقة بولاق أبو العلا ، وكان الوقت بعد منتصف الليل، وكان الجو رومانسيا، وتناسيا كل ما يحيطهما من مشاكل ولعل أهمها، عدم إستقرار «سعد» وتنقله من منزل إلى منزل، وخطورة ذلك إذا ما تم القبض عليه وبالتبعية على من يأويه آنذاك، سواء كان نجيب أو خالته عزيزة... تركا كل هذه المشاكل وأخذا يتحدثان حول الجانب الجميل فى الحياة.. الحب.. الزواج... التضحية.... واقترح «سعد» مداعبا مارى، أن يكون يوم ٧ نوفمبر المقبل أى بعد أسبوعين من ذلك الوقت، موعدا لزفافهما فى منزل ماسبيرو، وخلال الفترة المتبقية يقومان بشراء بعض المفروشات البسيطة ليمكنهما الزواج فى الشقة.

ولم يصدق «سعد» أذنيه ، فقد وافقت مارى على الفور وبكل حماس، وأعتبرت أن اختيار يوم ٧ نوفمبر هو فأل حسن، ذلك لأنه يوم نجاح الثورة السوفيتية.. وافترقا بعد أن اتفقا على الزواج يوم ٧ نوفمبر دون أى تحديد، كيف، ولماذا وأين؟

عاد «سعد» إلى منزل خالته، وهو يفكر فى خطورة استمراره عندها، وانتهى بقرار حاسم، أن يبدأ من الآن إعداد شقة ماسبيرو للإقامة والزواج، منعا لإحراج كل من نجيب وخالته.

ولتنفيذ ذلك بدأ فى جمع كل حاجياته الشخصية، ووضعها فى شنطة كبيرة قبل أن تستيقظ خالته، أو تستيقظ الرقابة البوليسية، وفعلا وقبل شروق الشمس وصل إلى المنزل ٣٧ شارع ماسبيرو، ليجد بواب العمارة مستيقظا وما أن رأى «سعد» حتى رحب به ظنا أنه قادم من السفر من الخارج.

ودخل «سعد» الشقة والتى بالطبع كانت خاوية على عروشها، ووضع حاجياته التى لا تتجاوز ملابسه الخاصة وبعض الكتب والنشرات، ثم بدأ يتساءل ما العمل؟

لقد كان معه مبلغ كبير بلغة تلك الأيام، ما يقرب من ١٥٠ جنيها، كان قد قبضها من أخبار اليوم كمتأخرات فى حسابه لم يكن قد استلمها.. وبدأ على الفور بشراء بعض الأثاث المستعمل من محل قريب منه، وقام بتوزيعه على الحجرات والمطبخ، وبدأت ملامح الشقة تظهر بشكل حضارى مقبول. واتصل تليفونيا بمارى فى مقر عملها الذى هو فى نفس العمارة، يطلب منها أن تمر عليه بعد أن تنتهى من عملها.

ولم تصدق مارى عينيها، واعتبرت أن ما قام به «سعد» هو أحد معجزات القرن العشرين. فقد أصبحت لديهما شقة مجهزة لاستقبالهما ليبدأ حياة برجوازية سعيدة!

لقد قررا ممارسة «سعد» حياته من ماسبيرو، واضعين نصب أعينهما تاريخ ٧ نوفمبر موعد زفافهما الموعود.

أخبرت مارى والديها بالخطوة الجريئة التى تمت، وكذلك عن تحديدهما يوم ٧ نوفمبر يوما لزفافهما.. ورحبا بهذا النبأ وطلبا أن يشتركا فى تأثيث المنزل، واتفقا مع مارى أن يذهبا ليعاينا الشقة ويحددا ما تحتاجه، حتى يمكن تعويض أى نقص فى تأثيث المنزل.

لقد جاء فى تقرير المراقبة البوليسية لشقة «سعد» ما نصه:

١/١١/ ١٩٥٣ - الساعة ٩.٣٠ صباحا، دخلت مارى روزينتال إلى المنزل رقم ٣٧ شارع ماسبيرو ومعها والدها ووالدتها، ومكثوا بالمنزل ٥٠ دقيقة، ثم خرجوا لمحل بنزايون بباب الخلق، حيث اشتروا بعض الملابس والمفروشات وعادوا إلى المنزل ٣٧ شارع ماسبيرو.

إذن فبينما «سعد» ومارى *يعدان العدة لإتمام الزواج فى الميعاد المتفق عليه*، وفى نفس الوقت وعلى الجانب الآخر كانت إدارة المخابرات العامة ومعها المباحث العامة، قد خططا للقبض على كل الضالعين فى تنظيم الجبهة الوطنية، وذلك فجر يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٣.

* * *

[١٨]

فــى الســجـن الحـربــى

ساعة الصفر: ٣ نوفمبر ١٩٥٣، الساعة الرابعة صباحا انطلقت فرق المخابرات لتنفيذ مهامها المحددة، وهى القبض على المنتمين والمحركين لتنظيم الجبهة الوطنية.

شعر «سعد» فى حوالى الساعة الرابعة صباحا أن لصا فى مدخل الشقة، وانتابه شعور بالحيرة والقلق ، الحيرة فى أنه كيف يخبر اللص أنه ليس لديه فى الشقة ما يستحق أن يضيع وقته من أجله... أى وقت اللص!، والقلق حول ما ينوى أن يفعل اللص معه، سيقتله ثم يسرق، أم يسرق ثم يقتل ؟ أم سيقتله لأنه لم يجد شيئا!

إن حيرته لم تطل كثيرا، لقد انفتح باب الحجرة ودخل منها بعض الغرباء ، كل منهم ممسكا بكشاف نور فى يد، ومسدس فى اليد الأخرى. واتجه نحوه شاب أنيق يقول : «سعد كامل.. بتاع أنصار السلام!!» سرعان ما استوعب «سعد» كل شئ، وعرف من هم هؤلاء الزوار، وماذا يريدون؟ رد بالإيجاب، طلب منه المتحدث بتفتيش الشقة.. وطبعا كان ذلك أسهل مهمة يقوم بها رجال الأمن، فالشقة ليس بها من الأثاث والمتعلقات الكثير وانتهت المهمة خلال فترة زمنية قصيرة، وكانت حصيلة التفتيش ضبط بعض المنشورات ومنها ما جاء فى محضر النيابة الآتى:-

* نشرة «الكفاح» وملحق «الطليعة».
* ١٥ نسخة من منشور بعنوان «نداء لعضو مؤتمر دولى من رجال القانون للدفاع عن الحريات والديمقراطية».
* نشرة من أنصار السلام بعنوان «أفرجوا عن يوسف حلمى».

* نشرة بعنوان «الحركة الشعبية فى السودان».

* نسخة من جريدة «الجزائر الجديدة» عن الحزب الشيوعى الجزائرى.

* مقال بعنوان «موقف الشيوعيين من الحركات الوطنية».

لقد استولت الحملة العسكرية على هذه الممنوعات والتى تتساوى مع المسدسات والمتفجرات والمدافع الرشاشة!!

إستعد «سعد» للانطلاق معهم، وفى يده حقيبة صغيرة بها بعض الملابس والحاجيات الشخصية، ونزل معهم وظهر جليا أن بواب العمارة كان متواطئا مع رجال المخابرات، لأنه لمحه يقف مختبئا وراء عامود نور، وقبل أن تتحرك السيارة التى ستقله إلى المجهول، نظر نظرة أخيرة لعمارة ماسبيرو، وعرف أنه المشهد الأخير «لقصة سعد ومارى وعمارة ماسبيرو».

وتم إسدال ستائر السيارة، وبذلك لم يتمكن من معرفة وجهة السيارة، وبعد حوالى الساعة سمع صوت فتح أبواب كبيرة، ثم دخلت السيارة إلى فناء واسع، عرف فيما بعد أنه فى السجن الحربى.

توجهوا به إلى مجمع المكاتب... صالة كلها مظلمة عدا مكتب واحد مضاء بإضاءة مباشرة، ويجلس خلفه «صول» تشير ملامح وجهه إنه غاية فى الإجهاد، وظيفته إستلام «الوارد» . وقف الصول فى وضع انتباه لضابط الحملة، ووقع على الأوراق التى مع الضابط باستلام الشئ، وبذلك أصبح رقما لا حول له ولا قوة ، يأكل ويشرب وينام بل ويقضى حاجته وفق إرادة السجن.

لقد تحول سعد كامل المحامى، ورئيس تحرير «الكاتب»، والسياسى، إلى المسجون رقم ٢٢٤!! . وبطريقة روتينية ممزوجة بالإرهاق سأله الصول عن البيانات: الاسم ، السن، الوظيفة، العنوان، المتعلقات والأمانات.. ثم قام الصول باستبعاد أى أداة يمكن أن تصلح فى عملية الانتحار ، ربطة العنق، الحزام، القلم، ثم جاء جنديان وسار أحدهما أمامه والآخر خلفه واتجها إلى الزنزانة رقم ٢١٣ ، وقام العسكرى الأمامى بفتحها والعسكرى الخلفى بإيداع المسجون وغلقها.

كانت الزنزانة غارقة فى الظلام، لا يصلها إلا بصيص من ضوء الممر الذى أمامها، والذى يربط بين مجموعة من الزنازين الأخرى.

وبدأ «سعد» يتعرف على الزنزانة، سرير مغطى ببطانية، وكرسى من الخشب، وجردلان بلاستيك، وبخبرته السابقة عرف أن أحدهما لماء الشرب، والآخر لقضاء الحاجة.

وتمدد على السرير ، وبعد وقت ليس بالطويل، عرف أن الصباح قد بدأ، إذ دبت الحركة فى السجن ، وغالبية المساجين فى الأصل جنود، يقضون أحكاما صادرة من مجالس عسكرية، وهم يتولون تنظيف السجن. وفريق من أربعة مساجين ومعهم شاويش يمرون على الزنازين يملأون جردل المياه ويفرغون الجردل الآخر، ومن خلفهم جنديان كل منهم يحمل حلة كبيرة يقوم الشاويش بغرف الفول من إحداها فى طبق على المنضدة بجوار رغيف عيش، وطبق آخر يصب فيه مادة سوداء عرف أنها العسل الأسود. كانوا يمثلون «لسعد» العالم الخارجى الذى ينتهى عند باب الزنزانة.

بعد تناول الإفطار أخذ يعاين بدقة عالمه الجديد، ويقيس طوله مستخدما خطواته، فالمتر يوازى ٤ خطوات بقدمه. ثم بدأ يستكشف أى صلة مع العالم الخارجى، إذ لا يوجد أى منفذ للخارج سوى الفتحة الموجودة فى الباب، ومنها لا ترى سوى الطرق الممتدة أمام مدى البصر، وعلى الجانبين زنازين ولم يستطع أن يعرف الليل أو النهار إلا من خلال نوعية المقدم له من طعام ، فالفول يعنى الإفطار، والعدس يعنى الغداء، والجبنة القريش والحلاوة يعنى العشاء... لقد فهم لماذا كان الصول فى الاستقبال يبحث عن مضادات الانتحار!!

مضى يومان على هذا الحال، وفى اليوم الثالث تم استدعاؤه للتحقيق فى غرفة فى الدور الأرضى، حيث باشر التحقيق معه على نور الدين وكيل نيابة أمن الدولة (والنائب العام فيما بعد)، وبعد الأسئلة عن الاسم والسن والعمل والعنوان، كان السؤال الأول عن النشرات والمنشورات التى ضبطت فى حوزته عند القبض عليه. فأجاب إنه بصفته رئيسا لتحرير مجلة «الكاتب» وأنه عضو اللجنة التنفيذية لحركة أنصار السلام،

تصله بالبريد العديد من المنشورات والنشرات والمجلات من مختلف الجهات والهيئات، والعديد منها من خارج البلاد، بدليل أن هناك منشورات من الجزائر وأخرى من السودان.

ثم واجهه وكيل النائب العام، بتهمة اشتراكه في تشكيل جبهة من الهيئات والأحزاب المنحلة ضد نظام الحكم القائم. فنفى «سعد» ذلك وأكد أن كل ما يعرفه عن هذا الموضوع، وصل لعلمه من النشرات والبيانات التي تصله بالبريد.

ونفى «سعد» كل الادعاءات التي كان وكيل النائب العام يواجهه بها ومنها أنه عضو قيادي في منظمة «حدتو»، وأنه المشرف على تنظيم الجبهة، وهو ما تؤكده أقوال الدكتور محمد فؤاد منير (من قيادات الجبهة في الأسكندرية، وقد اعترف باعترافات مفصلة عند التحقيق معه) من خلال لقاءاته معه عند زكي مراد. وقد نفى «سعد» كل اتهامات الدكتور محمد فؤاد منير، فتمت مواجهتهما وأصر كل على أقواله.

وتم خلال فترة التحقيق، إلقاء القبض على أكثر من ٢١ متهما على ذمة القضية، من بينهم ٩ متهمين على صلة وثيقة به، من بينهم ماري، ونجيب فخري، وتحية كاريوكا، ومصطفى صدقي، وزكي مراد، وشريف حتاتة، وألبير أربيه وحليم طوسون، وأبو بكر حمدي سيف النصر، وجميعهم رفقاء السجن الحربي، عدا ماري وتحية كاريوكا، فقد أودعا مع متهمات أخريات سجن مصر.

لقد عاد «سعد» إلى زنزانته وهو أكثر هما بسماعه نبأ القبض على نجيب فخري، خاصة أنه كان متعاطفا معه وليس مشاركا في أفعاله، وكذلك القبض على ماري وعلى تحية كاريوكا ، وتساءل هل ستستمر متماسكة مؤمنة بما فعلته دون أن تنهار، وتفقد المكاسب الأدبية الهائلة التي نالتها من خلال رحلتها إلى بوخارست، وجعلت العالم يشيد بفنها الأصيل.

وهرب من كل ما يعتمل بداخله من أسئلة أو أنباء سيئة، استغرق في نوم عميق لمدة لا تقل عن خمس ساعات متواصلة، وفجأة هب من هجوم مفاجئ من حشرات الفراش، والتي استطاعت الاستيلاء بالكامل على كل جسده. وقام مذعورا فالظلام

دامس، ولم يكن أمامه سوى أن يخرج من هدومه رغم برودة الجو، ولكنه سرعان ما تدثر بالبطانية واستنهض روح المقاومة، وأخذ ينظف ما يرتديه قطعة قطعة، والتخلص من الحشرات فى جردل البول، ثم بدأ يهاجم العدو فى عقر داره، ليوقف تدفق هذا الجيش الجرار ، فأخذ لبابة العيش يكورها، إما ليلتقط بها الحشرات، أو ليسد بها ثقوب الجدران لوقف زحف هذا الجيش. وهكذا أمضى ساعات طويلة، إلى أن استطاع بإمكانياته المتواضعة أن يوقف الهجوم الكاسح، مما جعله فى النهاية يشعر بالجوع فالتهم ما يسمونه جبنة قريش وحلاوة طحينية. «رب ضارة نافعة» إذ أنه أصبح مشغولا ليلا ونهارا بالتخطيط لمقاومة العدو اللعين، مما يقضى على وقت الفراغ القاتل والوحدة الموحشة ، خاصة وأن هذا الحال إستمر أكثر من ٢٢ يوما، لا اختلاف بين الليل والنهار، أو بين النوم أو اليقظة أو بين الجوع والشبع. لقد تحولت أمنياته أن يجد صنبور مياه ليضع رأسه تحته، وأما الأحلام غير القابلة للتحقيق هى أن يستحم وأن يستبدل هدومه، فقد تحولت ملابسه التى يرتديها إلى ألوان أخرى لا يعرف تحديدها، ولم يكتشفها العلم الحديث بعد!!

وبين هذه الأمانى والأحلام بعيدة المنال، دخل الزنزانة شاب مرتديا الملابس المدنية الأنيقة، ومعه مصباح أضاء الحجرة ، وكانت المرة الأولى بعد ٢٥ يوما، يرى شخصا ويناديه الأستاذ سعد كامل طبعا.

لم يصدق أذنه، وتساءل بداخله هل لقب «أستاذ» ما زال يخصه ؟

أنا اليوزباشى أحمد محمود، ومن المتتبعين لكتاباتك فى مجلة الكاتب والمعجبين بأفكارك... ويسرنى أن أتناقش معك وأتحاور إن كان هذا لا يزعجك!

صمت «سعد» لفترة ليستوعب ما يحدث هل هو علم ، أم أنه يحلم حتى يتصرف بما يلائم الموقف ، ثم جاء رده بأنه لا يمانع البتة فى الحوار ، واستأذنه برفق اليوزباشى أحمد محمود بأن يكون الحوار فى مكتبه، وأضاف لأن الإضاءة أفضل، كما يمكنه مطالعة الصحف الصادرة ذلك اليوم. فلما وافق «سعد» ارتدى ملابسه على وجه السرعة، فهو فى شوق زائد ليرى مزيدا من الضوء وليقرأ صحفا، ثم والأهم

ليتحاور مع «بنى آدم» بعد صمت إمتد ٢٥ يوما بالتمام والكمال. وبرفقة سجان وصل إلى مكتب سيادة اليوزباشى الحمد لله أرجله قادرة على حمله، بعد فترة الحرمان التى عاشها حتى الآن وتمنى فى نفسه أن يكون المكتب فى مكان بعيد ليمشى أكثر وأكثر....

وبعد فترة وجيزة أشار له العسكرى، أن يكمل المشوار ويدخل الحجرة المضاءة... وهناك فى مكتب اليوزباشى كانت المفاجأة ، لقد وجد أن نجيب فخرى يجلس مع اليوزباشى... تعانقا وانهمرت الدموع من شدة الفرح خاصة وأن نجيب تم القبض عليه لأنه جعل منزله مقرا «لسعد» ولكل العاملين معه وكانت النتيجة القبض عليه واقتياده إلى هذا السجن القبيح ، نجيب الذى يطلق عليه أصدقاؤه «سيادة السفير»، لأنه بدأ السلك السياسى من أول السلم «ففى عام ١٩٨٠ أصبح سفيرا لمصر فى كوبا» ومما أزعج «سعد» تصوره أنه سيتم طرده من العمل فى الخارجية، ويعود إلى عمله فى عالم الأرقام بديوان المحاسبة، وهو ما يمقته نجيب.

وجلسا معا فى مواجهة اليوزباشى، الذى بدأ حديثه بأنه يأمل أن يستفيد من حواره معهما، خاصة لمكانتيهما السياسية وكفاحهما فى تشكيل اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، والتى كان يرأسها فتحى رضوان، وأصبح اليوم وزيرا فى وزارة الثورة، مما يعنى أن آمالهما وأحلامهما وما كانا يرجوانه لسنوات مضت أصبح اليوم حقيقة ، وإن كانت هناك أخطاء، فالثورة ماضية فى طريق الإصلاح ، وليكن الكلام بكل صراحة.

طلب «سعد» أن يتكلم قبل نجيب، لأن فى نفسه غصة مما يحدث ، وأكد «سعد» أن نجيب لا ذنب له، ولم يكن يعلم بالدور الذى يقوم به «سعد»، ولكنه ظن أن منزل نجيب غير مراقب، مما يتيح له حرية الحركة، خاصة وأن والدة نجيب قبل سفرها إلى لبنان طلبت من «سعد» أن يلازم نجيب، واستطرد «سعد» قائلا: إنه تم القبض عليه والتحقيق معه على أنها قضية جنائية فى حين أننا أمام قضية سياسية، وتهمته أنه وقف ضد حركة الجيش منذ عام ١٩٥٢ ، وهى تهمة لا ينكرها. فهو يرى أن حركة

الجيش فى عام ١٩٥٢ إنما جاءت ثمرة للتناقض بين الاستعمارين الإنجليزى والأمريكى، وأنها نتاج لانتصار الاستعمار الأمريكى فى مصر، وأن طرد الملك وتحديد الملكية وغيرها من الإصلاحات التى أعلنت عنها حركة الجيش، ما هى إلا ستار يبدو من خلفه النفوذ الأمريكى... ويستطرد «سعد» متكلما، وكما جاء فى التقرير الذى أعده اليوزباشى أحمد محمود بعد تفريغ الأشرطة التى تم عليها التسجيل الصوتى لهذا اللقاء وتم ضمه لأوراق القضية. حيث يقول «سعد» إنه فى عام ١٩٥٢ وفى معتقل هايكستيب، كان هناك معتقلون من كافة المنظمات الشيوعية إتصل بهم «سعد»، وقرر أن أقربهم إلى نفسه كانوا أعضاء «حدتو» . فإنهم من وجهة نظر «سعد» الأقرب إلى الشعب من المنظمات الأخرى التى كانت تتمسك بالنصوص النظرية ، وأنه تعرف على زكى مراد العضو القيادى فى الحركة خلال فترة الاعتقال، وحين قامت حركة الجيش أصدرت «حدتو» تحليلا سياسيا أشارت فيه أن حركة الجيش هى ثمرة انفجار شعبى، ويرى «سعد» أنهم خُدعوا فى الحركة وقد بلغ التفاؤل بهم أنهم قالوا إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة مع «حدتو»، أى أن منظمة « حدتو» أصبحت الآن فى الحكم ، وهو تحليل ساذج، وأثبتت الأيام صدق حدسه، وتزيد من يقينه بأن الاستعمار الأمريكى يؤيد حركة الجيش وأدلة ذلك كثيرة من بينها النقطة الرابعة، وما كانت تنشره الصحف الأمريكية آنذاك وكثرة عدد الخبراء العاملين بمصر، وزيادة البعثات العسكرية المتوجهة إلى أمريكا. واستمرت السياسة هكذا حتى يناير ١٩٥٣ حين ألغت قيادة الجيش الأحزاب، ثم صادرت مجلة «الكاتب» وقبضت على بعض أنصار السلام. وكان هو من بين المطلوبين للقبض عليه ولكنه استطاع أن يهرب. ومنذ ذلك اليوم أصبح مؤمنا بأن الاتجاه الأمريكى وراء الثورة، وأن على كل مصرى أن يقاوم ذلك، وأضاف «سعد» بأنه عندما ألغى أمر اعتقاله، أخذ يتردد على مسكن زكى مراد القريب من منزله فى الدقى، وقد عرض عليه أن يكون عضوا فى الحركة الديمقراطية ليمثلها فى اللجنة الوطنية لأنصار السلام بدلا منه، خاصة وأن زكى مراد كان يقوم بهذا الدور العامين السابقين.

ويستمر تقرير تفريغ أشرطة تسجيل أقوال «سعد» ذاكرا، أن «حدتو» فى هذا الوقت قد بدأت تعدل من موقفها الأول بضغط من المنظمات الشيوعية الأخرى وبضغط

أعضاء الحركة نفسها مما قربه إليها فعلا، وبذلك انضم إلى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وأصبح عضوا عاملا فيها. وقد أبدى اليوزباشى أحمد محمود إعجابه بشجاعة «سعد»، ومن تحمله المسئولية كاملة، ورفضه أن تكون هناك أى مسئولية على نجيب أو خطيبته مارى، خاصة وأنه كان مخططا يوم ٧ نوفمبر للزواج، ولكن الأقدار تسخر... ففى هذا اليوم كان نزيلا فى السجن الحربى!

وشرح أحمد محمود وجهة نظره بقوله: إن حركة الجيش هى محصلة لكل القوى السياسية فى مصر، وإن أعداءها الطبيعيين هما الإقطاع والملك. وأن ما تسعى إليه هو تحقيق الاستقلال الوطنى. وكان اليوزباشى أحمد محمود قد أعد مجموعة من الصحف المصرية والأجنبية تصدرها خطاب لعبد الناصر ضد أمريكا وموقفها غير الواضح من جلاء القوات الإنجليزية عن مصر، إلى جانب تصريح واضح وقوى من مجلس قيادة الثورة بأن مصر ضد الأحلاف العسكرية، وأنها سوف تتخذ موقفا حياديا بالكامل عند نشوب أى حرب بين الأقطاب الدولية.

وأضاف أحمد محمود : إن ما تنشره الصحف يمثل الجانب المعلن فقط، إذ أن هناك إجراءات غير معلنة، منها مثلا أن الثورة قامت بتشكيل فرق للحرس الوطنى منذ ٢٥ أكتوبر ١٩٥٣ بهدف أن تتولى مقاومة المستعمر، وأنه تم إسناد قيادة هذا التنظيم للصاغ كمال الدين حسين، ويتولى التدريب عبد المحسن أبوالنور، وهما من الضباط الأحرار، وأنه أصبح هناك المئات من الشباب الوطنى المخلص لتنفيذ مهام فدائية ضد الانجليز بين ساعة وأخرى.

وبقى أن يلتحم كل من الشعب مع الجيش لخوض هذه المعركة، وتفويت الفرصة على المستعمر، الذى يهدف إلى أن تنصرف الجموع عن معركة التحرير وتتجه إلى أن نتقاتل داخليا. ولذلك فإن الشيوعيين أخطأوا الطريق بتحالفهم مع فلول الأحزاب المنحلة، مما أوجد الأسى لدى مجلس قيادة الثورة، أن يجد بعض الوطنيين المخلصين من أمثال «سعد» ونجيب ينضمون إلى جبهة الحاقدين على الثورة، والتى هى جزء من «حدتو»، خاصة لمساهمتها بفاعلية فى بناء تنظيم الضباط الأحرار، وبصفة خاصة

أنهم تعلموا من «حدتو» أساليب العمل السرى والتنظيم العنقودى، إلى جانب خدمات الجهاز الفنى «لحدتو» فى مجال طباعة المنشورات، والتى كان لها أكبر الأثر فى تجميع وبناء تنظيم الضباط الأحرار... واختتم اليوزباشى أحمد محمود كلامه قائلا: إن كل ما جرى فى هذه الجلسة تم تسجيله، وأنه سيقوم بتفريغه وسيتم ضمه للتحقيقات لتوضيح وجهة نظر «سعد» الحقيقية... وأنه يترك لهما حرية التفكير والإقرار فى التحقيقات بما استقر عليه رأيهما، وأنه يتمنى أن يكون قد كسب صديقين، وأنه على استعداد لتلقى اقتراحاتهما وتنفيذ طلباتهما، ويتمنى أن تتم بينهما لقاءات أخرى فى ظروف أفضل. وطلب «سعد» فى النهاية العمل على سرعة الإفراج عن نجيب ومارى، لأن جرمهما ينحصر فقط فى أنهما من أعز أصدقائه، وليس لهما أى مسئولية فيما حدث. وأجابه اليوزباشى إن هناك اتجاها فعلا إلى تصفية القضية وقصرها فقط على العناصر المعادية للثورة. وانسحب أحمد محمود من مكتبه لارتباطه بموعد وتركهما ليتحدثا سويا، ويشربان الشاى الساخن.

لقد كانت فعلا جلسة حارة، خاصة وأنهما يفتقدان الكلام بعد حرمان من هذا الحق الإنسانى فترة سجنهما. وأخبر نجيب «سعد» أن ضابطا يمت له بصلة قرابة يعمل فى السجن الحربى، أخبره أن عدد المسجونين على ذمة القضية بلغ ١٨ متهما، وأنهم مقسمون فى المعاملة إلى ثلاث مجموعات أو فئات أو درجات. الدرجة الأولى يحظون بعناية خاصة ذلك لأنهم اعترفوا تفصيليا، مما ساعد على دعم الادعاء وغالبيتهم من مجموعة الأسكندرية، وعلى رأسهم الدكتور محمد فؤاد منير الطبيب بالسلاح البحرى، الذى ذكر أن «سعد» عضو فى منظمة «حدتو»، وأن اسمه الحركى «طه»، وأنه انضم إلى المنظمة منذ أكثر من عام وقابله فى منزل زكى مراد بالدقى، وكان يتلقى منه التوجيهات بالنسبة لحركة أنصار السلام، وكذلك تشكيل الجبهة المتحدة.

ومنهم أيضا خالد عبد المهيمن سلام المحامى بالأسكندرية، ومحمود صبحى أبو سيف طالب بكلية حقوق الأسكندرية، وحسن السيد رجب المقاول المعمارى وكيل لجنة الوفد بالأسكندرية هؤلاء يحظون بعناية خاصة فى السجن إذ لا يغلق عليهم باب،

ومسموح لهم بالتحرك داخل السجن، ومخصص لهم طعام خاص، والنية تتجه إلى الإفراج عنهم فور الانتهاء من التحقيقات، واعتبارهم شهود إثبات. أما المجموعة الثانية فهم المتهمون من أعضاء الأحزاب المنحلة وأنصار السلام، كنجيب و«سعد» وأبو بكر حمدى سيف النصر وإبراهيم يونس، وتتم معاملتهم بتشديد الحبس الانفرادى ورداءة الطعام والإظلام الكامل بالحجرة ليل نهار.... أما الشريحة الثالثة فهم الشيوعيون من قيادات التنظيمات الشيوعية، فإلى جانب الحبس الانفرادى والإظلام، يخضعون لقيد حديدى فى أيديهم خلف ظهورهم وتسمى هذه العقوبة «حديد خلفى»، ومنهم زكى مراد، وشريف حتاتة، وألبير أرييه، وحليم طوسون، وكمال عبد الحليم (مؤلف أغنية دع سمائى فسمائى محرقة فيما بعد)، والذى انهار من التعذيب، ووصل إلى مرحلة خطيرة استدعت علاجه فى المستشفى العسكرى بجلسات كهرباء على المخ، وأخذت حالته تزداد سوءا. واستمر تجاذب الحديث إلى ما بعد منتصف الليل، ثم عاد كل منهما إلى زنزانته لتبدأ من جديد رحلة الوحدة والعذاب.

* * *

[١٩]

أزمة مارس والإفراج عن السياسيين

مضى أسبوع تقريبا بعد هذا اللقاء، وأعيد التحقيق معه مرة أخرى، تولاه على نور الدين وكيل النائب العام، الذى أخبره بأن اليوزباشى أحمد محمود رفع أمامه تقريرا كاملا لما جرى المرة السابقة بينهما وهو ما يمثل الشق السياسى فى القضية ووجهة نظره لحركة الجيش. وأبدى «سعد» تأييده لتوحيد الصفوف، من أجل محاربة الاستعمار وطرد الاحتلال البريطانى من القنال... وهو الموقف الصحيح الذى يتخذه الشيوعيون دائما ومثال ذلك ما حدث فى ايطاليا، عندما أعلن تولياتى سكرتير عام الحزب الشيوعى الايطالى إستعداده للتنازل عن موقف المعارضة مع الحكومة، إذا هى انسحبت من حلف الأطلنطى ورفضت المساعدات الأمريكية، ولهذا فإنه يؤيد تكوين جبهة بين الحكومة والشعب ضد الإستعمار، حتى لا يجد الإستعمار ثغرة ينفذ من خلالها، كما حدث فى العام الأسبق فى إيران. واختتم أقواله بالتأكيد على عدم مسئولية كل من نجيب وخطيبته مارى.

وتكرر الأمر عند التحقيق مع مارى، إذ كانت رؤيتها هى ذات الرؤية التى ذهب إليها، بتشكيل جبهة من الشعب والجيش لتقف صفا واحدا ضد الاستعمار، فالتخلص من الاستعمار هو بداية الطريق لانطلاقة الشعب وتحقيق طموحاته.

عاد «سعد» إلى محبسه، وأضاف إلى هوايته لشغل ال٢٤ ساعة، هواية التأمل والتفكير فى الأحوال السياسية، وما يدور داخل السجن وخارجه، والصراع الدائر بين الضباط للانفراد بالسلطة.

وذهب فى تحليله، بأنه بعد نجاح الإنقلاب العسكرى تم تسليم المواقع المدنية

المؤثرة إلى الضباط الأحرار وقيادات الجيش، وبذلك أصبحت وحدات الجيش التى كان يقودها قائمقام (عقيد)، يقودها الآن ضابط فى رتبة الصاغ (رائد) . ذلك لأن غالبية الضباط الأحرار من أصحاب الرتب الصغيرة وأعمارهم متقاربة، مما شكل لديهم وحدة فى الفكر والهدف ولكنه أوجد اعتراضا على تشكيل مجلس قيادة الثورة نفسه، خصوصا بعد أن انضم إلى المجلس بعض الضباط الذين لم يكن لهم شأن كبير داخل تنظيم الضباط الأحرار أمثال أنور السادات وعبد المنعم أمين ، مما دفع بعض الضباط فى سلاح المدفعية يوم ١٥ يناير ١٩٥٤، إلى المطالبة بإعادة تشكيل مجلس قيادة الثورة بالانتخاب، وتزعمهم فى ذلك المطلب القائمقام رشاد مهنا.

وفى ٤ مارس ١٩٥٤ كانت المواجهة الفعلية بين عبد الناصر ومحمد نجيب ،بعد أن ارتفعت الأصوات المعارضة للثورة... وعقد اجتماع برئاسة عبد الناصر لمجلسى الوزراء والثورة، وصدرت عدة قرارات مهمة فى ٢٥ مارس من بينها:-

* السماح بقيام الأحزاب... على أن لا يؤلف مجلس قيادة الثورة حزبا.
* لا حرمان لأى مواطن من الحقوق السياسية.
* حل مجلس قيادة الثورة يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٤.
* إنتخاب جمعية تأسيسية، تقوم بسلطة المجلس النيابى وانتخاب رئيس الجمهورية.
* الإفراج عن كل المتهمين المقبوض عليهم فى قضية الجبهة، وهم يمثلون الأحزاب المختلفة والتى سبق حلها (وفد - اشتراكيين - أنصار سلام).

وفى الوقت نفسه صدر قرار الإفراج عن الأخوان المسلمين... وذهب جمال عبد الناصر إلى منزل الهضيبى طالبا منه عودة الأخوان المسلمين لأنشطتهم الذين لم يضيعوا كثيرا من الوقت فبدأوا فورا فى مهاجمة بقية الأحزاب وخاصة الشيوعيين والوفديين.

فى ظل هذه الأحداث المتنامية والمتلاحقة صدر قرار الإفراج عن «سعد»، وكانت مفاجأة سارة جدا، خاصة وأنه تأكد بأنه تم الإفراج عن نجيب ومارى أيضا، وكذلك

عن تحية كاريوكا، ومصطفى صدقى، وأبو بكر حمدى سيف النصر، وإبراهيم يونس... مع استمرار حبس زكى مراد، وشريف حتاتة وغيرهم من القيادات الشيوعية، ولكن بعد أن تم نقلهم من الحبس الانفرادى وفك «الحديد الخلفى» والسماح لهم بالخروج إلى حديقة السجن ليروا أن هناك شمسا ما زالت تشرق كل يوم!

عاد «سعد» إلى منزل العائلة بالدقى، ولم تكن حالته الصحية ولا النفسية تسمح له بأن يشارك فى أى عمل سياسى، خاصة وأن الأحداث كانت تتلاحق بسرعة مذهلة.. فمن مظاهرات عمال شبرا الخيمة تأييدا لمحمد نجيب، إلى مظاهرات أخرى فى اليوم التالى قام بتنظيمها أحمد طعيمة مع قيادات نقابات عمال النقل المشترك، على ضرورة الإضراب العام لمناصرة مجلس قيادة الثورة لصالح الحركة العمالية بصفة خاصة، ومصر بصفة عامة....

وفى ٢٧ مارس ١٩٥٤ توقفت كل وسائل المواصلات بما فى ذلك السكك الحديدية، وتحرك الضباط الموالون لجمال عبد الناصر وسيطروا على الموقف داخل الجيش، ونجحوا فى إقناع الضباط باستمرار تنظيم الضباط الأحرار، وبذلك أمكن توحيد صفوف الجيش خلف عبد الناصر، وقاموا فى الوقت نفسه باعتقال المناصرين لمحمد نجيب وأغلبهم من سلاح الفرسان، كما تم نفى خالد محيى الدين، واستبعاد يوسف صديق إلى قريته فى بنى سويف للإقامة الجبرية.

وبذلك انتهت المواجهة الحاسمة ما بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر، وصدر قرار مجلس قيادة الثورة بتأجيل قرارات مارس وعودة مجلس قيادة الثورة، واستمرار محمد نجيب رئيسا للجمهورية إلى أن تم عزله بعد ذلك فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤.

اكتشف «سعد» أن الأبواب قد أصبحت مغلقة ولم يتبق له سوى يوسف حلمى ليتلمسا معا طريق المستقبل، ولكنه فوجئ أنه فى حاجة لمن يواسيه ، لقد فقد زوجته بصورة تراجيدية أليمة ، إذ كان يوسف قد قبل دعوة بعض أصدقائه لقضاء يوم مشمس بمزرعة لصديق بالقناطر الخيرية ، وبحيويته المتدفقة أمضى اليوم مع أصدقائه يضحك ويغنى كعادته بحيوية متدفقة وانفعال شباب، والحقيقة أنه كان يغطى ما

بداخله من ألم انزلاق البلاد نحو الديكتاتورية العسكرية، دون أن يكون فى مقدوره أن يقاوم المدفع بالقلم، وكانت النتيجة أن فاجأته أزمة قلبية مما استوجب استدعاء سيارة إسعاف لنقله إلى منزله بالزمالك. وهناك كانت الكارثة إذ كانت زوجته ورفيقة حياته ونضاله « سامية راشد» تطل من شرفة المنزل، فخيل إليها أن يوسف عاد إلى منزله جثة هامدة وأنها بذلك فقدته إلى الأبد، فأصابتها نوبة حادة من نوبات القلب لم تمهلها طويلا، وسرعان ما توفيت هذه الزوجة الوفية والتى لا ينسى «سعد» وغيره من الرفاق والأصدقاء مواقفها، خاصة أثناء فترة معتقل هايكستيب.

لقد كانت أختا لكل المعتقلين، تحمل إليهم الأخبار والشائعات، وذلك رغم عدم تعمقها أو تفهمها الكامل للمبادئ التى يكافح من أجلها زوجها.

لقد كانت مثلا رائعا للزوجة المخلصة، التى يجعلها الحب تقف مع زوجها وتؤمن وتدافع عما يؤمن هو به ويدافع عنه.

لقد أخفى أصدقاء يوسف عنه نبأ موتها، ولذلك لم يشترك فى تشييع الجنازة وهى التى لم تتركه لحظة. وعندما وصله النبأ بعد فترة طويلة، وبعد أن استعاد عافيته، كتب عنها مرثية فى الصحف فى سطور مؤثرة ودامعة.

كان لهذا الحدث وقع عميق فى نفس«سعد»، فقد وصل به التأثر إلى حد أن يجهش بالبكاء، إذ تراكمت عليه كل الضغوط، فسياسيا فقد الطريق لتكوين جبهة وطنية ضد الحكومة العسكرية، وعائليا فقد شقة ماسبيرو أو عش الزوجية المستقبلى إذ استرد صاحب العمارة الشقة بعد القبض عليه، وكذلك نفسيا بفقدان صديقه يوسف حلمى، والذى كان يمثل له الدينامو فى تخطى أى عقبات يواجهها فى الحياة، وفوق كل هذا ماديا بقطع مرتبه وإيقافه عن العمل فى أخبار اليوم، لحين ظهور براءته من تهمة معاداة النظام الحالى....

مجموعة أزمات واجهها «سعد»، وكان فى الإمكان أن تؤدى إلى تداعيات خطيرة صحية ونفسية، ولكن ثلاث شخصيات لم يتخلوا عنه ووقفوا إلى جانبه، كانت أولاهم مارى التى شجعته إيجابيا لاجتياز تلك المحن، والفنان حسن فؤاد ذو الحس المرهف،

وكانا يلازمان «سعد» طوال الوقت لإحساسهما بالأزمة التى يمر بها... أما الشخصية الثالثة فكانت الفنانة تحية كاريوكا التى لازمت مارى فى سجن مصر، وعرفت قصة حبهما، وواصلت بعد الإفراج عنها الاتصال بمارى لتطمئن منها على خطوات الزواج، وعلمت بالعقبات التى كانت تصادفها، لقد كان منطقيا أن تبتعد تحية بعد فترة من السجن عن الذين كانوا سببا فى سجنها، ولكن شجاعتها وإنسانيتها والتى هى جزء من شخصيتها جعلتها لا تتخلى عنهما، لقد وصفتها مارى بأنها لم تكن تعرف أن الرقص هو إثارة للشهوات أو الخلاعة ، كانت تعتبره فنا راقيا له أصوله وجذوره العميقة فى التاريخ، ورغم ثقافتها وتعليمها المتواضع والمحدود، فقد قامت بتثقيف نفسها بنفسها، وأصبحت فعلا سيدة مجتمع لها احترامها ووجودها، سواء بين الرجال أو السيدات.

لقد كانت أثناء فترة الاعتقال الأخت الكبرى للسجينات السياسيات، واللاتى كانت من بينهن سميرة الصاوى زوجة زكى مراد ومعها ابنها الرضيع ، وواجهت تحية إدارة السجن حتى سمحت بإدخال اللبن للرضيع، إلى جانب أن إدارة السجن كانت تعاملها كفنانة موهوبة، أما زميلاتها المسجونات وكن مارى وناعومى كانيل وسميرة الصاوى فكانت تمثل لهن الأخت الكبرى، فهى ترعاهن وتعد لهن قهوة الصباح باللبن، وكانت زنزانتها مفتوحة تستضيف الأصدقاء وتدير النقاش السياسى والاجتماعى. إذا اقتربت منها لا تشعر أنها نادمة لأنها سجينة، أو أنها قلقة على مستقبلها الفنى... وتضيف مارى فى قصتها مع تحية: إنها بعد الإفراج عنهما تلقت منها مارى مكالمة تليفونية، تطلب منها مقابلتها فى أحد المحلات المعروفة فى شارع قصر النيل، وسألتها مارى عن سبب اللقاء فقالت لها« أنا محتاجة لك»، وذهبت مارى ووجدتها فى حالة معنوية مرتفعة، وأخذتها إلى أحد بيوت الأزياء الراقية، وقالت لمارى « أنت عروستنا وعاوزه أقدم لك هدية الزواج» فاعترضت مارى على أساس أنه لا توجد نية الآن أو تفكير فى مسألة الزواج، أصرت تحية وتنبأت بأنهما سيتزوجان عاجلا! وخرجت مارى من المحل محملة بهدايا ثمينة واتجهت إلى منزلها وهى فى حالة ذهول من أن تحية تتقرب إليها، والمفروض أن تبتعد عنها إذ أنها وسعد من أسباب حبسها لمدة تزيد على الشهرين.

وفى المساء ذهبت مارى «لسعد» بمنزله ولبست طاقما من الأطقم المهداة لها ووجدت هناك حسن فؤاد، وما أن رآها لم يفهم مصدر تلك الثروة المفاجئة التى هبطت عليها، لتتحول إلى حسناء من الطبقة الراقية وليست خريجة سجون كما يعلم!

روت لهما القصة كاملة، وتأثر حسن فؤاد من هذا الموقف الإنسانى النبيل، وطرح مبادرة لتحقيق نبوءة تحية، وجعل هذا اليوم هو يوم زواجهما.

وتذكر حسن نسيبه (الأستاذ فريد) والخبير فى إجراءات إشهار الإسلام ثم زواجهما بعد ذلك، واتفقوا أن يقوموا بهذا العمل بعد يومين ، وفى الموعد المحدد وصل «سعد» ومارى وحسن وفريد إلى المحكمة الشرعية العليا فى الحلمية الجديدة، وتم إشهار إسلام مارى وتم عقد الزواج، وذلك بفضل المايسترو حسن فؤاد والمستشار« الأستاذ فريد» وبذلك تغلبا على أى تدخلات من جانب أفراد العائلتين، وختم حسن فؤاد مهمته بأن اصطحبهم جميعا إلى حديقة الشاى بحديقة الحيوان للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة...

وعاد «سعد» ومارى كل إلى منزله، على أن تكون ليلة الزفاف بعد تفاهم مارى مع والديها... وفعلا نجحت مارى فى إقناعهما لإقامة حفل زفاف فى منزل «سعد» ودعوة كل أصدقائها... وتم تحديد الموعد وقام «سعد» بتزيين منزل الدقى وإعداد البوفيه وكل مستلزمات الحفل، الذى حضره أصدقاء والدى العروس وكلهم من الجالية الايطالية بإستثناء والد ووالدة «سعد» ... وحضر المدعوون وكأنهم فى حفل عرس فى ميلانو أو روما، فاللغة الايطالية هى لغة التخاطب السائدة يتخللها العربى المكسر، وكانت البداية زجاجة شمبانيا ثم النبيذ بمثابة شربات الفرح مع موسيقى راقصة... وافتتح حلبة الرقص العروسان «سعد» ومارى ثم تبعهما بقية المدعوين وكانت ليلة مبهجة، مما ينبئ بزواج موفق وبداية سعيدة بعد قصة كفاح استمرت خمس سنوات بما فيها عقبات عائلية وسياسية!!

وبعد رحلة شهر العسل والتى لم تستمر سوى أسبوع قضياه فى منزل أحد الأصدقاء بالأسكندرية وعادا إلى منزل الدقى، وكان فى انتظارهما إعلان أحضره

مـخـبر مـن قسـم الدقى ورفض أن يتـركـه، ولابد من مـقـابلة «سـعـد» ومـارى للمـأمـور والتوقيع أمـامـه بالاسـتلام، لقد أقلقـهم هذا الإعلان ولكن مـا طمـأنهم هـو أن البوليس عادة لا ينتظر حتى الصباح إذا كان هناك أمر بالاعتقال!

وفى الصباح الباكر ذهبا إلى قسم الدقى، حيث وجدا فى انتظارهما إعلان بقرار الاتهام وإحالة القضية إلى المحكمة العسكرية العليا، وذلك فى شهر سبتمبر القادم أى بعد أقل من شهر ونصف.

ولمزيد من التفاصيل ولمعرفة الأخبار، توجـها إلى منزل يوسف حلمى بالزمالك ليفسر لهما التفسيرات القانونية فى القضية... وكانت المفاجأة أن يوسف حلمى تسلم مثلهما قرارا بالاتهام بإحالته للمحاكمة مثلهما، ثم أخذوا يقرأون الأوراق بعناية، لقد بلغ عـدد المتـهمين فى القضـيـة ٢٥ مـتـهـمـا، ومـا أسـعـد «سـعـد» أن «نجيب» و«تحيـة كاريوكا» لم يكونا من بين المتهمين.

تم تقديم الشيوعيين الذين لم يفرج عنهم مثل زكى مراد- شريف حتاتة - محمد شطا- ألبير أربيه- حليم طوسون - ناعومى كانييل- ريمون حبيب خريستوف ، غير أنه كان هناك من الأصدقاء كل من أبو بكر حمدى سيف النصر - مصطفى صدقى - وعبد الرحيم صدقى - وعلى يوسف عيد- والأخير لا علاقة له بالقضية لا من بعيد أو من قريب، فهو ضابط بوليس تخرج حديثا ويقطن بجوار مصطفى صدقى، ومن هواة تعاطى الحشيش مع عبد الرحيم شقيق مصطفى صدقى، والذى له نفس الهواية وكان يستقل السيارة معهم للحصول على الصنف وتعاطيه، دون أن يشارك إيجابيا لا فى توزيع المنشورات ولا حتى فى الحديث السياسى غير أن تقارير المراقبة كانت تثبت تواجده فى كل الوقائع!

أما بالنسبة للمتهمين المعترفين وهـم مفتاح القضية وشهود الإثبات وهم الدكتور محمد فؤاد منير- وخالد سلام-والدكتور عثمان غالب طلبة، فقد تمت إحالتهم للمحكمة ليصبح لشهادتهم وقع أقوى بدلا من تقديمهم كشهود إثبات.

لقد كان قرار الإتهام صريحا ويحمل رسالة لكل المصريين، وهى أنه لا مساس بالتنظيم العسكرى، وأن المحاكمة العسكرية مصير كل من يحاول ذلك !

لقد جاءت الاتهامات لهم بأن هناك اتفاقا جنائيا لتكوين جمعية سرية باسم «الجبهة الوطنية الديمقراطية»، تعمل على قلب نظام الحكم بالقوة وتعبئة الجماهير، وبأنهم قاموا بوصف القائمين على الحكم بأنهم عصابة عسكرية.... وبأنهم أداروا ونظموا فى ربوع الجمهورية المصرية، جمعية ترمى إلى سيطرة طبقة اجتماعية بعينها على غيرها من الطبقات، تحت اسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، بهدف إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ونقلها للدولة.....

لقد وصفوا قرار الاتهام بأنه ليس قرار اتهام جنائى ولكنه قرار اتهام سياسى، لمعاقبة كل من تسول له نفسه أن يفكر فى معاداة الحكم العسكرى....

لقد بدأت الثورة فى تصفية التجمعات السياسية، والتى كانت قد أعادتها خلال أزمة مارس، وكانت البداية مع جماعة الأخوان المسلمين، حيث حاول محمود عبد اللطيف وهو أحد أعضاء جماعة الأخوان المسلمين الاعتداء على جمال عبد الناصر فى اجتماع شعبى بالمنشية بالأسكندرية، وقد تم القبض عليه وتم تقديمه هو وبعض قيادات الأخوان آنذاك لمحكمة الثورة وصدرت أحكام قاسية، بلغت الإعدام للمتهم فى شروع بالقتل ولم تقتصر الأحكام على ذلك، بل طالت قيادات ومفكرى الأخوان وكان على رأسهم سيد قطب، الذى نفذ فيه حكم الإعدام وتم نشر وتصوير خطوات الإعدام والرعب الذى كان يملأ وجه سيد قطب، حتى يترسب هذا المنظر المفزع فى وجدان الجميع.

وفى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٤ عقدت أول جلسة لقضية «الجبهة الوطنية الديمقراطية» فى إحدى قاعات محكمة الجنايات بباب الخلق.... وتجمع فى قفص الاتهام المفرج عنهم مع المقبوض عليهم، لقد بلغ عدد المتهمين فى القضية ٢٥ متهما منهم سيدتان مارى وناعومى كانيل.

إمتلأت القاعة عن آخرها سواء بأقارب المتهمين أو الصحفيين، وكذلك وكالات الأنباء العالمية والمصورين الصحفيين، الكل فى انتظار المشهد الأول من المسرحية. وبدأت بصياح الحاجب بكلمة « محكمة» فعم القاعة صمت عميق وكأنها أصبحت خالية من البشر....

دخل القاعة ستة ضباط كلهم برتبة لواء ويتصدرهم اللواء فؤاد الدجوى... والمشهور باسم «جلاد الثورة» ... وقف الجميع وجلس الضباط على المنصة يتوسطهم الدجوى، منظر مبهر للنظر، الكابات الحمراء، والنجوم، والنياشين، تلمع لمعانا قويا.

والدجوى يفتتح الجلسة بصوت جهورى، ويوجه الأسئلة ويأمر وينهى كأنه فى معركة حربية يريد فيها تحقيق النصر على الأعداء!!

بدأت الجلسة وهى جلسة إجراءات حسب عرف القانونيين، إذ يتم فيها عادة مراجعة عامة للمتهمين، رشهود النفى، وشهود الإثبات، وطلبات المدعى والمحامين. وكانت البداية سؤال كل متهم على حدة «مذنب أم غير مذنب» وكانت الإجابة موحدة من الجميع «غير مذنب»، مع طلبهم جميعا أنهم معترضون على المحكمة العسكرية، لأن القضية ليس فيها استخدام للعنف وأنها قضية رأى... إلى جانب أن المتهمين الشيوعيين قد طالبوا بإثبات أنهم تعرضوا للتعذيب... وفى نهاية الجلسة إرتفع صوت اللواء الدجوى ليعلن تأجيل المحاكمة لمدة شهر، على أن تتم المحاكمة فى جلسة سرية لا يحضرها سوى المتهم ومعه محاميه فقط، وذلك لضمان حسن الضبط والربط فى المحاكمة، ولتمكين المحكمة من إصدار أحكام عادلة... هكذا اختتم اللواء الدجوى الجلسة الأولى...

مضت الجلسة الأولى بسلام، ولأنه لم يصدر رئيس المحكمة أمرا بالقبض عن المفرج عنهم منحهم بعض الأمل بأن تنتهى المحاكمة بالبراءة أو بأحكام مشفوعة بوقف التنفيذ، وأن الهدف فقط إنذار للمثقفين. «وقد أعذر من أنذر!!».

مضى الشهر الذى حدده اللواء الدجوى وبدأت جلسات المحاكمة مرة أخرى وكما هى العادة بدأ كل المتهمين يأخذون أماكنهم فى قفص الاتهام منذ الساعة الثامنة صباحا... والجلسة لا تبدأ فعليا قبل العاشرة ، كان ترتيب سعد فى قرار الاتهام رقم الثانى عشر، وتلته مارى الثالث عشر.

كان سعد ومارى فى بداية الجلسات متخوفين من المحاكمة، ومن هيبة جلسات المحاكمة.... ولكن بعد عدة جلسات زالت عنهما هذه الهيبة وبدأ المشهد يتحول إلى

مشهد من مسرحية كوميدية، إذ كان منظر اللواءات الستة وهم جالسون بجدية مفتعلة، وقد اعتنوا بأزرارهم النحاسية وعلامات رتبهم ونياشين المعارك الوهمية التى خاضوها.... وقد وضح بعد فترة أن أعضاء المحكمة لا يفهمون شيئا مما يدور حولهم، بل وكان يبدو على بعضهم أنه قد بدأ فى النوم أو فى التفكير فى أمور شخصية تهمه، وكان صوت الدجوى عندما يعلو ويبدأ فى معركته المسرحية، كانت تزعج الكومبارس المحيطين به ويهتزون لإيقاظهم من غفوتهم!

وعندما جاء الدور على «سعد»، وتم استدعاؤه ليجلس على الكرسى المخصص للمتهم فى مواجهة القضاة... تقليد غريب غير متبع إلا فى المحاكمات العسكرية، ليدللوا على أن المتهم قد نال كل الضمانات قبل الحكم عليه، سواء بالإعدام أو السجن المؤبد!!

وقف الادعاء وكان البكباشى إبراهيم جاد الحق، ولم يترافع أو يقدم أية أدلة بل لم يخرج عن مضمون قرار الاتهام بتنظيم، جبهة تضم العناصر الوطنية الحاقدة على الانقلاب العسكرى، والعمل على الإطاحة به، إلى جانب الانضمام إلى تنظيم شيوعى يعمل على إثارة الفتنة فى البلاد، والإطاحة بالنظام القائم بالقوة، وحض الفقراء على الفتك بالأغنياء!!

وفى الدفاع قام «سعد» بتفنيد كل ما جاء فى قرار الاتهام، وخاصة تهمة استخدام القوة، التى لم يوضح الادعاء أى وسيلة أو أسلوب أو طريقة لاستخدام القوة واستطرد قائلا..«إنها محاكمة سياسية وليست جنائية والمطلوب هو محاكمة أفكار المتهمين وليست أفعالهم!!»

ثم جاء الدور على مارى والتى قالت: إنها تحاكم على أنها اتهمت منذ عشر سنوات بالشيوعية، وتم الحكم عليها بالسجن لمدة ثلاث سنوات وقد قامت بتنفيذها، ورغم هذا فالادعاء يصر على أن يلصق بها نفس التهمة !!

والدليل على ذلك أن الادعاء لم يواجهها بأية اتهامات جديدة، والتهمة الوحيدة التى يوجهها الآن هى أنها زوجة سعد كامل، وأضافت فى دفاعها قولها: أنها تحاكم لأنها تتمسك بمصريتها، وكانت قد جاءتها أثناء اعتقالها لجنة من هيئة الصليب الأحمر، وأخبروها أن الحكومة المصرية على استعداد أن تتكفل بكل الإجراءات

والمصروفات المطلوبة لتهاجر إلى أى دولة تختارها، ولكنها رفضت هذا العرض لأنها ولدت فى مصر وستعيش لآخر يوم فى عمرها فى مصر.

وما أن عادت إلى القفص حتى انهالت عليها التهانى من قبل رفقاء القفص لمرافعتها العفوية والقوية فى مضمونها.

واستمرت الجلسات حتى جاء يوم أحسوا فيه بتكثيف الحراسة وتوجسوا شراً. وفعلا فى نهاية الجلسة وهى قبل الأخيرة، أصدر الدجوى قرارا بإلقاء القبض على كل المفرج عنهم وإيداعهم فى سجن مصر، مع بقية المتهمين المحبوسين على ذمة القضية من قبل، وفقد سعد ومارى الأمل فى استئنافهما الحياة الزوجية التى لم يمضيا فى كنفها سوى ثلاثة أشهر... وتم ترحيل مارى إلى سجن القناطر مع ناعومى كانيل، أما سعد فكان نصيبه عنبر ٦ فى سجن مصر مع باقى المتهمين فى القضية.

* * *

الفصل الخامس

من الليمان إلى الواحات

[٢٠]

يوم ضم الحديد

تختلف إجراءات النطق بالحكم فى المحاكم الجنائية عنها فى المحاكم العسكرية، ففى محكمة الجنايات ينطق المستشار بالحكم فى مواجهة المتهم فى قاعة الجلسة، أما المحكمة العسكرية فيتم تجميع المتهمين فى فناء السجن، ويتلو المدعى العسكرى الأحكام فى مواجهة المتهمين. وهكذا كان يوم إعلان الأحكام، إذ تم إحضار المتهمين فى فناء سجن مصر وأحاطت بهم فرقة من الجنود يرتدون زى الميدان، وبكامل أسلحتهم وذخائرهم، مما يوحى بأن الأحكام لن تقل عن الإعدام رميا بالرصاص!

وبدأ المدعى العسكرى (إبراهيم جاد الحق) يتلو الأحكام وفق ترتيب قرار الاتهام ، وكان جنود التنفيذ يسحبون من يصدر بشأنه الحكم إلى مركز تجميع، يضم كل مجموعة متشابهة فى الأحكام سويا..... فأحكام البراءة كانت من نصيب ضابط البوليس المسطول على يوسف عيد، ويوسف حلمى، أما زكى مراد، وألبير أريبه، فقد حكم على كل منهما بثمانى سنوات. وكان نصيب «سعد» ومارى الأشغال الشاقة خمس سنوات، وقد كانت أعلى عقوبة ١٠ سنوات أشغال شاقة وكانت من نصيب كل من شريف حتاتة، وحليم طوسون، ومحمد شطا، أما ناعومى كانييل فتساوت مع مارى بعقوبة ٥ سنوات.

وانتهت مراسم النطق بالحكم، وانسحبت الكتيبة العسكرية وأصبح التنفيذ تحت سيطرة قوات السجن.

وبدأت إجراءات الحاصلين على البراءة ، وتوجيه كل سجين نحو محبسه المستقبلى.

وفى لفتة إنسانية من ضابط برتبة ملازم أول، عرف أن مارى ستفترق عن زوجها لمدة خمس سنوات، وبحركة ذكية وبلهجة آمرة تم حجز مارى فى حجرة مستقلة، وأمر بإحضار المذنب«سعد» لمقابلته فى مكتبه، والذى تركه لهما لتتم المقابلة، والتى يعجز الإنسان عن أن يسجل هذه اللحظات التى بدا كل منهما متماسكا، وأخذ كل طرف يقنع الآخر بأن الأمر لا يزيد على كونه سحابة صيف تنقشع عن قريب! وصلت سيارة الترحيلات لتنقل مارى وناعومى كانييل إلى سجن القناطر. أما «سعد» والآخرون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فقد بقيا فى التأديب لليوم التالى ليتم «تقييفهم» قبل إرسالهم لليمان.

«والتقييف» مصطلح معروف فى السجون والليمانات، والمقصود به خلع الملابس – الملكية – وارتداء بدلة السجن الزرقاء. وبالنسبة لليمان يضاف إلى ارتداء بدلة السجن وضع الحديد فى أرجل المذنب.

ويبدأ التقييف بصرف بدلة السجن من المخزن، ولا يهم أن تكون بمقاس أكبر أو أصغر بالنسبة لفقراء المساجين، أما المساجين من أولاد الناس أو المساجين العتاة فالوضع يختلف، فهم يصرفون لهم بدلة بمقاس مناسب، ولذلك فهم يبدون متميزين عن زملائهم الفقراء.

وتتميز عقوبة الأشغال الشاقة عن عقوبة السجن العادى، فالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة تقيد أرجله بكلبشات حديد ذات أوزان مختلفة، تتناسب ونوعية العقوبة، كل المذنبين يبدأون بأوزان متساوية من الحديد، ثم يبدأ التخفيف تدريجيا على ثلاث دفعات ، فمثلا عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة والتى تصل لحوالى ٢٠ عاما، يتم تخفيض الأوزان على ٤ دفعات، بحيث يتم رفع القيود الحديدية نهائيا خلال ربع المدة الأخير.

أما بالنسبة لعقوبة الخمس سنوات، فيتم تخفيف وزن الحديد كل ١٥ شهرا، بحيث يكون فى ألـ ١٥ شهرا الأخيرة بدون حديد.

اصطف «سعد» ورفقاء اليمان، وتطوع سجين قديم بمساعدتهم بحكم خبرته

السابقة على ارتداء الحديد، والبداية حزام حول الخصر تتدلى منه سلسلة، تنتهى بخلخال حول كل قدم، ومن المفترض لحام الخلخال ليصبح من المستحيل خلعه، ولكن العرف الذى ساد أن لا يتم اللحام ليمكن للسجين خلعه قبل النوم، وإعادة ارتدائه كل صباح قبل الطابور.... لقد كان يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٤، يوم ضم الحديد، فهو أول يوم فى الحياة السياسية المصرية يتم فيه وضع الحديد فى أرجل المثقفين المصريين، عقابا لهم لاعتناقهم أفكارا تخالف أفكار الحاكم. وما أن انتهى «سعد» ورفاقه من وضع الأغلال الحديدية بدأوا يجربون الزى الجديد، وعلى عكس ما كان متوقعا لقد بدا أنهم سعداء بالزى الجديد، إذ أنه يتميز بصدور أصوات الحديد عند كل حركة، وأخذ كل منهم يستعرض بدلته للآخر، وسط التعليقات والقفشات، وتحولت المأساة إلى فكاهة بشرية، وبذلك تجاوزت كتيبة المثقفين هذه المحنة الإنسانية.

وجاءت عربة الترحيل لتنقلهم من سجن مصر إلى ليمان طره، حيث سيقضون مدة العقوبة، والليمان عالم آخر، يختلف عن دنيا السجون التى نعرفها ونسمع عنها ، وكثير من السياسيين تعاملوا مع السجون ولكن بالنسبة لليمان فهى دنيا وعالم آخر.

السجن له مساحة محدودة أما الليمان فيتميز بالمساحات الواسعة سواء داخل الزنزانة أو المكان المحيط به، وكل شئ فى الليمان عال ورحب، والهواء متجدد على عكس السجون التى تستقبل المتهمين لمدد قصيرة، لذلك فهواؤها راكد. شأنها شأن سجون الترحيلات والتى تستقبل المساجين لساعات لحين ترحيلهم، فلا إضاءة ولا هواء متجدد، والرائحة العفنة ولا شيء يهم، فالحجز لساعات معدودة. أما فى الليمان فسيبقى السجين لمدة طويلة قد تصل العمر كله.

وتشعر وأنت تدخل بقدميك هذا العالم الجديد، أنك انتقلت إلى دنيا أخرى لها تقاليد وعادات وأحكام، مخالفة للدنيا التى ولدنا وعشنا فيها، فالرتابة، والهدوء، والسيطرة الكاملة من الطبقة الحاكمة فيها، هو الانطباع الأول للوافد الجديد.

ومن المألوف أن ينادوا على نزيل السجن «يامسجون»، أما فى الليمان فيصبح النداء «يامذنب»، ويتولد إحساس أن داخل الليمان أعتى وأشرس المجرمين والقتلة،

المحتاجين إلى المعاملة التى تتناسب مع شراستهم وإجرامهم، إلى جانب أن عدد المسجونين يصل إلى حوالى ثلاث آلاف من المساجين، يتحركون بين المحجرة والمزرعة وورش الأثاث والتماثيل.

كل الأشياء هناك ضخمة مثيرة للهيبة، الأسوار عالية وأبراج الحراسة منتشرة، والعزلة التامة عن باقى المدينة، وحتى المساجين لهم أجسام قوية وقامتهم طويلة، وبشرتهم لفحتها الشمس بصبغة نحاسية. منحوتون.... صامتون كالتماثيل... حول سيقانهم ترن سلاسل الحديد عند كل حركة، حركة الرجال سريعة ومطيعة تنم عن نظام صارم جبار. المبانى من الحجر الأبيض تحيطه الحدائق والشجيرات والأحواش والممرات الرملية المرشوشة، ومكاتب الضباط يقف عند أبوابها حراس ومساجين دائما فى وضع الاستعداد، كأنهم فى انتظار صدور أوامر ليندفعوا على أثرها للتنفيذ فورا، كما أن هناك مبانى أخرى فى السجن قد لا تلحظها أبدا عند الدخول من بوابة الليمان، إنها مبانٍ مختفية فى أماكن بعيدة كأنها منفية.

ووصلت كتيبة المثقفين المذنبين إلى ليمان طرة. ونزلوا من عربة الترحيل ووقفوا طابورا منتظما كأمر الشاويش المنتظر، هم يسمعون ولا يتكلمون، وهم غير مصدقين أنهم قد وصلوا إلى ليمان طره الذى يسمعون عنه فقط. إنه مكان لاستقبال المجرمين العتاة والقتلة الذين يستحقون عقوبة الإعدام، وتم تخفيفها إلى عقوبة الأشغال الشاقة. إذ أن الأصل أن يتخلص المجتمع منهم ويتم تصفيتهم جسديا ، ولكن لأن المجتمع رحيم، يمنحهم فرصة أخيرة بإيداعهم الليمان، عله ينجح فى تهذيبهم وتأديبهم، كما جاء فى الشعار الموضوع على الليمان، وإلا التخلص منهم.

فى وسط هذا الذهول سار طابور المذنبين السياسيين بقيادة الباشسجان، إلى أن بلغوا عنبرا كبيرا، ثم صعدوا إلى الدور الثانى، وتسلمهم شاويش الدور، الذى قام بتسليم كل منهم برش وعدد ٢ بطانية، وجردل للمياه وآخر للتبول. وحملوا هذه الممتلكات الشخصية ودخلوا الزنزانة المخصصة لهم، وأغلق الشاويش الباب عليهم. مضت فترة سكون ثم بدأوا يتفحصون بيت المستقبل، الذى سيقضون فيه مددا تتراوح

ما بين ٥ و ١٠ سنوات كانت الزنزانة مستطيلة بالكاد تسعهم. أعلى جدارها الخارجي أربع نوافذ بقضبان حديدية. وضعوا جردل المياه قرب الباب. وجردل التبول في مكان آخر، وقاموا بتقسيم المساحة فيما بينهم بحيث يختار كل منهم المكان الذي يضع فيه فراشه لينام. ساد الوجوم مدة قصيرة، ثم ارتفعت الأصوات وتبادلوا الكلام والنكات، وبدأ الضحك يسري بينهم ليخفف صعوبة ما هم فيه.

وهكذا أمضى «سعد» اليوم الأول في الليمان وجاء الليل ، وجاء ميعاد النوم فاستسلم الجميع للنوم العميق، نتيجة للانفعالات النفسية التي كبتها كل منهم في نفسه، وكذلك لقناعة كل منهم بأن اليوم هو بداية الطريق لمرحلة كتب عليه أن يقضيها والمطلوب الخروج منها بأقل الخسائر.

حكم الأشغال الشاقة ، عرفته مصر منذ العصور الوسطى ، ويبدأ الحكم بارتداء الحديد في الأرجل، وتمضية فترة العقوبة في الطلوع للجبل، وتكسير الحجارة لإنتاج حجارة بأحجام منتظمة ومتساوية ، ينقلها قطار السكك الحديدية ليحمل الإنتاج وإعادة إستخدامه، الذي غالبا ما يكون في المشروعات الحكومية كبناء القناطر أو تعبيد الطرق.

إذن مفهوم الأشغال الشاقة في مصر ارتبط بالجبل.... وتبدأ رحلة الجبل في السادسة صباحا بإطلاق بروجي الصباح للاستيقاظ ، وأسرع شاويش العنبر بفتح باب العنبر، لمعرفته أن المقيمين في هذا العنبر يقعون تحت بند - مذنب مستجد - وبذلك فهم في حاجة لبعض الشخط والنطر، ليستوعبوا مراسيم الصباح التي مدتها لا تتجاوز نصف الساعة، يكون فيها المسجون قد انتهى من الاستعداد ليشترك في طابور الجبل، وأهم بند في مراسم الصباح دخول دورة المياه لقضاء الحاجة، وهو أمر ليس بالسهل، خاصة وأن هناك مشكلتين أولاهما الرائحة الكريهة، والتي سيتعود عليها المسجون بعد عدة أيام، أما المشكلة الأهم أن تحصل على دورك لاستخدام دورة المياه بأسلوب آدمي وبدون إزعاج من المنتظرين في الطابور !!!.. ولا يختلف إفطار الليمان عن السجون إلا في بند واحد وهو أنه يقدم خبزا ممتازا لأنه إنتاج الليمان، ويقدم

ساخنا لإنتاجه بواسطة المسجونين طوال الليل، وبعد هذا الإفطار السريع يتم توجيه المسجونين إلى طابور الجبل، والذى من تقاليده أن يبدأ التجهيز له فى ساحة السجن الأمامية، ويبلغ طول الطابور أكثر من نصف كيلو متر. وقد تم التخطيط له بإتقان، ولكل سجين مربع مخصص له، ولكل مجموعة من المذنبين مكان محدد فى الطابور.

لقد تم تخصيص مقدمة الطابور للمذنبين الشيوعيين.. فكل من يصل إلى موقع الطابور «يقرفص» فى المربع المخصص له ونظره إلى أسفل، فإن أى نظرة إلى أعلى قد تعنى للحراس بداية للتمرد، مما يعنى اللجوء إلى استخدام التأديب وبدايته الضرب بالعصى، وقد تنتهى إلى إطلاق النار والقتل، وبعد أن يتخذ كل مذنب موقعه يبدأ إطلاق بروجى الاستعداد، فيقف الآلاف على الأقدام ويحيطهم من كل اتجاه الخيالة، يقودها ضباط وجنود يحملون البنادق والمسدسات، وكل مجموعة يقودها شاويش معه «شومة» يستخدمها فى تقويم أى خروج على التقاليد الموروثة من قديم. ويصل مأمور الجبل وهو ضابط كبير ممتطيا جواده، ويحيط به ثلاثة ضباط مساعدين ، وما أن يقترب من الطابور بمسافة عشرين مترا تقريبا، يتوقف الخيل فى انتظار التمام. وهذا التمام يقوم به بتشاويش الجبل أمام مأمور الجبل، ويهتف بأعلى صوته :-

«تمام يافندم ألف وخمسمائة واحد وعشرين مذنبا» ويرد عليه المأمور: «طلع الجبل يا شاويش».

وكأن هذا التعبير هو كلمة السر، بعدها ترتفع الصفافير ويبدأ المذنبون الحركة، ولأنهم يرتدون الحديد فيعلو صوت قوى وكأن جنزيرا ضخما جداً يدور... آلاف السلاسل ترن برنين مكتوم، يتلوى الشريط الرمادى الطويل فوق الطريق الممتد، وعلى الجانبين الخيالة خطان متوازيان يتقدمان ببطء. وبعد مسيرة ما يزيد على ثلث الساعة يصل الطابور إلى نقطة النهاية. ويصطف الخيالة أعلى سطح الجبل، حتى يتسنى لهم مراقبة آلاف المذنبين الذين يعملون فى بطن الجبل، وأى هفوة قد تصدر عنهم يتبعها رد فعل مباشر وعنيف من الخيالة. ويبدأ العمل فى تكسير الحجر، وفى تحميل قطار السكة الحديد الواقف أمامهم. ولا صوت يعلو سوى صوت الشاويش كل فترة: «إعملك همة يامذنب».

ويصف شريف حتاتة هذا المشهد بقوله: إنه كتيبة المذنبين المثقفين وصلت إلى الجبل وهى لا تعرف ما دورها فى هذا العرض الكبير، وقفوا لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون!

واتجه نحوهم ضابط يقود حصانه وكأنه تعجب من هذا التجمع لمذنبين يبدو أغلبهم أنهم طلبة ، منظرهم يختلف عن باقى الطابور.

وقف الحصان فى مواجهة الكتيبة وأخذ الضابط ينظر لهم بكل علياء وفخر. وأشار بعجرفة إلى أحدهم وهو محمد شطا... وفى الغالب إنه انتقاه لأنه كان أضخمهم جسما وله شارب أسود كثيف. كأنه يقول بداخله فلنبدأ بأتخن شنب فيهم

- إنت.. أيوه إنت...تقدم خطوتين.

خطا شطا خطوتين إلى الأمام ووقف ينتظر.

- بتشتغل إيه؟

باشتغل عامل نسيج.

- عامل.. وإيه اللى جابك هنا؟؟

ظل شطا صامتا لا يرد.... وقال الضابط - ما ترد؟؟

إتحكم على بالأشغال الشاقة.

وضحك الضابط ضحكة قصيرة تحمل كثيرا من السخرية

- ما أنا عارف. أمال هيجيبوك ليه ؟ إنت عبيط ولا إيه؟

أصبح وجه شطا جامدا لا تتحرك فيه عضلة.. جسده المربع ثابت فوق الأرض عيناه فقط تتحدثان. مقلتان من السواد الغاضب.. الكتيبة تقف خلفه لا تقول شيئا... مال الضابط إلى الأمام ورفع حصانه فى وجهه. لم يرمش له جفن... من بعيد يصل إليهم صوت حجارة تتدحرج وتسقط... وصوت حديد يصطك بالحديد.... ردد الضابط سؤاله مرة أخرى

- باقولك إيه اللى جابك هنا ؟

شطا- قضية شيوعية.

- شيوعية ماعندناش حاجة اسمها شيوعية كلكم هنا مذنبون فاهم ؟ مش عايز أسمع الكلمة دى مرة ثانية

وأشار بعصاه إلى ركن منعزل من الجبل وأضاف

- تشتغلوا هناك... عايزين ربع عربية على آخر النهار. فاهمين ، خدهم يا شاويش.

وقال الشاويش :- حاضر يافندم - ياللا يامذنب إنت وهو.

ولكن لم يتحرك أحد من الكتيبة وبقوا فى مكانهم دون أى حركة، وتقدم شريف حتاتة إلى جوار محمد شطا وقال :- تسمح ياحضرة الضابط.

كان قد أدار حصانه.. مال ناحيته بنصف وجهه...

- عايز إيه إنت كمان؟. شريف يبذل جهده حتى لا يظهر القلق الذى بداخله فإن استثناء أى مجموعة من المساجين دون غيرها من العمل فى الجبل إضعاف للنظام، لذلك لا بد من إجبار الجميع منذ البداية على العمل وفق نظام الجبل، مما يستدعى أن يقاوموا وإلا دفعوا الثمن غاليا.

غير أن الضابط فوجئ بشريف حتاتة يقول: لن نعمل فى الجبل!!

وظل الضابط صامتا كأنه فقد النطق ثم تفتق ذهنه عن مخرج وقال:- مالك إنت ومال الباقيين. كل واحد يتكلم عن نفسه.

رد شريف قائلا : أنا مندوب عنهم.

أدار الضابط حصانه ليواجه الكتيبة

- اللى رافض العمل يتقدم خطوتين.

ولدهشته أيضا تقدم الجميع خطوتين كأنهم رجل واحد.. ظل يحملق فيهم ثم قال

-إنتوا طبعا عارفين إن ده إسمه تمرد... والتمرد فى الجبل عقوبته قاسية جدا.

قال شريف:- أطلقوا علينا الرصاص مش حنشتغل فى الجبل.

إلتفت الضابط إلى الشاويش والحارس قائلا:

- محدش منهم يتحرك من مكانه فاهمين يا غنم!!

إنطلق يعدو بحصانه نحو مبنى منخفض عند طرف الجبل.

تنهد«سعد» وقال: الله يخرب بيته ضابط حليوة صحيح ضحك الجميع.. فليكن ما يكون... لقد ألقوا كلمتهم وليس أمامهم سوى الانتظار، ومن حولهم عيون الحراس تختلس نظرات خاطفة إليهم... ومن بعيد كانت أيضا عيون المذنبين فى الجبل تحاول أن تفهم ماذا يحدث، وأخيرا عاد الضابط وتوقف مخاطبا الحراس دون أن ينظر إليهم وقال:

- يا بتشاويش خد معاك أربع عساكر ببنادقهم وارجع بيهم على التأديب.

ساروا فى صفين، وطوال الطريق سادهم صمت مطبق جميعهم كانوا يفكرون ويتساءلون ماذا بعد ؟ وماذا ينتظرهم؟

تقدموا فى هذا الصمت فوق المساحات الصفراء... وابتعدوا رويداً رويداً عن مئات المساجين.. والآن أصبحوا بمفردهم فى هذا الفراغ الأصفر الموحش الممتد بلا نهاية.

ويصيح الحارس:- إقلع مداسك يا مذنب أصول الليمان كده.

ورد شريف مش شغلك إنت وهو... هو أنا داخل جامع؟!

وشخط الشاويش فى عساكر واقفة وقال:- قلعوه البنص اللى هو لابسه!!

صرخ شريف بأعلى صوته:

- دخلونى عند المدير ماحدش يمد إيده علىّ !!

تجمد الحراس فى أماكنهم وأطلقوا سراحه، وجاءهم رجل نحيل ضئيل الجسم، يرتدى سترة عسكرية، وعلى صدره شريط ملون وقال:-

هاته إلى مكتبى ياشاويش عوضين، دخل المكتب... وارتدى الحذاء الذى سقط منه وأصبح فى مواجهة الضابط العظيم الذى جلس خلف مكتبه، وبكل تؤدة سأل شريف قائلا:

- إسمك إيه

رد شريف: اسمى الدكتور شريف حتاتة

-دكتور.

- نعم.

- طب.

- نعم.

- تقرب للواء صلاح حتاتة.

- أيوه ابن عم والدى.

- وإيه إللى جابك هنا ياسى شريف.

- قضية الجبهة الوطنية.

- جبهة... وإنت تبقى فى أى حزب بقى.

- فى الحركة الشيوعية.

- شيوعية!! وبتقولها كده.. حاجة غريبة... مالنا ومال الشيوعية موضة جديدة طلعت الأيام دى.. إيه اللى انت عايز توصله من الشيوعية بتاعتك دى البلد بخير والحمد لله.... وبقينا فى ثورة... والملك مشى... عايز إيه تانى؟ عايز الحمار زى

حصان السبق؟ ده نظام إيه ده... ربنا ماقالش كده الغريبة إنها ماتستهويش إلا أولاد الناس.. بذمتك أخدت إيه من الشيوعية أديك فى الليمان أهه... مش تفكر فى أهلك شوية ؟ وإيه الفوضى اللى كنت عاملها خارج المكتب... إنت فى الليمان هنا ولازم تحترم النظام.. وإيه حكاية الجبل... خد بالك من الكلام اللى حاقوله لك ده: إحنا هنا فى الليمان مش فى لوكاندة... لازم تشتغلوا فى الجبل زى غيركم... أى خروج على النظام مش مقبول حطيناكم فى التأديب... ودى أول خطوة... مافيش حاجة اسمها مندوب يتكلم نيابة عن غيره، كل واحد يتكلم عن نفسه... وفهم زملاءك كده...

من بكرة كلكم تخرجوا الجبل وإلا هنجلدكم!!

دق المأمور الجرس فجاءه أحد الحراس

– خده ياشاويش خليه يرجعه التأديب.

وعاد شريف إلى التأديب... وحضر عن الإدارة ضابط شاب ووقف فى مدخل العنبر، وتم فتح الزنازين وإخراج المساجين العشرة، وأكد لهم أنهم فى الليمان وليسوا فى لوكاندة، حتى يختاروا ويرضوا أو لا يرضوا، أو ليحددوا، واستطرد قائلا « عندنا فى الليمان أكثر من ألفى مذنب، يعنى لو مات منهم عشرة ما حدش حيقول لنا حاجة.. زميلكم شريف بيقول إنه بيتكلم باسمكم مافيش عندنا حاجة اسمه بيتكلم باسم حد.. كل واحد يتكلم عن نفسه.... من بكرة تطلعوا الجبل ولكم حصة زيكم زى أى مذنب... سيادة المأمور أمر بعودتكم إلى العنبر لأنكم مسجونين جدد، إنما أى تمرد منكم بعد كده عقوبته الجلد... أظن كلامى مفهوم... رجعهم العنبر يا شاويش».

وعاد العشرة إلى العنبر حيث استعادوا قول زكريا محيى الدين حول الشيوعية وبأنها ليست جريمة سياسية فقط، بل هى جريمة اجتماعية أخطر من السرقة والقتل!!

عادوا إلى العنبر الذى أصبح بمثابة منزلهم، وكل أصبح يحن إلى فرشته

عادوا دون أن يتكلم أحد منهم، الكل كان يفكر بمفرده فى محاولة ليتخذ قراره هل يستمر فى المواجهة ؟ وما هى الخطوة التالية؟ وكلام المسئولين عن الليمان واضح

وصريح ، فالليمان له أحكامه وأعرافه التى تختلف عن ما يدور داخل السجون، حتى إذا ذهب أحدهم إلى الإدارة لأمر ما لابد أن يخلع الحذاء ، لابد أن يشعر نزيل الليمان بأنه لا شئ وليس له أى حقوق، وإنما عليه فقط واجبات والتزامات!

وفجأة وبدون أى مقدمات تحول السكون الذى كان سائدا بينهم إلى ضجيج وتفكير بصوت مرتفع، كل منهم يتكلم مع من يجاوره والسؤالان هما : هل نواجه الآن ؟ وهل هذه المواجهة تكون فردية أم تكون جماعية أيهما أجدى ؟

وانتهى النقاش بقرار جماعى، لا بد من المواجهة فورا وبأسلوب مخطط ومنظم، حتى يفرق المسئولون بين المسجون السياسى والمسجون العادى.

وبدأوا التنفيذ ، فغدا الجمعة ولتكن البداية إعتبارا من غد بعد صلاة الجمعة يعلنون الإضراب عن الطعام، كما يبدأون إعداد مجموعة من البيانات بهدف تعريف كل الهيئات والمنظمات المحلية والدولية ، وأخرجوا الأقلام والأوراق من مخبئها.

أرسل «سعد» إلى يوسف حلمى يطلب منه الاتصال بحركة أنصار السلام الدولية ونقابة المحامين. كما طلب ألبير من والده الاتصال بالصليب الأحمر ، وأرسل زكى مراد إلى أصدقائه فى باريس. وتم الاتفاق على تنوع مصادر الاتصال دون الاعتماد على شخص واحد من حملة الخطابات، خوفا من أن يتصل بالإدارة ويواجه التخطيط بالفشل.

جاء موعد الغداء وتم إخطار شاويش العنبر بامتناعهم عن الطعام إلى أن تتم الاستجابة لمطالبهم. وعادت أوانى الطعام كما هى دون أن يمسها أحد.

شاع الخبر فى كل أنحاء الليمان. وبدأ كل من فيه يرقبون هذا الحدث الجديد، الذى كسر عنهم رتابة الأيام والخضوع التام للأمر والنهى، حتى أنهم أصبحوا كتلا صماء لا تحس ولا ترد.

كان من التقاليد فى الليمان تجميع مساجين كل مديرية (محافظة) مع بعض، ولكل مجموعة زعيم أو متحدث رسمى باسمها ، ويتولى هذا المنصب بالانتخابات

الصامتة، أى بالإجماع الضمنى على شخص يعتقد فيه أبناء مديريته أنه الأقدر على حمايتهم وتحقيق مطالبهم، سواء المشروعة أو غير المشروعة. قام هؤلاء الزعماء بإبلاغ المضربين تأييدهم، وأخذوا يشدون من أزرهم، وأبدوا استعدادهم لتقديم أى خدمات.

وجاءت وجبة العشاء ولم يمسها أحدهم، وهكذا بالنسبة للإفطار فى صباح اليوم التالى..ورفضوا أن يشاركوا فى طابور الجبل. وصدرت الأوامر بإعادتهم إلى التأديب، حيث يتم حبس كل واحد منهم حبسا إنفراديا، مع حرمانه من طابور الشمس.

وقعت إدارة السجن فى حيرة، فهى المرة الأولى التى يدخل فيها الليمان كل هذا العدد من المثقفين ، فهل يتم تطبيق اللائحة وتوقيع العقوبة التى هى الجلد وما هو رد فعل جلد المثقفين؟.

وجاء رد مصلحة السجون، بأنها تترك لإدارة الليمان حرية التصرف لإنهاء الأزمة دون أى خسائر !! ولجأت إدارة الليمان إلى أسلوب المهادنة، وبدأت بإخطار أهالى المضربين عن الطعام، فى محاولة لإقناعهم بالعدول عن الإضراب. وجاءت أسرة «سعد» بناء على طلب مأمور السجن للزيارة، وحضرت هذه الزيارة (كاتب هذه السطور) مع والدتى نيابة عن والدى الذى اعتذر عن الذهاب، وقابلنا مأمور السجن الذى أخبرنا أن استمرار «سعد» فى العصيان ليس فى صالحه، وأن لوائح الليمان تقضى بجلد المضرب عن الطعام خمس جلدات فى أول يوم، تزداد خمس جلدات أخرى فى اليوم التالى، وهكذا طول فترة إضرابه... وأنه لم يطبق هذه اللوائح على أمل أن تنجح الأسر فى إقناع أولادهم أن يتفهموا خطورة الموقف. وطلب المأمور إحضار المذنب «سعد كامل» وبعد فترة ليست بالطويلة، دخل عسكرى يعطى التمام ويقول «المذنب حضر يافندم» ... ودخل «سعد» وكان الإعياء باديا عليه، لكنه كان متماسكا رغم مضى أربعة أيام على بداية الإضراب... والشئ الذى لفت نظرنا هو حديد الأرجل ، كان المنظر يوحى بأن الإنسان أصبح وحشا كاسرا لكى تتعامل معه، لابد من تكبيله بالحديد من أرجله... أحس «سعد» بمشاعرنا وأننا مشفقون عليه ومن هذا الحديد الذى يكبله. لذلك أخذ يحدثنا أنه لا يشعر بثقله لأن هناك حزاما حول الخصر يخفف من ثقله، وأن وزنه

لا يزيد على خمسة كيلو جرامات ، ثم أخذ يطمئننا بأنه لا يشعر بأية متاعب جراء الإضراب عن الطعام، إذ يتم تعويض نقص الطعام بقلة الحركة والنوم... وبحركة سريعة وضع بضع خطابات فى حقيبة والدته وطلب منها أن تتابع إرسالها للعناوين المكتوبة، وكانت أمه قد أحضرت بعض المأكولات ولكنه رفض إستلامها إلا بعد الاستجابة لمطالبه ورفقائه، والتى تتلخص فى « منع السخرة لتكسير الحجارة»، ولخص الموقف فى أن الإضراب عن الطعام سيؤدى إلى الموت، وأنه ورفقاؤه قرروا الموت وهم وقوف بدلا من الموت وهم منكفئون. أحس المأمور بالإهانة وأن خطته قد فشلت ، وبصوت عال طلب العسكرى وأمر بإعادة المسجون للتأديب.

أصبحت إدارة الليمان فى مأزق ، إذ بدأت الحالة الصحية للمضربين عن الطعام تتدهور، بعد اليوم السادس من بدء الإضراب، وهذا مما يستدعى نقلهم إلى مستشفى لتغذيتهم عن طريق المحاليل المغذية، والخروج من الليمان من الأمور التى ترفضها الإدارة. إلى جانب أن الضغط الخارجي بدأ يتزايد، إذ وصل الليمان وفد نقابة المحامين وطلب مقابلة المحامين المضربين عن الطعام. وكانت إدارة السجن قد أنكرت أن هناك محامين مسجونين ، ولكن وفد النقابة أصر على عدم مغادرة الليمان قبل مقابلة «سعد» لتأكدهم من وجوده فى الليمان... وسبب ذلك حرجا كبيرا للإدارة خاصة وأن حالته الصحية لا تسمح بالمقابلة، فغادر وفد نقابة المحامين الليمان إلى مكتب النائب العام، وتقدموا ببلاغ بأن هناك جريمة قتل تتم فى ليمان طره. كما جاء وفد الصليب الأحمر ودخل عنبر التأديب، وأثبت فى دفتر أحوال السجن أن حالة المضربين الصحية فى خطر. كما نشرت الصحافة الأوروبية وخاصة فى فرنسا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، والاتحاد السوفييتى، بأن هناك فى مصر سجناء رأى معرضون للموت، وناشدوا القراء بالتضامن معهم، وأن يرسلوا احتجاجات للرئيس جمال عبد الناصر. وبدأت البرقيات والخطابات تنهال على رئاسة الجمهورية، تستنكر ما يجرى لهؤلاء السياسيين، وتطالب بإنقاذ أنصار السلام من الموت المحقق.

وجاءت التعليمات لإدارة الليمان بضرورة الاستجابة لطلبات المضربين، ولكن المشكلة أصبحت كيف يتم الاستجابة لذلك دون أن تنهزم إدارة الليمان ، خاصة وأن

أعين المسجونين أصبحت مفتوحة، مما يجعل من المستحيل أن تظهر الإدارة فى موقف المنهزم. فما كان من إدارة الليمان إلا أن أرسلت للمضربين بواسطة مسجونين آخرين من ذوى الحظوة، ولهم مكانتهم فى السجن ومميزون عن الباقين بزيهم المقيف، ويتجوالهم طوال النهار فى كل مكان، وهم يعملون فى تجارة الممنوع -سجائر وحشيش - إرسال خطابات - إحضار نقود من الأهل وبتنسيق محكم ما بين الإدارة وبينهم.

ومن بين هؤلاء عبد الهادى حسونة، وهو من وجهاء الصعيد، والذى أخبر «سعد» بأن هناك وعد شرف من المأمور بأنه إذا تم إنهاء الإضراب بهدوء دون أن يشعر أحد، فلن يتعرضوا لأى عقوبة، وستجاب المطالب، ويتم توجيههم للعمل بقسم التماثيل. كان العرض سخيا للغاية ، بل هو اعتراف من الإدارة بالهزيمة، وإيذانا بتحقيق أول انتصار لكتيبة المثقفين. وبعد موافقة كل المضربين بدأ تنفيذ الاتفاق، خاصة وأن بعض الزملاء قد تدهورت صحتهم.

شارك الدكتور شريف حتاتة فى وضع النظام الطبى لكسر الإضراب، والعودة لنظام التغذية العادية، وهو شئ ليس بالسهل، ويحتاج إلى خبرة طبية... وبمعرفة الإدارة تم إعفاؤهم من طلوع الجبل يومين استردوا فيهما صحتهم ليبدأوا المشاركة فى طابور الصباح.

* * *

[٢١]
حل الحديد

حددت إدارة الليمان موقع كتيبة المثقفين فى مقدمة طابور الجبل، كما كان قبل الإضراب عن الطعام، ولكن الجديد هو إحساسهم بالثقة بعد أن تحقق انتصارهم بأن يقتصر عملهم فى ورشة التماثيل. كان الجميع ينظرون إليهم وهم غير مصدقين لما جرى، هل هؤلاء العشرة فعلا أصحاب رأى يحسون مشاكل الضعفاء، أم أنهم أصبحوا الأقرب إلى رجال إدارة الليمان الذين استجابوا لمطالبهم؟!

وهكذا مضت الأيام فى ليمان طرة، عرفت الكتيبة شيئا من الاستقرار، قام كل فرد منهم بدق مسمار فوق مكان نومه، بعد أن تعلموا كيف يتخلصون من القيود الحديدية فى أرجلهم عند النوم ليعلقوها فى المسمار، ثم كيف يعيدونها إلى أرجلهم بأسرع ما يمكن عند حدوث أى تفتيش مفاجئ. ثم حددوا مساحة فى الزنزانة لتكون كمطبخ يستخدمونه فى إعادة طهى الطعام المنصرف لهم من إدارة السجن، وإعداد طبق السلطة يتم تصنيعها من الخضراوات التى يمدهم بها المساجين العاملون فى مزرعة السجن، وكان يوم الجمعة يوما مميزا، إذ فيه يتم تقديم طبق حساء باللحم يعده المسئولون عن توزيع الوجبات، وذلك مقابل دفع الثمن بكمية من دخان اللف.

كما نجح الفريق فى شراء موقد كيروسين من النوع الساكت، والذى كان يمثل لهم ترفا كبيرا، إذ كان يمكنهم من تجهيز الطعام، إلى جانب شرب كوب من الشاى، أو تسخين الطعام، وتم حفر حفرة واسعة وعميقة فى الجدار لتخبئة الموقد، وتغطية الجدار بقطعة من الكرتون عليها طبقة من الجبس الأبيض، بحيث يمكن إخراج وإدخال الموقد بسرعة عالية عندما تحين ساعة الخطر. كما تم إعداد مخبأ ثان تحت الأرض

غطاؤه كان قرصا تم قطعه بآلة حادة فى أسفل الأرض، يرفع ويعاد إلى مكانه من تحته حفرة كبيرة، أخرجوا منها كمية من كسر الحجارة والأسمنت والرمل، وأصبح مخزنا للأمانات يتم فيه حفظ الكتب والأوراق والأقلام والدخان والشاى وأمواس الحلاقة. كل هذه الاختراعات التى توصلوا لها، جعلت أفراد الكتيبة يشعرون بالاستقرار والهدوء النفسى، جعلهم فى حالة من الرضا والبعد عن أى مشاكل للإدارة.

وهذا الهدوء المريب من وجهة نظر إدارة الليمان.. جعلها تجند جواسيسها من المذنبين الآخرين علهم ينجحوا فى كشف هذا الهدوء المريب.

بعد عدة أيام سادت الروتينية حياتهم، يبدأون يومهم بتناول الشاى، وارتداء القيود المعلقة على الحائط، ثم الذهاب إلى موقعهم المحدد بمقدمة طابور الجبل فى طريقهم لورشة التماثيل، حيث يقوم كل منهم بأداء ما يريد فى حدود المتاح له، إما القراءة والتشميس، أو مناقشات جانبية حتى موعد الغداء، حيث يعيدون طهى ما يقدم لهم سواء كان عدسا أو فولا، حيث أنه من عادة الليمان أن يتم تقديم الطعام غير كامل النضج، كنوع من العقوبة أو الاستهتار بالمذنبين، غير أن إعادة طهيه تحوله إلى نوع من الطعام المستساغ، وفى الساعة الثالثة يصطفون مرة أخرى، والوجوه إلى الأرض كنتيجة للروتين والتكرار الممل للحياة وعدم إنتظار الغد، لماذا نستسلم ونمشى وراء المجموع؟ فلنرفع من روحنا المعنوية دون أى احتكاك بالإدارة، فلنرفع الرؤوس لأعلى ونمشى بخطوات منتظمة فى الطابور، وليكن الطابور منشطا للأجسام والنفوس.

بدأت الفكرة وتحمس الجميع لها، وبدأ محمد شطا بتنظيم الصفوف وينادى واحد... اثنين... واحد... اثنين، لقد نجحت الفكرة وتحول الخمول والخمود إلى نشاط وطاقة... واحد...اثنين...واحد...اثنين... المفاجأة أنه بعد مسافة ليست بالكبيرة انتقلت عدوى التنظيم إلى بقية الطابور الذى يبلغ طوله حوالى كيلو متر... فتدك الأقدام الأرض ويعلو رنين القيود، الأيدى والأذرع تروح وتجئ فى خط منسجم، فقدت الأكتاف انحناءها، وارتفعت الرؤوس فوق الأعناق، لم تعد العيون مثبتة على الأرض، أصبح الجميع ينظر إلى الأفق المتسع، أصبحوا يتطلعون إلى شئ بعيد، لقد انتعش الأمل

وعادت الحياة إلى الصدور.

الآن تحرك الجميع كرجل واحد وبإرادة واحدة... آلاف الأقدام تدك الأرض وأصبح للصوت الواحد وقع مغاير، وحتى القيود لم تعد تئن، لقد أصبحت تصدح... لقد لخص ما حدث الدكتور شريف حتاتة بقوله:-

نظر الشاويش خلفه باندهاش، إنفتح صدره كالديك وأخذ يلوح بعصاه، دار دورة كاملة وأخذ يسير بظهره وينادى بأعلى صوته «واحد اثنين» لمح فريق السياسيين الصغير فى مقدمة الطابور، وأشار لهم بمواصلة التقدم، لمعت عينا الشاويش، لقد أصبح قائدا عسكريا وعادت له أيام الشباب فى الجيش، لم يعد شاويشا على قطيع من المهزومين، لقد أصبح رجلا غير الرجل الذى كان، لقد علا صوته فى الفضاء، وبدون إدراك لما ينادى به علا صوته، وبصوت الواثق ينادى «حاذى على الشيوعية» «طابور الجبل واحد اثنين...»!!

«حاذى على الشيوعية» .. لم يدرك أحد من الليمان أهمية هذا النداء، إنه بداية الإدراك لمعنى التنظيم، لقد كان لهذا النداء أثره الكبير فى إزالة كل ما يشاع عن أن نزلاء عنبر ١٤ ليسوا من الشياطين، ولأنهم لا يعرفون دينا أو أخلاقا وأنهم لا علاقة لهم بالضعفاء والمساكين، لقد أصبح لدى الجميع رغبة ملحة لاكتشاف حقيقة تلك المجموعة، بدأت طلائع تقترب من العنبر ١٤ بحذر شديد، يملأهم الخوف... الخوف من مجموعة المثقفين والخوف من إدارة الليمان، والتى ربما تعاقب من يقترب من تلك المجموعة.

وكان ترحيب نزلاء - عنبر ١٤ - هو بداية لإزالة الشك فى النفوس، وبناء جسور الثقة، وبداية مرحلة جديدة يتبادلون عرض المشاكل والهموم، وهى مرحلة لا يصل إليها الإنسان، إلا عندما تزداد أواصر الثقة المتبادلة بين كل الأطراف.

وتم توزيع الاختصاصات على المجموعة.. «سعد» المشاكل القانونية.. زكى مراد الخطابات، إرسال واستقبال... شريف حتاتة مسئولية الطب والشئون الصحية و... و... ورويدا رويدا بدأت المشاكل والمعاناة الحقيقية لنزلاء الليمان، وتبين أن أكبر

مشكلتين هما : حديد الأرجل... والعمل فى الجبل.

وأنهما يهدفان إلى إذلال النفس، وإشعار السجناء بالخضوع والخنوع، وأن الإنسان داخل الليمان مجرد حيوان كاسر يتم تجنب شروره، لا بد من القسوة فى معاملته وتكبيله بالقيود... وتبين أن القيود ليست عائقا، إذ يمكن التخلص منها بسهولة، وهو ما يحدث قبل النوم عند كل مساء، أما تكسير الحجارة فبعد اختراع السيارات والشاحنات والأوناش والبلدوزرات، أصبحت تكلفة الإنتاج يدويا أعلى عشرات المرات من الإنتاج آليا.

أدى هذا التقارب السريع ما بين أفراد كتيبة المثقفين وغيرهم من نزلاء الليمان، إلى ابتكار فكرة طافت بذهن «سعد»، لمحو الأمية بين النزلاء الذين رحبوا تماما وأيدها كل زملاء الكتيبة.

وبدأت الخطوة الأولى، بأن أصبح المطلب الأساسى للجميع من خلال الزيارة الدورية، هو طلب كتب وكراريس وأقلام، إلى جانب المأكولات والفاكهة. وسرت العدوى للحراس، وهم خط الاتصال الأول بالعالم الخارجى، وأصبحت الأقلام وكتب محو الأمية على رأس احتياجاتهم اليومية.

لقد تحمس الجميع للمشروع، ففيه الأمل لتحقيق الذات، لقد تحولت الإقامة بالليمان إلى تجربة فريدة، أفادوا واستفادوا منها.

سجين الليمان ليس عابر سبيل، ولا راحلا إلى مكان آخر أو سجن آخر، لكنه جاء ليبقى لسنوات طويلة ربما لمدى الحياة، تملأه رغبة لتعويض مافاته وهو دائما فى حاجة لأن يتولد لديه أمل جديد.

لقد مضت سنوات حياته قبل الليمان، وهو يغوص فى ظلام الجهل والأمية، إذن ليبدأ صفحة جديدة من التعليم والمعرفة، قد تكون لحياته معنى أو طعم.

جمع «سعد» كل ما كان يجلبه الزملاء من كتب وكراريس وأقلام وهى الأدوات الأساسية لافتتاح المدرسة، بصفته مدير المدرسة، ومحمد خليل قاسم قام بدور ناظر

المدرسة، أما طاقم التدريس فكان كل نزلاء عنبر ١٤، وبدأت المدرسة بطالب واحد ثم طالبين... ويوما بعد يوم ارتفع عدد المواظبين على الحضور ليصل إلى أربعين طالبا، تم تقسيمهم إلى مجموعات على امتداد الأسبوع، وبدأت طلبات الالتحاق تتزايد، وصلت إلى حد الإلحاح واللجوء إلى الواسطة للالتحاق بالمدرسة، ولكن لضمان نجاح التجربة قرر نزلاء عنبر ١٤ غلق باب قبول مزيد من الطلاب لمدة ثلاث شهور، وهى مدة تخريج الدفعة الأولى، على وعد من لم يسعفه حظ الالتحاق هذه المرة أن تكون له الأولوية فى المرة القادمة.

طلاب الدفعة الأولى وهم أربعون طالبا فقط، كانوا يلتقطون الحروف والصور والكلمات بنهم، ويتابعون معانيها فهى تحمل لهم الكثير، ورغم أنهم رجال عركوا الحياة فإنهم كانوا يجلسون بين مدرسيهم كالأطفال، عيونهم تتابع الصور والحروف، وأصابعهم القوية تلتف حول الأقلام... ترتعش وهى تخط الحروف، هذه الأصابع التى اعتادت أن تلتف حول مقبض الفأس أو المحراث، أو المعاول الحديدية لقطع الأحجار. أصبحت حول الأقلام، ورغم أنها أصابع كبيرة وخشنة، إلا أنها كانت تسير بضعف على الورق، والخوف أن تفلت منها.

ومع مرور الساعات ومزيد من الجهد بدأت الحروف تستقر وتستقيم فوق السطور.. يوما بعد يوم.. وأسبوعا بعد أسبوع تتولد الثقة فى النفس ويزداد لمعان العيون وبريقها بهذه المعرفة الجديدة.

لقد كانت بحق تجربة إنسانية عميقة، عاشها «سعد» بكل كيانه، فلم يكن يتوقع كل هذا الحماس والإخلاص فى المشاعر فى وجدان هؤلاء الرجال... إنهم ليسوا كما يصفهم رجال الإدارة «بالمذنبين» إنهم المحرومون.. المتعطشون للحياة.

إنتهت الشهور الثلاثة.. قاموا بكنس الحجرة بل وغسلوا أرضيتها.. علقوا رايات ملونة عند النوافذ، أحضروا الشاى وأطباق معدنية من الحلوى

« يا زملاء... الدور علينا.. اليوم ده يومنا»

وبعد صلاة الجمعة صعدوا، إمتلأت الحجرة بعشرات المسجونين وملأوا أركانها وأسند بعضهم ظهورهم للجدران.. ووقف آخرون فى الأركان... أو خارج الحجرة عند الباب، ومن وجد مكانا للجلوس طوى ساقيه تحت الردفين ليفسح المكان للآخرين.

وقف محمد خليل قاسم وسط الزحام، وإلى جواره «سعد» ممسكا بأوراق سجلت فيها الأسماء... ساد صمت وحملقت العيون نحوهما تطل من الملامح الجامدة الجادة كأن مصيرهم معلق على سماع ما سيتلى عليهم بعد لحظات....

قرأ «سعد» الأسماء من الكشف، إنهم خريجو أول دفعة، بعد سماع الاسم يقوم صاحبه ليتسلم الشهادة، ويعانق الناظر والمدير وسط تصفيق حاد يرن لأول مرة فى عنابر الليمان، شربوا الشاى.... وأكلوا الحلوى.... ثم هبطوا جميعا إلى الدور الأرضى، حيث قاموا بفرش البطاطين وجلس المساجين تاركين مساحة من البلاط العارى... أخرجوا العصيان الطويلة من مخابئها ومعها الطبول... رقصوا بفرحة الرجل البسيط عندما ينسى همومه، لوحوا بالعصى فى الهواء تهوى دون عدوان، تهبط فوق الأكتاف برفق تنصرف عنه بلمسة من الود... عيون الوجوه السمر تبرق، والأقدام تدك الأرض بعنف، خلعوا الشيلان، ولفوها حول الأجساد، لتنتشى مع وقع الطبول.... الطبول تدق في العنبر الكبير، والأصوات تعلو بالمواويل بأحزان فيها لمسة فرح.... وأفراح فيها مسحة حزن، وأغان تنعى غدر السنين وفراق الأهل والأحباب.

لقد نجحت تجربة محو الأمية داخل الليمان، وإن كان المثل يقول - من علمنى حرفا صرت له عبداً - وبعد توزيع شهادات التخرج والإعداد للدورة الثانية، أصبح المثل من علمنى حرفا صرت له صديقاً، لقد أصبح الخريجون أصدقاء نزلاء عنبر١٤، لقد سقطت الحواجز وأصبح الطرفان يتبادلان الحديث، ويتفاهمان كما لو كانوا متهمين معهم فى قضية الجبهة، ساد بينهما الحب والحميمية، وأصبح كل منهما يصارح الآخر دون شك أو حذر. وأخذوا يبحثون السبيل لإنهاء ذل القيد الحديدى للأرجل وتكسير الأحجار....

تبلورت أفكارهم أن العمل فى المحجر لا يدر دخلا، بل بالعكس يكلف الدولة آلاف

الجنيهات، وكادت تنفذ أحجارها الجيدة... لماذا لا يتجهون إلى إنتاج الغذاء لأنفسهم ولغيرهم؟ خاصة وأن الزراعة مهنتهم الأصلية التى مارسوها منذ سنوات قبل أن يلتقوا فى الليمان.

فتحوا قلوبهم وعرضوا أفكارهم لأصدقائهم نزلاء العنبر ١٤.... إذا ما أعلنوا الإضراب أو الامتناع عن العمل، يعرضون أنفسهم لعقوبة التمرد، والتى تبدأ بالحبس الانفرادى فى التأديب، وتصل إلى الجلد وقد تتطور الأمور إلى إطلاق الرصاص، والتصفية الجسدية للمتمردين.

ما العمل حتى يحس المسئولون بمشاكلهم؟ وينتهى إحساسهم بالذل والإذلال.

وتفتق الذهن باللجوء إلى الإضراب البطئ أو الإضراب المقنع، وهو العمل ببطء وتكاسل، فإذا كان العمل فى تكسير الحجارة يمكن ملء عربة قطار السكك الحديدية يستغرق يومين، تزيد إلى أسبوع أو حتى عشرة أيام.

أخذت الفكرة تناقش وتوضع حلول لكافة الاحتمالات، وشارك الزملاء فى وضع الخطوات العملية المنتظرة... زعماء السجن وافقوا على الفكرة... وأصبح هناك رأى عام قوى، وتحول إلى عزم وتصميم.

وجاء اليوم المحدد للتنفيذ، كان كل شئ يسير عاديا ككل يوم.... تجمع طابور الجبل وبدأ صعود الجبل... كل فى مكانه والكل يعمل، ولكن حصيلة التكسير ضعيفة... القاطرة متوقفة، العربات شبه فارغة... ويتساءل الضباط والحراس... إيه الحكاية ؟ لماذا هبط الإنتاج لهذا القدر؟

ويجئ الرد من أحد النزلاء:

الجبل يا باشا إنهد.... ماعدش قادر يعطى.

كان الجزء الرئيسى والمتفق عليه مسبقا، احتمال استفزاز الحرس ورجال الإدارة، وهزيمة الضعفاء معناه العذاب والهوان، احتمال الإهانات الفردية والاستفزازات المفتعلة والمستمرة لمعرفة ما يجرى، هل هناك مؤامرة مدبرة يتزعمها بعض الأفراد...

إنه صراع بين القوى والضعيف، القوى غير مصدق أن البرغوث بدأ يتمرد ! والبرغوث بدوره غير مصدق بأن الفيل يتألم!!

وسريعا ظهر رد الفعل، يصعد المأمور إلى الجبل عله يجد حلا لقلة إنتاج المحجر، وتم إعداد تقارير تؤيد أن الجبل إنهد فقد تم استنزافه!

وأخيرا انتصر الضعفاء، وتم إقرار بعض مطالب نزلاء الليمان ومن بينها: إلغاء القيود الحديدية، وعقوبة تقطيع الحجارة، والسماح للنزلاء بشراء أطعمة وسجائر من كانتين الليمان، فى حدود خمسة جنيهات فى الشهر.

يشعر الإنسان بلذة الحياة مادامت هناك انتصارات وهزائم... والمهم هو أن لا تتبلد الأحاسيس، ويتحول الإنسان إلى جماد دون تفاعل بمختلف المشاعر الأساسية، الفرح والحزن والأمل

وأخيرا أعلنت إدارة الليمان حل الحديد، بل وسمحت للنزلاء بأن يحتفلوا بذلك بطريقتهم الخاصة... كان كل نزيل ينزل من العنبر وبإصرار وحزم يتجه إلى الفناء الأسفل، ويخلع كلبش الحديد ويلقيه وسط الفناء، غير أن كبير مساجين قنا أبى أن تمر المناسبة هكذا.... وقف بمفرده فى مكان مرتفع فاتجهت إليه الأنظار... خلع الحزام الجلدى حول وسطه وترك القيود تسقط على الأرض، رفع قدمه اليمنى وفك الحلقة المربوطة حولها، ثم رفع قدمه اليسرى وفك الحلقة المربوطة حولها، ثم انحنى والتقط القيود ورفعها بذراعيه الاثنين عاليا فوق رأسه، ثم ألقى بها بكل قوة على بلاط الفناء، فجاء صوت الارتطام فى سكون العنبر عاليا كما لو كانت طلقة مدفع، وصاح بصوت عال« لعنة الله على الظالمين» وخلال دقائق معدودات، قام العشرات بل المئات، بل كل نزلاء الليمان بنفس العمل، وعلا الهتاف مدوياً «لعنة الله على الظالمين».

كان كل سجين يخلع القيود ويلقيها على كوم الحديد الذى أخذ يرتفع، ثم يدور حوله دورة كاملة ويبصق عليه ثم يعود أدراجه صاعدا لأعلى، استمر الطابور يهبط ثم يصعد... وتجاوزوا مرحلة التمام وأضيئت الأنوار... ورنين القيود يتوالى وهى تلقى فوق التل الذى أصبح أسود، والصفوف الصامتة تطل من الأدوار العليا للعنبر..

لقد تحققت العديد من الانتصارات والمكاسب، سواء لفريق السياسيين نزلاء العنبر ١٤، أو لكافة نزلاء الليمان. يكفى أنهم انتصروا على لوائح مصلحة السجون الموضوعة منذ عام ١٨٨٥ مع بداية الاحتلال البريطانى لمصر واستمر النظام يسير دون أى تغيير أو تبديل... إذًا ما هو العنصر المتغير الذى أحدث هذا التغيير الجذرى؟

وجاءت لجنة تحقيق من وزارة الداخلية لبحث الأمر، ووقفت على كثير من الأمور من بينها: فصل محو الأمية، والعلاقات الودية بين السياسيين وبقية المساجين. لقد انتهت لجنة التحقيق إلى أن ما حدث كان خطأً فادحًا، كيف سمحت الداخلية والمخابرات العسكرية بوضع البنزين بجوار النار!

لقد أوصى التقرير بضرورة الفصل بين السياسيين والمساجين العاديين، وضرورة عزلهم فى مكان آخر بعيدا عن مصلحة السجون.

وفجأة.... وبدون مقدمات، وقاطنو عنبر ١٤ يغطون فى نوم عميق، يضاء العنبر فجأة، ويفتح الباب، ويدخل مأمور الليمان بذاته، وهو إجراء غير عادى، فالمأمور يصدر الأوامر ولا ينفذها... ولكن ماذا فى الأمر؟

* * *

[٢٢]

الواحات ذهابا وإيابا

« كل واحد يجهز نفسه، كلكم حتسيبوا الليمان وحتشرفوا فى الواحات!» هكذا أعلنها مأمور الليمان لنزلاء عنبر ١٤، والتنفيذ خلال ربع ساعة فقط، فالقطار الذى يقلهم فى انتظارهم أمام باب الليمان. لملموا حاجياتهم بعد أن أفاقوا من المفاجأة، وكانوا قد وطدوا أنفسهم على هذا النمط من الحياة، وحرص أحمد طه أن ينقل معه وابور الجاز، فقد كان بمثابة كنز ثمين له، فحمله داخل ثيابه وبدا كما لو كان بكرش ضخم!

جهزوا أنفسهم، واستقلوا عربة الماشية المغلقة، التى تجرها قاطرة السكك الحديدية، وانطلق القطار ببطء كأنه يبحث عن الطريق.

أشعل «سعد» سيجارة وعلق على الموقف قائلا: «ياسلام على كباية شاى دلوقت!» ولم يكسر عنصر الرهبة والترقب سوى إنشادهم وبصوت واحد « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى.» إلى أن وصل القطار إلى القاهرة، والناس يستيقظون على هذا الهتاف المتواصل، دون أن يعرفوا ماذا فى الأمر!

وتم قطر عربة الماشية مع قطار الصعيد، الذى بدوره بدأ رحلته متجها إلى سوهاج، والتى وصلها بعد أكثر من ١٨ ساعة، حيث هناك يتفرع خط السكك الحديدية إلى الواحات، وهو يختلف فى مواصفاته كثيرا عن سكك حديد مصر، إذ تضيق المسافة بين القضبان وتجره قاطرة ضعيفة الجهد. كانت العربة التى أقلتهم إلى الواحات مزودة بحراسة مشددة لإمكانية النزول من القطار أثناء السير، إذ أنه بطئ جداً.

تركوا الوادى بخصبه ونمائه، أصبحوا فى حضن الصحراء التى أطبقت عليهم، كانت السماء من فوقهم والصحراء من حولهم.... وليس هناك ما يلفت النظر... بذل القطار كل ماعنده من جهد وإمكانيات، وبعد ١٢ ساعة بالتمام والكمال من محطة نجع حمادى، وصل القطار إلى بلدة الداخلة، وهى عاصمة إقليم الصحراء الغربية، ولا تزيد على كونها إحدى قرى الصعيد، بمنازلها المتواضعة وشوارعها البدائية.

وكان فى انتظارهم لورى، إستقلوه وأخذ يشق طريقه فى الصحراء للوصول إلى قرية جناح، وهى أكثر تواضعا من مدينة الخارجة، وتبعد عنها حوالى ٢٠ كيلو مترا. حيث معسكر اعتقال الواحات الذى تم اختيار موقعه بعناية فائقة.

فهو بعيد عن أى تجمعات للسكان، وبه مصدر للمياه يتم استخراجها بواسطة طلمبة ضخ يدوية.

كان المعسكر يستقبل المحكوم عليهم بالسجن من الشيوعيين أو من الإخوان، وكذلك المعتقلين من الفريقين ويضم ٢٠٠ خيمة، وبكل خيمة ٥ أسرة، أى أن سعته تصل إلى ١٠٠٠ سجين أو معتقل، مما يؤكد أن الاعتقال أو السجن هو مصير كل من يخرج عن الفكر السياسى «الواحد» الذى يفرضه النظام الجديد.

استقر الرفقاء فى الخيام المقامة وخلدوا إلى النوم بعد رحلة السفر الطويلة، والتى امتدت إلى ما يزيد على يوم ونصف تقريبا، دون أن يحصلوا خلالها على أقل الضروريات للحياة من مأكل ومشرب.

بعد أن استردوا أنفاسهم، بدأوا مهمة استكشاف الوضع الجديد فى الواحات... وكانت نظرية معسكر الاعتقال تقوم على أساس العزل هو الأفضل لهؤلاء المنحرفين، إذ أنه يجنب الأسوياء انتقال عدوى أفكارهم الهدامة إليهم!!

وكان أهم ماتحرص عليه إدارة المعتقل هو عزل هؤلاء المعتقلين تماما عن المجتمع... لا تصلهم الصحف أو أخبار الراديو أو حتى خطابات الأهل والأصدقاء. الزيارات رغم أنها لم تكن ممنوعة ولكنها عمليا من الصعوبة بمكان، لعدم وجود وسيلة لمن يريد سوى القطار الخائر القوى، الذى يقطع الطريق فى أكثر من ١٢ ساعة. وكانت

وسيلة اتصالهم بالعالم الخارجى من خلال السجانين الذين يمدونهم بكل متطلباتهم خلال أجازاتهم الشهرية، بما فيها الكتب والمجلات. وكانت أسعد لحظاتهم هى حصولهم على راديو، مما جعلهم يشعرون أنهم ما زالوا جزءا من المجتمع، وتمكنوا من متابعة الأحداث الجارية، ووصل بهم الأمر إلى أن بدأوا فى عقد ندوات، تعلق على أهم الأنباء العالمية والمحلية التى يسمعونها من خلال الراديو.

كان كل من فى معسكر الاعتقال يعمل، إما فى تجهيز الخبز، أو إعداد الطعام، أو إحضار المياه من على بعد أكثر من كيلو متر، أو زراعة واستصلاح الأراضى لإنتاج ما يلزم من خضر يستهلكونها، وكانت مجموعة المثقفين تشارك فى كل هذه الأعمال.

ولسد الفراغ الثقافى داخل المعسكر إقترح «سعد» بناء مسرح، ولقيت قبولا كبيرا. استعان «سعد» بزملاء المعتقل من المهندسين المتخصصين فى أعمال البناء. ولعدم وجود الأخشاب اللازمة لإقامة المسرح استخدموا مادة « الطفلة» المتوافرة فى هذه الصحراء، ولكن الأمر يتطلب أولا استخراجها، ثم صب المياه عليها، ووضعها فى معجنة وإضافة الرمل والقش لها وتقليبها بالفؤوس، ثم دكها بالأرجل وتصنيعها طوبا أحمر اللون، له قوة تحمل كبيرة جدا... وتم تقسيم الزملاء إلى فرق، فرقة لإحضار الطفلة بالمقاطف، وفرقة للخلط، وفرقة للدهان، وفرقة لعمل الطوب... الحماس بلغ مداه وازدادت أعداد المتطوعين على حاجة العمل، فتم تقسيمهم إلى عمال أصليين وعمال احتياطيين، وبعد تجهيز الطوب المطلوب، بدأت فرقة البناء فى إعداد قاعة المسرح.. من المسرح والكراسى، وكل ما يلزم تم بناؤه فى فترة زمنية قصيرة لا تزيد على ثلاثة أسابيع، بعدها حدثت المعجزة وأصبح هناك مسرح فى وسط الصحراء الغربية مجهزا بكل المتطلبات اللازمة لتقديم عرض مسرحى. حتى متطلبات الإضاءة تم تجهيزها وفق الإمكانيات المتاحة.

وتحدد يوم الافتتاح، واستعد له جميع من فى المعتقل، بتقديم فقرة أو بالمشاهدة، وذلك بغسيل الملابس وارتداء الملابس المناسبة للذهاب إلى المسرح، وكان قد تم إعداد برنامج الافتتاح ويتضمن العديد من الفقرات المتنوعة والتمثيلية، وامتدت لأكثر من ساعة.

لقد نجحت تجربة مسرح معتقل الواحات، فى تعظيم إرادة المعتقلين وتفويت فرصة تحويل السجناء إلى جسد بدون عقل، لقد كانت هناك لجنة من بين المعتقلين تقوم بوضع ومتابعة برامج العمل المسرحى، كانت تتضمن تنظيم وإعداد التمثيليات والأغانى، لقد انتصرت إرادة الحياة، وأصبحت اللقاءات مستمرة مثمرة ومتجددة، بل وتضاعف من قدراتهم وإمكانياتهم.

وكان يوم إعلان عبد الناصر قرار تأميم قناة السويس يوما مشهوداً، لقد سمعوا الخبر من الراديو الذى نجحوا فى تهريبه، وما أن أعلنها عبد الناصر لم ينتظروا حتى ينتهى الخطاب، بل انطلقوا من خيامهم، وجمعوا كل ما وقعت عليه أيديهم من مخلفات داخل المعتقل وأشعلوا فيها النار، وصعدت ألسنتها إلى عنان السماء، ورقصوا من حولها رقصة مجنونة، كأن الأجسام تريد أن تتخلص من القيود التى تثقلها، ومن العذاب المختزن فى الأعماق، كانت الرقصة أقرب إلى الزار، لقد توحد الجسم والعقل وأصبحا شيئا واحدا، أو كأن العقل ذهب ليبقى الجسم يمارس الحركة الحرة التى حرم منها... لقد عاشوا فى تناقض غريب بين السعادة والألم، كانوا سعداء بتأميم قناة السويس، وفى نفس الوقت كان يعتصرهم الألم لأنهم منسيون فى قلب الصحراء!

ثم وقع العدوان الثلاثى، فتقدموا إلى إدارة المعتقل بأن يشاركوا فى القتال دفاعا عن الوطن، وأن يشكلوا كتيبة فدائية من أفراد المعتقلين، عاشوا فترة تناقضات، فرغم أنهم مصنفون على أنهم أعداء للوطن، هم فى نفس الوقت مستعدون للتضحية من أجل الوطن.

* * *

كان فتحى رضوان المدرس الأول «لسعد»، سواء فى المحاماة، أو حب الوطن، أو العمل العام، وذلك بحكم أنه شقيق والدته، والخال والد- وحتى عندما انسلخ فتحى رضوان من مصر الفتاة - وقام بتشكيل اللجنة العليا للحزب الوطنى، شارك «سعد» معه فى عضوية اللجنة العليا، وكذلك فى إصدار مجلة اللواء الجديد، مما ساعد فى

دعم مسيرة الحزب وأصبح من أحزاب المعارضة القوية والقوى، السياسية التى شاركت فى المطالبة بمحاربة الاستعمار الإنجليزى، حتى أنه تم اعتقالهما معا فى معتقل الهايكستيب بعد حريق القاهرة وحتى الإفراج عنهما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو.

وبعد ذلك بدأت الرؤى تختلف، كان فتحى رضوان يرى أن الثورة هى نتاج لمبادئ مصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد، وأن الوقت قد حان للمشاركة فى الحكم. فى حين وجد «سعد» أن طريق اليسار هو السبيل أمام مصر، وأن العهد الجديد ليس نهاية الكفاح، إنه شكل جديد للاستعمار مما يتطلب مواصلة العمل الوطنى.

إذن فاختلاف الرؤى جذريا، مما جعل فتحى رضوان يطلب من ابن شقيقته أن يحسم الأمر، إما طريق اليسار أو العهد الجديد. فاختار «سعد» طريق اليسار، فكان الفراق بينهما فى حين أصبح فتحى رضوان وزيرا فى حكومة الجيش، كان «سعد» مطاردا ومحاكما ومسجونا بين ليمان طره والواحات.

لم يكن الوضع هينا على فتحى رضوان، فهو يعرف «سعد» جيدا، ويعرف أنه مخلص لوطنه وإن كانت توجهاته مخالفة للحكومة، فهو مجرد اختلاف فى وجهات النظر لأنه فى النهاية يتم لصالح الوطن.

كتب فتحى رضوان فى كتابه «خطى العتبة» ، ما يؤكد هذا الصراع الداخلى الذى كان يعيشه، لقد ذكر أنه كان يستقل سيارة الوزارة فى طريقه إلى حلوان وأنه أثناء مرور السيارة أمام ليمان طره لمح شقيقته - منيرة - والدة «سعد» أمام الليمان، وهى تحمل عامود الأكل وسلة الفاكهة والخضراوات، فشهق شهقة عالية، إلى حد أن سائق الوزارة قال له: - «خير يا باشا فى أى حاجة؟ » فرد عليه الوزير قائلا: - « أبدا فقد تذكرت أحد أصدقائى يمر بأزمة ونسيت أن أمر عليه حتى أقف معه فى أزمته».

هذا ما كان فى داخل فتحى رضوان كان يتمنى أن يقف مع «سعد» فى أزمته ولكن الوضع اليوم لا يسمح بذلك خاصة وأن شقيق خالد محى الدين وابن عم زكريا محى الدين وزير الداخلية وقتذاك (عمرو محى الدين) كان معتقلا فقد كان الشعار السائد « تأمين الثورة فوق كل شئ» ومع ذلك فقد عرض فتحى رضوان أمر «سعد»

على الرئيــس جمال عبد الناصر فى أحــد لقــاءاته لعرض موضوعات وزارية فطلب عبد الناصر من زكريا محى الدين بالتليفون الذى كان رده بأنه سيتولى علاجه فى أحد المستشفيات بالقاهرة، إذا ثبت أنه مريض!!

ولم يتوقف فتحى رضوان عن طلبه كلما سنحت له فرصة، وقد حانت أخيرا عندما التقى وزكريا محى الدين أثناء حفل زفاف أحد الضباط فوعده بالتنفيذ، وفعلا تم سؤال «سعد» وهو معتقل فى الواحات عن مرضه الذى يشكو منه؟ فطلب «سعد» أن يرد فى اليوم التالى ليخبرهم بالمرض الخطير الذى يشكو منه!! فأفاده رفيقه فى السجن الدكتور شريف حتاتة أن أحسن مرض يحتاج إلى علاج بالقاهرة هو القئ المستمر!! وسريعا جاءت الموافقة على ضرورة ترحيله إلى سجن مصر بالقاهرة توطئة لعرضه على الأخصائيين.

وامتدت رحلة السفر إلى القاهرة إلى أكثر من ٣٦ ساعة وصل إلى سجن مصر وتم عرضه على أخصائيين فى الأمراض الباطنة بمستشفى أحمد ماهر بباب الخلق فقرروا حجزه للعلاج، وتم تخصيص حجرة خاصة له بحراسة جنديين. خلع «سعد» ملابس السجن وأصبح على صلة وثيقة بأهل منزله، وتحولت حجرته إلى صالون ثقافى يتردد عليه الأطباء فى المستشفى، بدءا من الشباب حديثى التخرج، ووصولا إلى كبار الأطباء الذين تعاطفوا مع أفكاره ومع ظروف سجنه، فجاءت كل التقارير الطبية تشير إلى أنه يحتاج إلى علاج طويل، خاصة وأن وجوده بينهم فى المستشفى فتح لهم آفاقا واسعة للمناقشة والتفكير، والتنفيس عما فى صدورهم من آراء وآلام!!

توطدت علاقات الصداقة بينه وبين العديد من الأطباء وعلى الأخص الدكتور على ماجد أستاذ الجراحة، ورغم أنه من قيادات المستشفى فقد كان يمضى كل أوقات فراغه فى حجرة السجين «سعد»، الذى يقف على باب حجرته جندى بسلاحه، وآخر رابضا فى شرفة الحجرة، ولم يعبأ الدكتور على ماجد بما يثيره الآخرون حول صداقته بسجين سياسى ضد النظام القائم.

واستمر الحال على هذا المنوال طوال ثلاثة شهور، ودائما ما كانت التقارير الطبية التى يقدمها المستشفى، بأن المريض يحتاج لعلاج مستمر ومكثف. وبحسن نية

خالصة كتب أحد الأطباء أن حالة المريض مستقرة بما يتطلب العلاج بصفة مستمرة في المستشفى، وحين راجعت الإدارة الطبية فى مصلحة السجون التقرير، اعتبرت أن استقرار الحالة يعنى أنه فى الإمكان عودته إلى الليمان، مع صرف العلاج اللازم تحت إشراف الوحدة الطبية بالليمان.

وصدرت الأوامر بعودته إلى ليمان طره.

وكانت كارثة بالنسبة «لسعد» إذ أنه من المصنفين على أنه سجين سياسى،ولما لم يتبق فى الليمان من السجناء السياسيين سوى الأخوان، فقد تم تسكينه معهم بأحد العنابر، والتى تضم تسعة من الأخوان وهو العاشر. لقد أصبحت إقامته بينهم شيئا مستحيلا، أو بمعنى أصح أقصى عقوبة يتعرض لها الإنسان، هى أن تلازم إنسانا له فلسفة وتوجه فى الحياة مختلف عنك، فمثلا يتم إيقاظه قبل شروق الشمس لصلاة الفجر.. إستيقظ يا أخ... الصلاة خير من النوم!!

ويعقب الصلاة درس دينى، يحضره التسعة دون العاشر، الذى له توجه آخر لا يتمشى مع التوجه العام فى العنبر.

بعد ثلاثة أيام فقط من وصوله إلى الليمان، طلب من إدارة الليمان ترحيله إلى سجن الواحات!!

سادت إدارة السجن كثير من الدهشة، حين طلب «سعد» ترحيله إلى الواحات، وعلى الفور بعثوا بأحد المحققين برتبة لواء لسؤاله عن الأسباب وراء طلبه البعد عن القاهرة، حيث الأهل والأصدقاء وإمكانية العلاج، فكيف يطلب النفى بعيدا هناك فى الصحراء!! تأكدوا أنه لا يشكو من شئ سوى الصحبة (صحبة الأخوان المسلمين) . وافقت مصلحة السجون على ترحيله إلى سجن الواحات، وأخيرا عاد إلى الأصدقاء والزملاء بعد جولة سياحية امتدت لما يقرب من نصف العام.

استقبله الزملاء استقبالا حارا، ونظموا له حفلا ساهرا بالمسرح الذى كان قد شارك فى بنائه، وتم عرض العديد من الفقرات الفنية التى تم إنتاجها خلال غيبته، وكان من أهم فقرات السهرة، محاضرة ألقاها عن انطباعاته لأهم الأحداث السياسية

خلال الشهور الستة الماضية. وفى اليوم التالى كانت هناك ندوة تناقش الانطباعات التى طرحها «سعد»، وكانت الندوة صاخبة وحامية، شارك فيها شاهدا حيا على الأحداث بعد أن كان اعتمادهم فى التعليق على الأحداث، من خلال الراديو المهرب فقط.

ومضت الأيام سريعا فى الواحات، فهناك برامج عديدة وعليه أن يشارك فيها، لعل أهمها تنمية مزرعة الصحراء، والتى تبلغ مساحتها ٨٠٠ متر مربع، ورغم قزمية المساحة كان إنتاجها وفيرا. وكان الحراس يمدونهم بالتقاوى الممتازة عند عودتهم من إجازاتهم بالقاهرة، بدلا من الأصناف المحلية ضعيفة الإنتاج. كما شارك الدكتور شريف حتاتة فى ترجمة كتاب مهم، عن الإقتصاد العالمى، بقلم الاقتصادى العالمى «بابى»، تحت اسم «مبادئ الاقتصاد الرأسمالى» . وكانا بعد أن ينتهيا من ترجمة جزء، يفتحون باب المناقشة مع الزملاء الآخرين حول الأفكار التى وردت بالكتاب.

فكما أن لسجن الواحات ميزة الحركة والمناقشة والانفعال، كانت من عيوبه القاتلة الانفصال التام عن العالم الخارجي. فالزيارة من الأهل كانت من المستحيلات، ورغم ذلك فإن الزيارة إذا حدثت، كان يقوم بها أهالى المساجين الفقراء، فهم وحدهم القادرون على تحمل رحلة العذاب والسفر لمدة ٣٦ ساعة، للوصول إلى السجن الذى يبعد عن محطة سكك حديد الخارجة بأكثر من ٢٥ كيلو مترا، فالمعاناة هى الحياة الطبيعية عندهم!

ولذلك كانت الخطابات والمراسلات التى يحملها حراس المعتقل أثناء إجازاتهم، هى الوسيلة الوحيدة لمتابعة أخبار العائلة والأصدقاء. وكانت هناك زيارة شهرية لأحد الحراس لأهل مارى – زوجة سعد– يقوم فيها بتسليم وتسلم الخطاب الشهرى الذى يربط مابين الزوجين... وكان كل طرف يقص على الآخر تفاصيل ما يحدث له وآراءه ومشاعره. كانت مارى تقضى عقوبتها مع مجموعة من السجينات السياسيات فى سجن نساء القناطر، وكانت تمتدح مأمور السجن، وتصفه بأنه ذو حس وطنى مرتفع، وأنه يعاملهن أحسن معاملة فقد خصص لها وزميلاتها الأربع، حجرة أسفل مستشفى السجن بها كل لوازم الحياة، وما يعينهن على احتمال مشقة تمضية هذه السنوات المحكوم بها عليهن.

وتحركت عقدة الذنب لدى فتحي رضوان مرة أخرى، خاصة عندما علم أن شقيقته لم تزر سعد منذ عودته لمعتقل الواحات لصعوبة السفر إلى هناك. فبدأ يطالب زكريا محيى الدين مرة أخرى، بأن يعيد «سعد» للقاهرة للعلاج وتحديدا بمستشفى الدمرداش الجامعي، لأنها المستشفى الوحيد بالقاهرة التي بها علاجه!!

وكان قد اختص مستشفى الدمرداش، لأن مدير المستشفى كان هو الدكتور إبراهيم حسن، شقيق زوج أخت فتحي رضوان.

ونجحت المساعي، وفعلا صدر قرار وزير الداخلية بإعادة «سعد» إلى القاهرة للعلاج في مستشفى الدمرداش. وبوصول «سعد» إلى المستشفى أمر مديرها بعرض «سعد» على كونسلتو، يضم أطباء من كافة التخصصات، لتحديد القسم المناسب لعلاجه. ولأن المرض لم يكن موجودا أصلا ولذلك كان تحديده من الصعوبة بمكان. فاستقر رأي الأطباء على علاجه بقسم الأمراض النفسية.... لقد كان قرارا حكيما فعلا فقد كان هناك الكثير من المفاجآت في انتظاره.

* * *

[٢٣]

عبد الناصر يكسر القاعدة

في قسم الأمراض النفسية بمستشفى الدمرداش، التقى «سعد» بطبيب شاب، الدكتور أحمد عكاشة -٢٣ عاما - حينذاك - وهو شقيق ثروت عكاشة، أحد الضباط الأحرار الذين ساهموا بفاعلية فى انقلاب ٢٣ يوليو. وعرف عن ثروت عكاشة إتجاهاته اليسارية، حيث رأس تحرير مجلة «التحرير» بعد تنحية أحمد حمروش، وهى المجلة التى كان يصدرها الجيش فى بداية الثورة. كما كان معروفا عن ثروت عكاشة، أن له اهتمامات ثقافية تقدمية. كما أن الدكتور أحمد عكاشة، نسيب الكاتب الصحفى أحمد أبو الفتح رئيس تحرير جريدة المصرى، والمؤمن إيمانا كبيرا بالدستور وضرورة عودة الحياة الديمقراطية لصالح أجيال المستقبل. وهكذا كان فكر وثقافة الدكتور أحمد عكاشة مزيجا لأفكار كل من شقيقه ثروت عكاشة، وقريبه أحمد أبو الفتح.

أظهر مدير المستشفى الدكتور إبراهيم حسن، عدم اهتمامه بالسجين الوافد «سعد»، ولكن حرصا منه على استمرار إقامته بينهم بالمستشفى، خصص له حجرة مستقلة فى قسم الأمراض النفسية. وكان الدكتور أحمد عكاشة من أكثر المترددين عليه بصفته طبيبا مقيما فى القسم، وثانيا لأنه وجد فى «سعد» حاجته الثقافية والسياسية والإنسانية. وأخذت العلاقة بينهما مع الأيام تنمو وتتوثق، وكان التعايش فى مختلف أمور الحياة لا ينقطع.

وكما كان الحال فى مستشفى أحمد ماهر، تحولت حجرة «سعد» فى مستشفى الدمرداش إلى منتدى ثقافى وسياسى، يشارك فيه أطباء المستشفى المترددون على الحجرة. وكان أحمد عكاشة يشعر بمرور الوقت بتقارب الآراء والأفكار بينه وبين

«سعد» ، وظهرت نتائج هذا التقارب بما كان يرويه الدكتور أحمد عن «سعد» فى منزله، حتى أن السيدة والدته شعرت بتعاطف نحو «سعد»، واعتبرته أحد أفراد الأسرة، وكانت تجهز له مأكولات متنوعة ترسلها إليه مع ابنها الدكتور أحمد. كما كان شقيقه ثروت رغم مشاغله الكثيرة اهتم أيضا بهذا السجين المعجب به شقيقه أحمد، واتسعت دائرة الحوار وأصبحت تضم: سعد- أحمد- ثروت. فالكل يسأل ويجيب عن طريق أحمد عكاشة.

تشاء الصدف فى ذلك الوقت، أن يترك فتحى رضوان - أول وزير للثقافة فى مصر- منصبه، لإحساسه أن دوره قد انتهى كوزير، وأنه لا يستطيع أن يقدم المزيد خلال فترة الوحدة مع سوريا، إلى جانب رغبته فى العودة إلى المحاماة. وكانت المفاجأة أن من حل محله هو الدكتور ثروت عكاشة. كان أحمد سعيدا بتولى شقيقه ثروت وزارة الثقافة، ووجد فيها فرصة لبداية التعاون بين «سعد» وثروت، من الآن وقبل نهاية مدة العقوبة، مما يؤكد عمق الصداقة التى نمت بين سعد وأحمد، ولكن «سعد» كان أكثر واقعية لمعرفته حساسية الثورة ضد الشيوعيين وتم تدعيم خط الاتصال بين «سعد» والوزير مرورا بالدكتور أحمد، فى الحدود التى يتحملها الحكم.

وذات يوم داخل حجرته بالمستشفى، فوجئ «سعد» بالوزير ثروت عكاشة أمامه وجها لوجه، وكان عسكرى الحراسة قد ترك بندقيته فى حجرة «سعد»، وذهب ليلعب الورق مع المرضى فى العنبر المجاور.

وبدأ الوزير حديثه «لسعد» قائلا: إنه حاضر للتو من مقابلة مع الرئيس جمال عبد الناصر، وقد أخطره بأنه سوف يتوجه بعد ذلك لمستشفى الدمرداش لزيارة «سعد» ورد عبد الناصر عليه ضاحكا (إنت تبقى مجنون). وكان لهذا الحديث الممتلئ بالود والصداقة الأثر فى كسر حاجز المفاجأة، وانطلق الحديث بين كل الأطراف، واستطرد ثروت حديثه عن مقابلته لعبد الناصر وإيمانه الشديد بأهمية الثقافة فى تطوير المجتمع، وإصراره على أن يحقق لثروت حلمه الثقافى، الذى كان دائم الترديد له والذى ذكره به عبد الناصر، والذى يقوم أساسا على اتساع المتعة الثقافية بدلا من

احتكارها فى رقعة ضيقة، ويستمتع بها الأثرياء فقط دون باقى طبقات الشعب، وأن تخرج الثقافة من أسوار القاهرة والإسكندرية لتصل إلى القرى والنجوع.... واستمر الحديث إلى حد جعل «سعد» ، يشعر وكأنه صديق قديم لما كان يتمتع به من بساطة فى الحديث، إلى جانب عزة نفس، وثقة عالية بما يؤمن به.... لقد استمرت الزيارة ما يقرب من ساعتين مضت وكأنها ثوانٍ، ولكنها نجحت فى أن تقرب بين الأطراف الثلاثة، لتكون بداية مشروع صداقة متينة مستقبلية.

لقد كانت زيارة ثروت عكاشة «لسعد» فى محبسه بالمستشفى تجديدا للأمل بأنه قادر على تحقيق أحلامه وآماله... وراوده الشوق لمقابلة مارى، وأخذ يفكر فى وسيلة لتحقيق هذه الأمنية المستحيلة.... وإلى أن قرأ خبرا فى الصحف، بأن قريبه المستشار سليمان مراد قد أصبح الرجل الثانى بعد النائب العام، وكان من اختصاصات النيابة العامة متابعة تنفيذ أحكام القضاء، والإشراف على معاملة المسجونين... فلماذا إذن لا يطلب «سعد» زيارة مارى فى سجن القناطر!! وعلى ذلك أرسل طلبا إلى النائب العام الذى أحاله بدوره إلى المستشار سليمان مراد، لإبداء الرأى، خاصة وأنه لم يحدث من قبل أن سجينا قام بزيارة زوجته السجينة... وكان من رأى النائب العام رفض الطلب لأنه ليس من اختصاص النيابة مراقبة الأزواج جنسيا... فذكره سليمان مراد بضرورة تنفيذ عقوبة « الزواج»، وضحك النائب العام وكتب على الطلب « أوافق لأسباب إنسانية» .

وتم اللقاء الفريد من نوعه، وكان حافزا لرفع الروح المعنوية لكليهما، وعاد «سعد» من الزيارة ليعرف أنه تحدد للإفراج عنه الأسبوع الأخير من فبراير ١٩٥٩، وهكذا بدأ من أول فبراير يتحول من عد الأيام إلى عد الساعات، فأصبح طوال اليوم ينتظر ميعاد النوم ليتخلص من يوم، ويستقبل يوما جديدا يقرب من موعد الإفراج... ولكن الأجواء السياسية آنذاك لم تعد صافية، كانت هناك غيوم وسحب بدأت تظهر كنتيجة مباشرة لمشاركة الحكومة المصرية فى تصفية ثورة عبد الكريم قاسم بالعراق، كما أن الحزب الشيوعى برئاسة خالد بكداش لم يوافق على الوحدة بين مصر وسوريا، مما أزعج السلطات المصرية. إلى جانب المناوشات الكلامية بين الاتحاد السوفييتى والحكومة

المصرية، وهذه الأجواء تجعل احتمال عدم الإفراج عنه فى الموعد المحدد أمرا واردا، مما جعل «سعد» فى حالة نفسية متقلبة بين الأمل والقنوط.

إلى أن جاء يوم الإفراج وتحقق الحلم، وبدأت الخطوات التنفيذية للإفراج، وأولها عودته لسجن مصر ليتسنى استلام متعلقاته.

عاد «سعد» إلى منزل العائلة بالدقى، وكان سؤاله الأول هو، ما هى أخبار مارى؟ وجاءته الإجابة بأنها سيفرج عنها فى اليوم التالى، كان خبرا مشجعا ليجهز لها حفل استقبال يتناسب مع هذا الحدث الكبير، ولقاء بعد فراق خمس سنوات.

لقد أصبح منزل الدقى مهيأ لاستقبال سعد- مارى، بعد أن تفرق أفراد العائلة، فكل من أخوته استقل فى منزله ووالده ووالدته يقيمان لفترات طويلة فى مزرعة الفيوم. أخذ «سعد» يعد لهذا الاستقبال التاريخى، واضعا التليفون فى مكان مميز، فهو الذى سيعلن عن الإفراج وأنها فى الطريق إلى المنزل... الدقائق تمر ويزداد قلقا، كان يقترب من التليفون ويرفع السماعة ليتأكد أن الحرارة مازالت موجودة... وأخيرا دق جرس التليفون ليعلن أن مارى فى الطريق إلى المنزل... ودق جرس الباب ليجرى «سعد» ليفتح الباب. إنها مارى.

وقررا ألا يردان على التليفون، ولا يفتحان الباب، ولا يتكلمان مع أحد لمدة ٣٦ ساعة، ليعوضا فترة غيابهما عن الحياة... إنهما يريدان أن يعوضا ما افتقداه خلال خمس سنوات.

ومضت فترة استعادة النفس ومواجهة مشاكل الحياة، المشكلة الأولى تنفيذ حكم المحكمة بأن يوضعا تحت المراقبة لمدة عامين... مما يستوجب التوجه إلى نقطة بوليس كوبرى الجلاء للإبلاغ عن مكان إقامتهما، ليتسنى للشرطة مراقبتهما. وكانت تقاليد المراقبة تقضى بأن يتواجد المراقب فى مكان إقامته من غروب الشمس إلى شروقها، وأن يتم التفتيش عليه بواسطة عسكرى الدورية أو فرق تفتيش من نقطة البوليس، ويقومون بالتوقيع فى دفتر المراقب، وإلا اعتبر الشخص المراقب قد هرب من المراقبة... والهرب من المراقبة جنحة يعاقب عليها المراقب بالسجن من شهر إلى ثلاثة أشهر...

وبالطبع فإن المراقبة والحد من الحرية كل ليلة كانت محنة، ولكنها تهون أمام فقد الحرية بالكامل.

ثم بدءا يتحسسان طريقهما للتعرف على الصورة الواقعية للحياة خاصة وأن معظمهم أمثال حسن فؤاد وأبو العينين وزهدى، وزكى مراد، إما معتقلين أو فى انتظار اعتقالهم. ولم يتبق لهما سوى أن يتلمسا الحياة الاجتماعية مع الأقارب.

ولم تفتر علاقته مع الدكتور أحمد عكاشة، بل كانا على اتصال دائم، وأبلغه أن ثروت عكاشة وزير الثقافة آنذاك دائم السؤال عنه، ويرحب بزيارته إليه بمكتبه، وكان «سعد» يرى أن موضوع الزيارة للدكتور ثروت بمكتبه يحتاج إلى تفكير، وخاصة وأن علاقة اليسار بالدولة مترديه وقد تسبب الزيارة ضررا له.

وكان «سعد» ومارى يعتمدان فى حياتهما المعيشية على المعونات العينية من والدى سعد، إذ كان يعدان لهما وجبات الطعام والخضر والفاكهة ويزودان ثلاجة المنزل بما يحتاجانه. كما كان أشقاؤه الثلاثة يمدونه بالمساعدات المالية، حيث يتبرع كل منهم بما يوازى جنيهين شهريا. أى أن الحصيلة النهائية لا تتجاوز الجنيهات الستة، ورغم ضيق ذات اليد فقد كانا فى غاية السعادة من الحرية التى طال حرمانهما منها.

مضى شهران وهما راضيان تماما بنعيم الحرية، ولكن البوليس لم يوافق أن يستمر الحال كذلك، إذ تم اعتقال مارى بدعوى أنها لا تحمل الجنسية المصرية، ولا أية جنسية أخرى. وكان الحل الوحيد أمام «سعد» اللجوء إلى هيئة الصليب الأحمر الدولية، فهى الجهة الدولية الوحيدة القادرة على إجراء الاتصالات بكافة الدول، لإقناعها بمنح الجنسية للإنسان الذى تتهمه بلده بأنه ليس مواطنا مصريا رغم أنه ولد فى مصر ويعيش على أرضها، ولكن لا عجب فقد ذكر زكريا محيى الدين منذ بداية الثورة أن «الشيوعيين أخطر من اللصوص والقتلة!!»

وتحدد موعد لجلسة تحديد مصير مارى بمقر وزارة الداخلية.

وذهب «سعد» وهو يشعر أنها معركة ضده هو شخصيا. وحضرت مارى من

محبسها، وكانت فى حالة استنفار تام، فهى تدافع عن كيانها كله.. الماضى... والحاضر والمستقبل.

رأس الجلسة التى حضرها مندوب الصليب الأحمر ضابط من الداخلية، الذى افتتح الجلسة قائلا: إننا نجتمع لصالح مارى، ذلك أنها ستحصل فورا على الجنسية لأى دولة تنتقيها، إلى جانب أنها ستجد فى هذه الدولة تسهيلات فى العمل والمعيشة سيقدمها لها الصليب الأحمر. وجاء دور مارى فى الحديث فقالت « لقد ولدت فى مصر، وعشت وسجنت فى مصر، وزوجة لرجل مصرى، وأطلب أن أعيش فى بلدى مصر».

لم يكن مندوب الصليب الأحمر يتوقع هذه الإجابة، بعد أن قدم عرضه السخى السابق، ليسأل مارى بعض الأسئلة الخاصة، ومنذ البداية شعرت نحوه بمثابة أب، وليس موظفا يؤدى عملا روتينيا، وتحدث معها بالفرنسية والتى لا يفهمها مندوب الداخلية، وقال لها « تشجعى ولا تخافى وسنحقق لك كل رغباتك»، لقد كان لهذه الكلمات أكبر الأثر فى رفع معنوياتها وإحساسها بأنها كسبت التحدى، وعادت إلى محبسها على أمل الإفراج عنها.

إستأنف «سعد» حياته وحيدا يحدوه الأمل فى أن تكون عودة مارى قريبة ولكن دائما لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن، فقد ظلت مارى فى محبسها، وعانى «سعد » كثيرا من الوحدة، ولكن شاءت الظروف أن أشاركه فى وحدته، فبعد أن كنت قد تركت المنزل وتزوجت فى منزل بالجيزة، ولما كنت عضوا فى نقابة الزراعيين وكذلك زوجتى وقتذاك، أعلنت نقابة الزراعيين عن رحلة لقضاء يوم فى القناطر الخيرية، وتحمست والعديد من أصدقائى للمشاركة فى تلك الرحلة النيلية الممتعة.

ووصل عدد المشتركين فى الرحلة إلى ٢٠٠ شخص، ما بين أعضاء النقابة وعائلاتهم، وقامت النقابة بحجز الباخرة « السودان» من وزارة الأشغال لأنها تستوعب أعضاء الرحلة. ولكن حدث أن طلبت رئاسة الجمهورية فى الوقت نفسه الباخرة « السودان»، لرحلة نيلية لرئيس الجمهورية مع ضيفه جعفر النميرى رئيس جمهورية

السودان، ولأنه لا شئ يعلو على صوت الرئاسة، فتم استبدالها بالباخرة «دندرة» بدلا من «السودان» ، رغم معرفة وزارة الرى أن حمولة دندرة لا تزيد على ٩٠ راكبا، تمشيا مع مبدأ «ربنا يسهل» «وربنا يستر»، فقد قامت الرحلة ولكن يبدو أن الله لم يرض أن تسير المركب بحمولة تزيد على قدرتها أكثر من مرتين، وانقلبت دندرة فى النيل وأغرقت ما يزيد على ستين شخصا من المهندسين وأفراد أسرهم.

وهكذا أصبحت بعد غرق زوجتى فى الحادث رفيقا «لسعد» فى وحدته، خاصة وأنه كان فى أمس الحاجة لمن يواسيه أيضا، وأكد الحدث أن هناك مصائب أكبر من مصيبته!.

لقد تناقص عدد الزوار من أصدقاء «سعد» ،كنتيجة طبيعية لموجة العداء المتزايد من قبل النظام ضد اليسار وكل من يقف مؤيدا لليسار، غير أن الدكتور أحمد عكاشة لم ينقطع عن الاتصال بل وزيارته «لسعد» فى منزله، وكان معظم الحديث يدور بينهما حول جهود الدكتور ثروت فى تنظيم العمل فى وزارة الثقافة، ولم يبخل «سعد» فى أن يبعث للوزير من المقترحات، التى امتدت لتشمل ترشيحات للمناصب القيادية فى العمل الثقافى، واستجاب الوزير فعلا للكثير منها وأهمل بعضها، ولم يكن «سعد» ينتظر فى ظل الظروف السياسية السائدة آنذاك المتوترة أكثر من ذلك، إلى جانب أن أحمد عكاشة أخذ يعد نفسه للسفر إلى لندن للحصول على الدكتوراه فى الطب النفسى. وكان المطلب الوحيد «لسعد» من أحمد قبل سفره، هو أن يسعى شقيقه ثروت للاتصال بعبد الناصر وكمال رفعت رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم، حتى يعود «سعد» لعمله. وتكللت مساعى أحمد عكاشة بالنجاح، وتم إعادة «سعد» للعمل بمؤسسة أخبار اليوم، ليتولى الإشراف على الصفحات الثقافية فى مجلة «آخر ساعة» . ورغم أن المرتب الذى تم تحديده له مبلغ عشرين جنيها، فى حين أنه كان يتقاضى ثلاثين جنيها منذ عشر سنوات، فقد قبل العمل دون نقاش، واعتبره خطوة أولى للخروج من عزلته، وأن فيها اعتراف من قبل النظام آنذاك به بإسناد مسئولية ثقافية له.

وبعد مرور بضعة أشهر، تلقى اتصالا تليفونيا من مكتب وزير الثقافة يحدد

موعدا للقاء الوزير، الذى استقبل «سعد» بعد كل هذا الغياب بحرارة شديدة. وطلب ثروت من «سعد» أن يكون هذا اللقاء هو بداية للتعاون المشترك بينهما. واقترح عليه أن يشرف على تحرير مجلة « نهضة أفريقيا» لحين عودة رئيس تحريرها السفير عبد العزيز إسحاق من مهمة طويلة بأفريقيا، على شرط ألا يكتب اسمه كرئيس تحرير للمجلة... ومن الطريف أن «سعد» حين عاد إلى منزله وجد السفير عبد العزيز إسحاق فى انتظاره بالمنزل ورغم أنهما لم يكن لهما سابق معرفة.. إلا أنه طلب من «سعد» كأخيه الصغير، أن ينصت إلى نصيحته الغالية التى يهديها له قبل سفره، وهو أن لا يحاول النهوض بالمجلة حتى تصل إلى مرحلة الازدهار وإلا حاول محمد فائق مدير مكتب الرئيس للشئون الأفريقية الاستيلاء عليها، وفى الوقت نفسه عليه ألا يهملها حتى تصل إلى مرحلة الكساد، فتضطر الجهات المسئولة عن التمويل إلى إغلاقها، وعليه أن يجعلها بين الموت والحياة. وكانت كلماته قبل الانصراف « أنا أعرف هؤلاء الحكام جيداً» . دهش أن واحدا من قيادات العمل الدبلوماسى يهديه هذه النصيحة، خاصة وأنه عرف أن السفير عبد العزيز إسحاق مجند فى مهمة وطنية جليلة، وهى الإقامة فى الكونغو لمساندة الحكومة الوطنية آنذاك برئاسة لومومبا.. ووضح «لسعد» من هذا اللقاء أن القيام بعمل وطنى شئ... وأن تجيد تسويق ما تقوم به شئ آخر يحتاج لخبرة تنقصه بشدة! .

وبعد فترة ليست بالطويلة، طلب ثروت من «سعد»، الإشراف على تطوير «جريدة مصر الناطقة»، وهى مجلة سينمائية كانت تعرض بدور العرض قبل عرض الفيلم الرئيسى، وكان لها مذاق وطابع مميز، ويرأس تحريرها المصور السينمائى حسن مراد.. وطلب ثروت بأن تصبح المجلة أكثر تشويقا، بعد أن تحولت إلى جريدة رسمية، تسجل خطوات وتحركات المسئولين. وترجع أهمية جريدة مصر الناطقة – السينمائية– إلى أنها تعتبر من الوثائق المهمة المصورة، إذ كانت تقوم بتسجيل أهم الأحداث خلال الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، ولعبت دورا مهما خاصة قبل ظهور التليفزيون فى متابعة الأحداث. ورغم حماس «سعد» لهذه المهمة الشيقة والشاقة، إلا أنه عند لقائه مع حسن مراد، وجد لديه عدم استجابة للتعاون معه، ونظر إليه كأنه موفد من الجيش لمراقبته والتجسس عليه!.

خاصة وأن جهات رقابية أخرى كانت تسانده، وأحس «سعد» بفشله الذريع فى تلك المهمة.

وكان لمبادرات ثروت فى الاستفادة من جهود «سعد» الثقافية، أن جعله يفكر بجدية فى أن يشارك ببعض الأفكار، لتأكيد أن السياسة الجديدة للوزارة هى إنتاج ثقافة لكل جموع الشعب، بدلا من أن تكون حكرا على الخاصة، ومن ذلك اقتراحه تجربة دخول العمال دار الأوبرا ليشاهدوا عروضا متفرقة وخفيفة من فرقة البولشوى التى كانت تزور مصر.

واستملح الوزير الفكرة، وتم التنفيذ رغم معارضة كبار موظفى الوزارة.

وأقيمت العروض لعمال النقل المشترك بزيهم الكاكى بعد الظهر، على مدى ثلاثة أيام متتالية، وحضر ثروت عكاشة وكبار رجال الوزارة. وكانت النتيجة أكثر من ناجحة، إذ كان العمال مبهورين صامتين منصتين وكأن على رؤوسهم الطير يصفقون بعد كل فقرة. وفى الختام جاء مدير الفرقة وقال للوزير إنه يقدم له تهانى راقصى الفرقة، فإن حرارة التشجيع التى لاقوها من العمال كانت أكثر من المثقفين.

ولأن النجاح يقود إلى مزيد من النجاح، اقترح «سعد» بعد ذلك أن تقترب الوزارة أكثر من القاعدة الشعبية، وطالب بتنظيم حفل كبير على سبيل التجربة للتعايش مع الفلاحين، ووقع الاختيار على قرية «زنين» بمحافظة الجيزة حيث تمت إقامة مسرح خشبى كبير وشاشة سينمائية، لتقديم بعض الفقرات الاستعراضية والتمثيلية القصيرة، وشارك أهالى البلدة ببعض ألوان الفنون الشعبية كالموال... وفى الموعد المحدد للعرض تقاطر آلاف الفلاحين ليس فقط من قرية «زنين»، بل جاءوا من كل القرى المحيطة يسعون لحضور ليلة ثقافية ممتعة، حضر الوزير ومعه مجموعة من المثقفين العاملين بالوزارة ومن غيرهم، وبعد عرض كل فقرة أو أثنائها أحيانا، كانت نساء القرية يزغردن، وجموع الفلاحين فى حالة من الاندهاش والذهول والرغبة فى المزيد لمعرفة الأعمال الفنية والثقافية. كانت مظاهرة شعبية ودع فيها الأهالى الضيوف بعبارات حارة نابعة من القلب، طالبين المزيد من الجرعات الثقافية والفنية وألا ينسوهم، وأن يعودوا لهم مرات ومرات.

كان ثروت فى غاية السعادة لانتصاراته الثقافية المتوالية، وبداية الالتحام بجموع الشعب العريضة.

الفصل بين الصداقة الشخصية والمطالب الذاتية كان دستور «سعد» فى التعامل مع ثروت، ولكن فى غمرة هذا النجاح الجماهيرى الرائع وبين الصفاء النفسى، ونشوة الإحساس بالأمل فى المستقبل، تذكر «سعد» مارى والتى لم تغب عنه لحظة، وأنها كانت تود أن تشاركه مثل هذه السهرات الفريدة والعرس الثقافى الشعبى، فلم يتمالك نفسه، وطلب من ثروت أن يساعده فى الإفراج عن مارى خاصة وأن محاولات وزارة الداخلية لإبعادها عن البلاد قد باءت بالفشل، لرفض الصليب الأحمر مساعدة وزارة الداخلية فى تهجيرها، خاصة وأن كل الأوراق تقول إنها مصرية ١٠٠٪... لقد وافق ثروت من حيث المبدأ دون أن يعده بشئ آخر.

يقول «سعد» إن ثروت كان شهما وكريما، إذ تحامل على نفسه الأبية التى ترفض الوساطة أو الرجاء، وتقابل مع زكريا محيى الدين وزير الداخلية فى إحدى الحفلات، ورغم أنه كان منشغلا فى الحديث مع ضيف أجنبى، إلا أن ثروت انتظر إلى أن ينتهى الحديث بعد مدة طويلة، مما جعل وزير الداخلية يتعجب أن ثروت ولأول مرة يقف منتظراً للحديث معه... فلابد أن فى الأمر شيئا مهما يريد ثروت أن يطلعه عليه، فما أن فرغ من المحادثة ذهب إلى ثروت ليتعرف على الأمر المهم الذى جعله يقف منتظراً... قال له ثروت: «أريد الإفراج عن زوجة سعد كامل» ... ولم يستطع زكريا سوى أن يقول « أعدك بالتنفيذ» إذا كان إعتقالها بسبب الجنسية فقط!

ومع ذلك لم يخبر ثروت (سعد) بشئ.. وأخيرا تحقق الرجاء الذى كان يعتبر ضربا من الخيال، رغم أن الحملة على الشيوعيين كانت تتصاعد..... وأثبت ثروت عكاشة بموقفه الإنسانى الرائع، أنه إنسان حساس يشعر بمشاكل وهموم الناس، مما يؤكد أنه واسع الأفق جدير بأن يكون راعياً للثقافة والمثقفين فى مصر.

وأخيرا وصلت مارى إلى منزل الدقى، وليشتركا مرة أخرى سويا فى مواجهة مشكلة – المراقبة– والتى تحتم عليهما الالتزام بالمنزل منذ غروب الشمس وحتى

شروقها. وعليهما أن يقدما « سركى» المتابعة ليوقع عليه عسكرى الدورية، بما يفيد أنهما متواجدان فى المكان المحدد للمراقبة. بالإضافة أن عليهما ضرورة التواجد صباح يوم الاثنين من كل أسبوع فى قسم البوليس قبل السابعة صباحا، فهو اليوم المحدد الذى يتجمع فيه المراقبون بالحى ليقابلوا المأمور ليوقع لهم بأن الأسبوع قد مضى بخير.

لقد كان نجاح السياسة الثقافية الجديدة التى انتهجها ثروت عكاشة ، هو البسمة الوحيدة والمشجعة له على تحمل سخافات الرقابة والتعامل مع البوليس.

كما قام ثروت عكاشة بإشراك العديد من أصدقاء «سعد» فى قيادة العمل الثقافى، فقد شغل الدكتور على الراعى قيادة مؤسسة المسرح، وشارك معه فى الإدارة أحمد حمروش اللذان نجحا فى توسيع قاعدة المسرح واقتحام الأقاليم، إما بعروض تقدمها فرق مؤسسة المسرح، أو إهداء النصوص المسرحية للفرق الإقليمية، أو تزويدها بالمساعدات الفنية من إكسسوارات أو إضاءة، أو أن يتولى المخرجون الكبار إخراج المسرحيات فى الأقاليم من أمثال كرم مطاوع وغير ذلك، مما يؤكد أن كل هذه التحركات تشير إلى أن هناك ميلادا جديدا لحركة ثقافية تكمن أساسا فى انطلاق العمل الثقافى من احتكار العاصمة، ويؤكد أن القاعدة الجماهيرية الواسعة هى المفرخ الأساسى لإفراز العشرات بل المئات من المواهب.

وما كان يؤكده «سعد» دائما، أن سيدة الغناء العربى أم كلثوم، وهى البنت الريفية الموهوبة التى وجدت بالمصادفة من يرعاها وينمى موهبتها، ولولا هذه المصادفة، لأصبحت أم كلثوم هى الفلاحة الريفية المطحونة، التى لا يمكنها أن تعطى للثقافة والفن شيئا.

غير أن الحلم الثقافى الذى راود «سعد» لم يستمر طويلا، ففى سبتمبر ١٩٦٢ تم تغيير وزارى، وحل الدكتور عبد القادر حاتم بدلاً من ثروت عكاشة وزيراً للثقافة والإعلام، وهو ما كان يرفضه ثروت عكاشة فى مزج الثقافة بالإعلام، لإيمانه بأن المنتج الثقافى يغاير تماما المنتج الإعلامى.

لقد كان خروج ثروت من وزارة الثقافة، بل وإبعاده عن الحقل الثقافى عامة – إذ تم تعيينه رئيساً لمجلس إدارة البنك الأهلى!! – صدمة كبيرة لآمال وأحلام «سعد» ، جعلته ينكفئ على عموده الأسبوعى فى أخبار اليوم، والذى خصصه فى نقد سياسة حاتم – الكمية– ومنها إصدار كتاب كل ٦ ساعات، وإنتاج العشرات بل المئات من المسرحيات، وغالبيتها كان هابطًا.

لقد أصبحت العلاقة بين ثروت وسعد علاقة صداقة ومودة، كما تدعمت العلاقة مع الدكتور أحمد عكاشة، والذى عاد من لندن بعد حصوله على الدكتوراه، وأصبح أكثر عشقًا للطب النفسى ودراسة النفس البشرية، مما جعل «سعد» يتعلم منه الكثير، خاصة وأن زياراتهم العائلية لم تنقطع، وبعد التعديل الوزارى أصبح الطريق أمام «سعد» واضحا، إذ قد لا يلتقى بوزير ثقافة مثل الدكتور ثروت عكاشة، الذى يؤمن إيمانا عميقا بأن الثقافة هى طريق المستقبل لتحرر الشعوب وتقدمها، إلى جانب أن الجو السياسى قد أصبح ملبدا بالغيوم بعد انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، وقد اعتبرها عبد الناصر هزيمة مباشرة له، وكان رده أن قام بتأميم الشركات الأجنبية، وامتدت لتصل إلى الصحافة، وإقصاء أصحاب الصحف عن صحفهم، وأوكل إدارتها لأهل الثقة من جانب قيادة الثورة فتولى الأهرام محمد حسنين هيكل، وكمال رفعت أخبار اليوم، كما تم الاستيلاء على شركة الإعلانات الشرقية، التى أصدرت فيما بعد جريدة الجمهورية التى ترأس تحريرها أنور السادات.

أصبح العمل فى الصحافة من الصعوبة بمكان، مما دفعه إلى العودة إلى المحاماة، إذ تصادف فى ذلك الوقت الإفراج عن محمود توفيق المحامى، وكانت قد توطدت الصداقة بينهما خلال فترة الاعتقال فى كل من ليمان طره وسجن الواحات، حيث كان محمود توفيق يقضى عقوبة الأشغال الشاقة لمدة ٨ سنوات بتهمة قيادة تنظيم شيوعى، وهى التهمة الرسمية التى حوكم بها أمام اللواء الدجوى، بينما حقيقة الأمر أن التهمة التى يحاكم عليها، أنه صديق حميم ليوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة، والذى كان له دوره المهم فى يوم ٢٣ يوليو، وقد تم استبعاده من مجلس قيادة الثورة لميوله اليسارية والتى يشاركه فيها محمود توفيق، فبالإضافة إلى الصداقة

المتينة بينهما، فهو قريب له، حيث أن يوسف صديق متزوج أخت محمود توفيق، إلى جانب أن محمود متزوج بنت يوسف صديق.

وكان قد تم الإفراج عن محمود توفيق إفراجا صحيا، كنوع من الترضية ليوسف صديق من جانب الثورة. ومن المعروف أن الإفراج الصحى هو إفراج فى الإمكان الرجوع عنه فى أى وقت، بدعوى أن المفرج عنه قد تحسنت صحته، وأن فى إمكانه تكملة العقوبة. المهم أن «سعد» ومحمود اتفقا على افتتاح مكتب محاماة وبدآ التنفيذ، وقاما بتأجير مكتب بعمارة استراند بباب اللوق، عبارة عن شقة من ٤ حجرات وتم تخصيص ثلاث حجرات لإقامة محمود وأسرته، وخصصت الحجرة الرابعة مكتبا للمحاماة، وكانت البداية متواضعة ومعظم القضايا كانت مجاملة للأصدقاء، بهدف استعادة الثقة بأنهما مازالا محاميين.

استمرت تجربة عودة العمل بالمحاماة لمدة عامين، ولكن لم يحالفهما التوفيق كثيرا، كنتيجة لأنهما أولا خريجا سجون، بصرف النظر عن نوعية القضايا التى كان قد أدينا بها.

واستمرت المصروفات تفوق الإيرادات بكثير، وكان أن تدخل فتحى رضوان لينتشلهما من هذا الوضع، وتنازل عن مكتبه بشارع الساحة، حيث أن فتحى رضوان كان قد افتتح مكتبا جديدا له بعد خروجه من الوزارة، فى شارع عبد الخالق ثروت.

لم يستمرا طويلا فى العمل بالمحاماة، إذ كان عبد الناصر قد بدأ صفحة جديدة مع الشيوعيين، فعرض عليهما كل من أحمد فؤاد وأحمد حمروش الانضمام للتنظيم الطليعى للاتحاد الإشتراكى، الذى تم تأسيسه خلفا للاتحاد القومى.

وفى لقاء «لسعد» مع أحمد حمروش شرح له هدف عبد الناصر من إقامة التنظيم الطليعى، فى أن يكون بمثابة حزب اشتراكى حديدى فى تنظيمه، ثورى فى حركته، نقى فى طهارة أعضائه.

وأن يلتزم بالسرية حتى لا يكون مجالا لتسرب المنافقين أو الانتهازيين. وكانت الخطوة الأولى ليؤكد بها عبد الناصر جديته فى تأسيس حزب قوى طليعته ثورية... وهو فتح أبواب المعتقلات والإفراج عن الشيوعيين على دفعات متتالية.

ثم بدأ أحمد حمروش وأحمد فؤاد فى تنفيذ البند الثانى من مبادرة جمال عبد الناصر، بالعمل على دمج التنظيمات الشيوعية فى الاتحاد الاشتراكى، لتأسيس تنظيم سياسى واحد يقود العمل الوطنى. وكانت البداية أن قاما بالاتصال بالتنظيمين الشيوعيين الرئيسيين، وهما الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى «حدتو»، والحزب الشيوعى المصرى. واستمرت المباحثات مع التنظيمين مدة طويلة، ومثل «حدتو» فى هذه المقابلات، أحمد رفاعى وزكى مراد وفؤاد حبشى.

وفى ١٤ مارس ١٩٦٥، وبعد انعقاد اجتماع موسع للجنة المركزية لحدتو تم انتخاب كمال عبد الحليم مسئولا سياسيا. وأعلن فى مؤتمر كبير بأنه تمت الموافقة بالإجماع على توحيد حزبهم مع الاتحاد الإشتراكى، فى حزب ثورى واحد يقوده القائد الوطنى والبطل الاشتراكى جمال عبد الناصر... وأعلن كمال عبد الحليم بأنه تم إرسال برقية جاء فيها بالنص مايلى:

« السيد الرئيس جمال عبد الناصر قائد الثورة ورئيس الجمهورية، أجمل ما نقدمه لك فى هذه المناسبة التاريخية، أن مندوبى الحزب الشيوعى المصرى «حدتو» فى اجتماعهم الذى عقدوه اليوم قد قرروا فيه إنهاء تنظيمهم المستقل إيمانا منهم بما تدعون إليه من وحدة القوى الاشتراكية فى تنظيم سياسى واحد للثورة، وبأن هذا الحزب الواحد للثورة وبقيادتكم هو البديل للتنظيم المستقل، وهم على الرغم من أنهم معزولون عن العمل السياسى وليس لهم حق الانتخاب، يرسلون إليك أصواتهم وينتخبونك بالإجماع رئيسا للجمهورية، وقائدا للثورة، وقائدا لحزبها السياسى الواحد المناضل.

١٤ مارس ١٩٦٥

عنهم

محمد كمال عبد الحليم

أما الحزب الشيوعى المصرى، وكان المتحدث باسمه الدكتور فؤاد مرسى سكرتير عام الحزب، فقد عقد إجتماعا فى أبريل ١٩٦٥، وأصدر بالإجماع قرارًا ينص على إنهاء الشكل المستقل للحزب الشيوعى المصرى، ويكلف كافة أعضائه بالتقدم كأفراد لطلب عضوية الاتحاد الإشتراكى العربى، والنضال من أجل تكوين حزب إشتراكى واحد يضم كل القوى الثورية فى البلاد.

لقد آمن «سعد» إيمانا عميقا، أن عبد الناصر يقود معركة داخلية أمام القوى الرجعية المنتشرة فى قطاعات كثيرة، وأن من واجبه ومن واجب كل القوى التقدمية أن تقف وراءه تؤزاره، ليمكن له أن ينتصر فى معركته التاريخية.

شارك «سعد» وبإيجابية كبيرة فى تنظيم طليعة الاشتراكيين، وكانت الخلية التى انضم إليها والتى يرأسها أحمد حمروش تضم كلا من:- صلاح حافظ، عبد الرحمن الشرقاوى، حسن فؤاد، وكانت تعقد الاجتماعات بصفة دورية فى منزل أحمد حمروش، لتناقش وبكل صراحة أوجه القصور والعقبات التى تقف أمام انطلاق الصحافة والثقافة، وكانت الاجتماعات تنتهى بكتابة تقارير بخلاصة هذه الاجتماعات ترفع إلى جمال عبد الناصر، وتعود خلال ٢٤ ساعة فقط بتأشيرات مباشرة منه للمسئولين للتنفيذ فوراً..

كما بدأ «سعد» يشارك بإيجابية أكبر فى العمل فى أخبار اليوم، وتم تخصيص مساحة له لا بأس بها فى العدد الأسبوعى - أخبار اليوم - وبدأ يلفت الانتباه إلى نظرية الفن للحياة، وشاركه فى تدعيم الصفحة الفنان بيكار، والذى أبدع فى ربط الكلمة بالفن التشكيلى، وازداد رسوخه لمشاركة الفنان والكاتب المتألق صلاح حافظ فى التحرير.

وجاء عام ١٩٦٦ وحدث زلزال فى دار أخبار اليوم، إذ تم القبض على مصطفى أمين وهو المؤسس الرئيسى للدار، وصاحب مدرسة خاصة فى الصحافة المصرية، تعتمد أساسا على الإثارة والتضخيم للحادث، وسعد أحد خريجى هذه المدرسة، إذ كان لمشاركته بالخبطة الصحفية الكبيرة، حين تولى كتابة ونشر مذكرات حسين توفيق

وتصويره فى مخبئه، هى من أكبر الضربات الصحفية الناجحة، والتى دفعت بمصطفى أمين إلى تحرير شهادة التفوق الصحفى «لسعد»، والحرص على تعيينه فى أخبار اليوم بمرتب مرتفع بمقياس ذلك الوقت.. غير أن «سعد» مر بعد ذلك برحلة طويلة، سواء دوره فى حركة أنصار السلام، أو مشاركته فى التنظيم الشيوعى، وعمل جبهة ضد إلغاء الدستور ثم سجنه بعد ذلك، لإيمانه بأن إلغاء الدستور يعنى قتل شعب مصر، وكذلك التخلص من حزب الوفد الذى هو من إفراز الحياة الديمقراطية، بهدف ترسيخ الديكتاتورية العسكرية، التى جاءت مع الإنقلاب العسكرى والذى دعمته أمريكا. وكان مصطفى أمين هو أحد الأذرع القوية، التى تربط مابين الحكم العسكرى وأمريكا. ومن المعروف أن اتصال مصطفى أمين بأمريكا كان بمعرفة وموافقة النظام العسكرى، لإبلاغ أمريكا ما يريده الحكم العسكرى وإبلاغ النظام بما تريده أمريكا.

لقد اعتبر «سعد» أن القبض على مصطفى أمين هو امتداد للمد اليسارى فى سياسة عبد الناصر الجديدة.... وجد «سعد» أنه من الضرورى أن يعلن تأييده لهذه السياسة الجديدة... وبكل قوة... والإعلان صراحة بذلك، وإغلاق صفحة مدرسة مصطفى أمين والإعلان عن مدرسة الصحافة الاشتراكية... لقد كتب «سعد» مقالا رئيسيا فى مجلة آخر ساعة تحت عنوان « هذه مدرسة مصطفى أمين» أنها ليست فقط مدرسة أمريكا مدرسة الإثارة والخبر الصحفى، بل هى أيضا مدرسة سياسية تسعى إلى هزيمة الشعوب وربطها بعجلة الاستعمار الأمريكى.... إن القبض على مصطفى أمين ليس قضية تجسس أو تخابر، بل هو إغلاق لمدرسة تسعى لنشر الفكر الإمبريالى، إنها ليست مدرسة صحفية، بل هى أولا وأخيرا مدرسة سياسية، تهدف إلى سيطرة الفكر الرجعى وربطنا بعجلة الاستعمار».

لقد كان «سعد» صادقا مع نفسه فيما يكتب إذ كان يؤمن بأن عجلة التقدم بدأت فى الدوران ولاعودة للرجعية، أو بالأحرى مدرسة مصطفى أمين.

لقد شعر «سعد» بصدق رأيه، ثم بدأ بعد ذلك صدور عدة قرارات باستبعاد رجال مصطفى أمين من الدار، مثل موسى صبرى، ووجدى قنديل، وجميل عارف وغيرهم،

وبدأت صفحة جديدة بتعيين خالد محيى الدين رئيسا لمجلس إدارة المؤسسة، واختير «سعد كامل» وصلاح حافظ للإشراف على التحرير.. وعلى ذلك إعتبر رجال مصطفى أمين أن «سعد» رجل ساذج إذ ظن أن مدرسة مصطفى أمين قد زالت، إذ كانوا يؤمنون تماماً أن ما حدث هو بمثابة سحابة صيف تنقشع عن قريب، وبدأت الصحافة الاشتراكية تعمل وكان تمركزها فى مجلة آخر ساعة، والتى أمكنها فعلاً أن تحقق نجاحات ملموسة فى التحرير، أكدته أرقام التوزيع الذى ارتفع بمعدل غير متوقع... مما دفع بعض العناصر اليسارية بمطالبة «سعد» وصلاح حافظ، أن تتحول إلى مجلة للعمال والفلاحين، ولكن مايسترو المجلة صلاح حافظ رفض الوقوع فى هذا الفخ، وأعلن أن هوية المجلة هى الطبقة المتوسطة، وإنها هى الطبقة المستهدفة، لتعيد قيادتها للعمل الوطنى، واستمر صلاح حافظ بأسلوبه الصحفى المميز ومدرسته الصحفية الجذابة فى ابتكار كل ماهو جاد وجذاب للطبقة المتوسطة، ونجحت مدرسة صلاح حافظ وبدأت المجلة تحقق نجاحا تلو نجاح، وخاصة بعد مشاركة فنان الكاريكاتير زهدى، والفنان حسن فؤاد برسوماته للشخصيات وغيرها الكثير.

استمرت تجربة نجاح آخر ساعة لمدة ثلاثة أشهر لا غير، وحدث فعلا ما توقعه أبناء مدرسة مصطفى أمين، حيث تم الاستغناء عن خالد محيى الدين وانتقل الإشراف على دار أخبار اليوم إلى حسنين هيكل، وتم نقل صلاح حافظ إلى مجلته التى كان يعمل بها من قبل وهى روز اليوسف، وأصبح «سعد» محاصراً داخل مجلة آخر ساعة... وفى أحد الأيام عند عودة «سعد» إلى منزله، أخبرته مارى بأن مكتب ثروت عكاشة بالبنك الأهلى اتصل بها وأنه فى انتظاره فى المساء بالبنك لأمر مهم وعاجل!! ترى ماذا سيكون هذا الأمر المهم والعاجل، فى الوقت الذى بدأ فيه اليمين الخروج من جحوره؟

ذهب «سعد» فى الموعد المحدد ليجد مفاجأة غير متوقعة، إذ تقرر عودة ثروت عكاشة إلى موقعه كقائد للثورة الثقافية. لم يصدق «سعد» أن يحدث هذا فى عهد عبد الناصر، حيث لم يحدث من قبل أن خرج وزير وأعيد مرة أخرى إلى منصبه. ولكن كان لثقة جمال عبد الناصر المفرطة فى ثروت عكاشة، أن كسر القاعدة وقرر عودته إلى

وزارة الثقافة، ليستأنف مسيرته الثقافية التى توقفت بفضل الدسائس التى حاكها أعداؤه، للوقيعة بينه وبين جمال عبد الناصر، والتى حملته على قبول استقالته، وترك ميدان الثقافة لمدة أربع سنوات...

كيف حدث هذا ؟ إنها قصة الأيام التالية.

* * *

الفصل السادس

مشوار الثقافة الجماهيرية

[٢٤]

البداية سر كبير

كان الدكتور ثروت عكاشة مضطربا بعض الشئ بمكتبه بالبنك الأهلى حين التقى «بسعد» حسب الموعد، ويصف «سعد» الحالة التى كان عليها الدكتور ثروت بقوله: كانت البشاشة بادية على وجهه. وكان كمن بداخله شئ مهم يريد أن أشاركه فيه، وبالفعل لقد كانت المفاجأة سارة!! قال «لسعد» إنه حاضر لتوه من لقاء مع الرئيس عبد الناصر، الذى كلفه بأن يكون نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للثقافة والإعلام. وأنه اعتذر عن وزارة الإعلام واكتفى بأن يكون نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للثقافة فقط.

لقد كانت المفاجأة أكبر مما يتخيل «سعد» ، وبدأت الدنيا تدور من حوله، وأصبح فى حالة من انعدام الوزن، حتى أنه فقد المقدرة على الحوار، وطلب كوبًا من الماء ليستعيد بعض توازنه. وأضاف الدكتور ثروت قائلا: بأن هذا الخبر سر لا يعرفه سوى عبد الناصر وثروت والدكتور أحمد عكاشة وسعد الآن، وأن أى تسرب له ستكون عواقبه وخيمة. وبدأ «سعد» يستفسر عن الوزارة الموجودة حاليا برئاسة زكريا محيى الدين ومستقبلها. فعرف أن زكريا محيى الدين لا يعرف أنه لم يعد أمامه سوى أسابيع محددة ويترك رئاسة مجلس الوزراء، ليحل بدلا منه المهندس صدقى سليمان وأن التغيير سيتم خلال شهر سبتمبر القادم، أى بعد حوالى ثلاثة أشهر.

وخلال فترة من الزمن ليست بالقصيرة زال التوتر الذى كان سائداً وأضاف الدكتور ثروت.. إن الرئيس كان ودودا للغاية معه، وأنه أبدى استياءه من انحدار الحال فى المؤسسات الثقافية، حتى بلغت مرحلة الانهيار فى الفترة الأخيرة، وطلب من ثروت

ضرورة العمل على إعادة الحياة لهذه المؤسسات لإعادة ترتيبها، وأن الدور الآن على «سعد» بأن يبدأ التفكير فى تحقيق حلمهما الثقافى، الذى كان يراودهما دائما حول إنشاء مراكز شعبية لبث الإشعاع الثقافى فى طول مصر وعرضها، وبعد جلسة طويلة انتهت بوعد من «سعد» بأنه سيبذل أقصى جهده.

ومضى «سعد» بعد هذا اللقاء يتنازعه هاجسان متضاربان، فهو من ناحية، سعيد إلى أنه غير مصدق أنه أصبح يمتلك مصباح علاء الدين، الذى سيمكنه من أن يرى تحقيق أحلامه، وعلى الناحية الأخرى فهو حزين للأسلوب الذى يعامل به رئيس الوزراء والوزراء. فهل فى الإمكان معاملة رجل فى حجم زكريا محيى الدين بهذا القدر من الاستهتار، وكل ذلك يتم بتخطيط وتوجيه من شخص واحد.

إنها الأسطورة التى ينادى بها أعداء الديمقراطية، بمقولة الديكتاتور العادل، فهل من المعقول أننا نعيش بهذا الأسلوب غير العادل؟

وأخذ الصراع الداخلى عند «سعد» يتضاءل نحو الأفكار التشاؤمية، ويتنامى نحو الأفكار التفاؤلية.

خلال هذه الفترة تمت لقاءات عديدة بين ثروت و«سعد» لمراجعة التجربة السابقة لوزارة ثروت، وحصر السلبيات التى أعاقت تقدم العمل الثقافى.

لقد كانت التجربة الأولى بمثابة إعداد التربة الملائمة، واكتشاف الإمكانيات المتوافرة والمطلوب تنميتها، وتحديد أوجه القصور لمعالجتها. لقد كان أهم مشروع تم إنجازه فى المرة الأولى، إنقاذ أثار النوبة قبل غرقها بعد بناء السد العالى. كما بدأ مشروع نشر المراكز الثقافية لاكتشاف المواهب المدفونة فى تراب مصر.

وبدأ ثروت الخطوة الأولى بإدارة الجامعة الشعبية، بعد أن آلت لوزارة الثقافة من وزارة المعارف. وكان كل نشاطها محصورا فى تعليم المواطنين الفنون اليدوية، وكان التطور الوحيد الذى أمكن تحقيقه هو تغيير اسمها من « الجامعة الشعبية» إلى «جامعة الثقافة الحرة» دون تطويرها لما يخدم الأحلام الكبيرة المطلوب تحقيقها.

مضت الأيام وكان «سعد» فى حالة ما بين التصديق والتكذيب لامتلاكه مصباح علاء الدين، وشعر بالإرهاق الشديد لأنه يحتفظ بالسر بمفرده، حتى عن مارى أقرب الناس إليه، لم يجرؤ أن يخبرها به.

وقرر أن يحيا حياته العادية متناسيا السر الكبير، وقام بالحجز فى فندقه المفضل بمرسى مطروح له ولأسرته، لينسى أو يتناسى ما تخبئه له الأيام القادمة.

وصلت الأسرة إلى مرسى مطروح، وكانوا جميعا متعطشين للاستمتاع بالحياة وبجمال مرسى مطروح، وبحياة البداوة والفطرة المحببة لكل أفراد الأسرة، الذين انغمسوا فى الاغتراف من سعادة المكان والزمان، والتنقل ما بين شاطئ الفندق إلى شواطئ كليوباترا وعجيبة والأبيض.. وفى أحد الأيام كان البرنامج المعد سابقا زيارة لشاطئ الغرام، وفى نشرة الظهيرة الساعة الثانية والنصف، أذاع الراديو قبول استقالة زكريا محيى الدين وتكليف صدقى سليمان بتشكيل الوزارة. تنهد «سعد» الصعداء بمجرد سماعه الخبر الأول فى النشرة، فلقد حانت الفرصة ليتخلص من السر الذى حمله طوال الأشهر الثلاثة المنصرمة، وأخبر مارى بالسر الذى كان يحمله، وبالمستقبل الباهر الذى ينتظره، وعلى عكس ما كان يتوقع لم تكن مارى شديدة التفاؤل، بل كانت شديدة الحذر، لأنها ترى أن الرجعية مازالت متمركزة فى كل ركن من أركان الدولة، وأن نشر الثقافة بين العمال والفلاحين كما كان الحلم، يحتاج إلى شجاعة واستبسال، خاصة أن الرجعية المصرية أقوى من مصباح علاء الدين!

وعلى مائدة الطعام فى الفندق وأثناء تناول الطعام، جاءت مكالمة تليفونية من عادل شوقى وهو مدير مكتب الوزير، والذى أخبره بأن الدكتور ثروت ينتظر قدومه بأسرع وسيلة مواصلات ممكنة.

بدأ «سعد» يشعر بالرهبة والخوف من الفشل، فوجهة نظر مارى والتى تتنبأ بالمستقبل وكأنها تقرأ كتابا مفتوحا. كما أن العمل السياسى فى مصر مازال يتم بصورة فردية واحتمالات المستقبل غير معروفة.

لقد رأى «سعد» أن لا يغير شيئًا من برنامجه، لقد كان الحجز فى فندق مرسى

مطروح لمدة اسبوع ومضى الآن أربعة أيام، فليستكمل المدة الباقية، خاصة وأنها ثلاثة أيام فقط، ولن تغير من تاريخ البشرية شيئا !.

غير أن مكتب الدكتور ثروت أصبح يلاحقه بالمكالمات التليفونية والتلغرافات، وكذلك مكالمات من أصدقائه المقربين، والكل يطالبه أن يقطع الأجازة ويعود، ورغم كل ذلك قرر عن اقتناع الاستمرار في الأجازة. وفي اليوم التالي وساعة الإفطار سمع سارينة عربة بوليس النجدة، وترجل منها ضابط برتبة كبيرة، وجلس في بهو الفندق وطلب مقابلة «سعد» ...... «سعد» الذي كان معتاداً أن تصل إليه الشرطة للضبط والإحضار !! أما هذه المرة فقد تغير الحال تماما، إنه السيد مساعد مدير أمن مرسى مطروح الذي جاء في مهمة خاصة جدا، وهي مساعدته على العودة للقاهرة بأسرع وقت، إذ تم بالفعل الحجز له ولأسرته في طائرة الساعة الثالثة ظهر اليوم نفسه، وجاءت عربة النجدة لتوصيله والأسرة للمطار.

وهكذا عادت الأسرة إلى القاهرة. وفي مساء اليوم ذاته ذهب «سعد» إلى مكتب ثروت عكاشة الذي مازال في البنك الأهلي، لحين إعداد مكتبه في قصر عائشة فهمي المطل على نيل الزمالك.

كان استقبال ثروت «لسعد» استقبالا جياشا مملوءا بالأمل والحماس والتفاؤل، وكان وراء هذا الحماس هو التشجيع الكبير الذي لمسه ثروت من جمال عبد الناصر الذي اعترف صراحة لثروت، بأنه قد عدل عن ترجيح كفة الكم على كفة الكيف في مجال الثقافة... وأضاف ثروت بأنه سعيد لتقبل الرئيس وجهة نظره الخاصة بالفصل بين الإعلام والثقافة، وقد قال ثروت للرئيس « إن التجربة أثبتت باعترافكم طغيان مفهوم الإعلام على مفهوم الثقافة إبان إدماجهما سويا، مما ترتب عليه الموقف الذي تشكو منه أنت الآن».

كما كان الرئيس صريحًا تمامًا، عندما أخبر ثروت أن الموقف الاقتصادي متدهور، وطلب منه أن يبدأ بإصلاح ما فسد وترميم ما تداعى وبعد ذلك سوف يؤازره بكل ما يطلب من اعتمادات مالية....

وهكذا كان ثروت صريحا وواضحا وقويا ومتفائلا أن هذه الدورة سوف تشهد الكثير من التطوير، وطلب من « سعد » ألا يضيع الوقت، وأن يبدأ فورا فى وضع مشروعه الثقافى موضع التنفيذ... وانتقل الحماس إلى «سعد» ووعد ثروت، أنه خلال أسبوع سيكون على مكتبه مشروع متكامل لكسر احتكار العاصمة للثقافة، وتوفيرها للعمال والفلاحين.

والبداية ستكون إعادة دراسة - جامعة الثقافة الشعبية - وسبل تطويعها لخدمة المشروع الثقافى الجديد.

طلب من سكرتارية الوزير الاتصال بإدارة الجامعة الثقافية الشعبية، وإحضار كل الوثائق والملفات التى تمكنه من أن يكون على دراية تامة بالموقف الحقيقى لهذا النشاط الثقافى. وخلال ٣٦ ساعة كانت أمامه مجموعة من الملفات والتقارير يدل شكلها الخارجى أنه سيجد فيها إجابة على كل الأسئلة التى تدور فى ذهنه.

* * *

لقد كانت بدايات الثقافة الشعبية مع محمد فريد، الذى أنشأ عام ١٩٠٨ مدارس الشعب بهدف مكافحة الأمية الأبجدية والسياسية والاجتماعية، إلى جانب توعية كل أفراد الشعب بتاريخ مصر الإسلامى، وكذلك جغرافية الوطن إضافة إلى مواد فى الأخلاق والآداب.

لقد شارك فى نشر وتدعيم مدارس الشعب مع محمد فريد، أقطاب الفكر والرأى، من أمثال عبد العزيز جاويش، وأحمد لطفى السيد، وعمر لطفى رائد الحركة التعاونية فى مصر... والكثير من الوطنيين مما مكنها خلال ثلاث سنوات (١٩٠٩ - ١٩١٢) فقط، من أن تصبح ذات تأثير فعال فى الجماهير، حتى أن الاستعمار البريطانى بدأ يشعر بخطورة هذه المدارس الوطنية، وظل يحاربها حتى قضى عليها بالكامل، وامتد الأمر إلى نفى زعيمها محمد فريد.

مع نمو الحركة الوطنية، ظهرت عدة محاولات لإحياء مشروع مدارس الشعب، خاصة خلال الفترة من (١٩٢١ إلى ١٩٢٣)، وانتشرت فى القاهرة والإسكندرية والعديد من القرى، وشارك في تدعيمها بعض النقابات العمالية.

وبعد الحرب العالمية الثانية، ارتفعت صيحات عديدة تطالب بنزول الثقافة للشعب، وقاد هذا الفكر التنويرى العديد من المثقفين وعلى رأسهم المثقف المصرى أحمد أمين، الذى تقدم فى أكتوبر ١٩٤٥ بفكرته إلى وزير المعارف وقتذاك الدكتور عبد الرازق السنهورى، الذى شجعه على العمل فى تحقيق ذلك على أرض الواقع... وطالب الدكتور أحمد أمين بحتمية وضرورة مكافحة الأمية ونشر الثقافة والتعليم، وتقديم غذاء ثقافى لقوم لا يزالون محرومين منه... ويقول أحمد أمين فى مذكرته التفسيرية

«إجرام كبير كإجرام حبس برئ أو تجويع الفقير...»

لقد شارك فى نشر الفكرة وتدعيمها رواد إصلاحيون، من بينهم عباس عمار، وأحمد زكى، وعباس العقاد، ومحمد عوض، وإسماعيل القبانى، وأنطون الجميل، ومحمد حسن العشماوى... وكانت البداية عام ١٩٤٦ حيث تم افتتاح الجامعة الشعبية، ولاقت الفكرة إقبالا جماهيريا كبيرا، مما جعل وزارة المعارف تفتتح ١٥ فرعا جديدا، وأطلق عليها اسم المراكز الثقافية.

وخلال ١٨ عاما (١٩٤٨ - ١٩٦٦) مرت الجامعة الشعبية بعدة تطورات، منها صدور مرسوم ملكى بتعديل تسمية الجامعة الشعبية إلى «مؤسسة الثقافة الشعبية» فى مايو ١٩٤٨، وتحددت أهدافها فى نشر الثقافة العامة والدراسات الحرة فى كافة الفروع التعليمية والتدريبية والمهنية، وبعد الثورة نجح فتحى رضوان فى تأسيس وزارة الإرشاد القومى، وتقدم بمشروع قانون يقضى بنقل « مؤسسة الثقافة الشعبية » من وزارة المعارف إلى وزارة الإرشاد القومى... ولكن نجحت البيروقراطية المصرية آنذاك فى تجميد القانون وإيقاف تنفيذه.

وفى عام ١٩٥٨ وقبل خروج فتحى رضوان من الوزارة بفترة وجيزة، نجح فى تغيير اسم وزارة الإرشاد القومى إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى، بصدور القانون

رقم ٦٩٢ لسنة ١٩٥٨، وبموجبه تم تنفيذ نقل مؤسسة الثقافة الشعبية من وزارة المعارف إلى وزارة الثقافة، واستتبع ذلك تغيير اسمها إلى «جامعة الثقافة الحرة» .

نجحت جامعة الثقافة الحرة فى الاتصال بالطبقة العاملة، وفتحت أبوابها للعمال للالتحاق بمختلف شُعبها وبرامجها الثقافية، كما وثقت علاقتها بالنقابات العمالية وأنديتهم، فقدمت العروض السينمائية وأدارت الندوات الفنية، واستكملت نشاطاتها بإعلان مولد مؤسسة الثقافة العمالية وأصبحت بعد ذلك جزءاً حيويا فى التنظيم النقابى العمالى.

خلال الخطة الخمسية الأولى (١٩٦٠ - ١٩٦٥)، ظهرت فكرة إقامة قصور الثقافة، وقد استهدفت الخطة بناء ١٥ قصرا للثقافة فى عاصمة كل محافظة، يتم تجهيزه بقافلة ثقافية تجوب المدن والقرى التى لا تتوافر بها مواقع ثقافية ثابتة، وفى عام (١٩٦٢) عندما تولى الدكتور عبد القادر حاتم وزارة الثقافة خلفا للدكتور ثروت عكاشة، أصبح الفكر الإعلامى هو الغالب، وصدر قرار جمهورى بضم جامعة الثقافة الحرة إلى مصلحة الاستعلامات، تحت مسمى «مراكز الثقافة والاستعلامات»، وتحولت قصور الثقافة إلى « دور الثقافة والاستعلامات»، وأصبحت مراكز إعلامية يشاهد المواطنون بها التليفزيون أو يقرأون الصحف والمجلات!! أو لاستعارة الكتب والتى كانت فى أغلبها مرتجع كتيبات سياسية، والتى كانت تصدر تحت شعار « كتاب كل ٦ ساعات» .

لقد أكدت هذه الهجمة الإعلامية الشرسة وبوضوح، أن العمل الثقافى لا يمكن أن يسير جنبا إلى جنب مع العمل الإعلامى، إذ تم إهدار القيم الثقافية وحتى القيم التعليمية خلال تلك الفترة وانخفض عدد الملتحقين بهذه الجامعات إلى الحد الذى يمكن القول، بأنها فرغت من مضمونها .

لقد كانت استراتيجية الأجهزة خلال تلك الفترة، هو الدعاية للنظام وللحكومة بكل السبل وحشد جموع الشعب خلفها، والنتيجة أن تم تفريغ الثقافة من مضمونها الاجتماعى والسياسى، فجاءت صورة مهزوزة من الأجهزة الضالعة المنوط بها تزييف

،القيم وابتذالها، وصولا إلى تزييف الوعى الجماهيرى.

انتهى «سعد» من دراسة كل الأضابير والملفات، وكانت آخر صفحة هو قراءته لقرار تعيين الدكتور ثروت عكاشة نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للثقافة - دون الاستعلامات- مما يعنى أن الوزارة أصبحت معنية بالعمل الثقافى فقط، وكان أن تبعتها «جامعة الثقافة الشعبية» والتى من وجهة نظره الخاصة، الركيزة الأساسية لبداية العمل الثقافى الجديد. وبعد أن تم استيعاب الأمر الواقع بدأت الخطوات التفصيلية القابلة للتنفيذ، والتى كانت تقوم على بندين رئيسيين هما البشر والإمكانيات.

وبانضمام جامعة الثقافة الشعبية كان هناك ما يزيد على الألف موظف، ولم تكن المشكلة فى أعداد البشر ولكنها كانت تكمن فى توافر التخصصات التى لا تتمشى مع البناء الجديد، فغالبية هؤلاء العاملين من الفنون والصنايع، أو رجال تعليم سابقين للغة العربية أو الإنجليزية، كما أن غالبيتهم لا تحضر لمقار العمل وذلك لعدة أسباب. فمن بينهم من هم مغضوب عليهم من وزارة المعارف (التعليم)، أو من كانوا محل رضاء من قبل رؤسائهم بالوزارة، فأتاحوا لهم فرصة التفرغ لأعمالهم الخاصة، بإحالتهم للعمل بهذه المؤسسة، قلة قليلة فقط من بين هؤلاء يمكن العمل معهم فى المشروع الثقافى الجديد، وهم حملة البكالوريوس أو الليسانس فى الفنون الجميلة، أو كلية الآداب، أو بعض موظفى إدارة العرض السينمائى المحترفين، إلى جانب بعض الحرفيين من سائقين أو نجارين أو حدادين.

وأصبحت المشكلة هى الاستغناء عن هذا الكم الهائل، ومن بينهم مخلصون لعملهم بالفعل، ولكن للأسف نوعيته لا تتفق والخطة التنفيذية الجديدة.

إذن كانت بيروقراطية الجهاز الحكومى قادرة على أن توقف تنفيذ أية قرارات، حتى لو كانت جمهورية لمدة سنوات، وهو ماحدث تماما عند نقل تبعية الجامعة الشعبية من وزارة المعارف إلى وزارة الثقافة... ولذلك فإن الخطوة الأهم كانت طريقة التحرر من هذه البيروقراطية خاصة، حتى يكون العمل الجديد وفق منظمة شعبية، وما على

الحكومة إلا أن ترعاها ليتم استقلالها عن الجهاز الحكومى... كان ذلك هو الهدف، فهل يمكن تحقيقه؟ تلك هى القضية.

لقد كان العمال والفلاحون هم الجمهور المستهدف، خاصة وأنهم يعيشون على هامش المجتمع عصر ما قبل الثورة، وبعد الثورة أصبح لهما كيانهما المستقل، وذلك بعد توزيع الأراضى على الفلاحين، وأصبح العمال يشاركون فى إدارة المصانع التى توسعت الثورة فى إقامتها. كما انتشرت المدارس فى القرى والمدن الصغيرة بواقع مدرسة كل يوم، وفتحت الجامعات أبوابها لأبناء الشعب، وبدأ إنشاء جامعات جديدة بالأقاليم، وبذلك لم تعد القاهرة المركز الرئيسى للعلم أو للصناعة أو للزراعة، وبالتالى لتكون هى مركز الإشعاع الوحيد للثقافة. كما أن وزارة الثقافة ليست هى الوزارة الوحيدة التى عليها إنتاج الثقافة وتصديرها للأقاليم، وتطلب الأمر فى البداية إقامة وزارات صغيرة تتبع المركز الأم فى القاهرة كبداية، ثم تدريجيا تنسلخ عنها لتستقل عنها تماما... ويقتصر دور هذه المراكز على العمل فى المجال الثقافى بالمحافظات، ولتشمل كافة المدن والقرى، وأن يتم ذلك خلال فترة زمنية تتراوح بين خمس وعشر سنوات، لكى يتم استقلالها بالكامل عن القاهرة. وهذا ما يتفق تماما مع الأهداف التى كانت متوقعة من تأسيس مديريات للخدمات، كالصحة، والتعليم، والزراعة، والشئون الاجتماعية، وغيرها، مع الأخذ فى الاعتبار أن للثقافة طابعها الخاص.

إذ أن مركز الثقافة فى الأقاليم مركز شعبى، كما أن الثقافة إبداع وخلق فى مختلف مجالات الفنون، التى من بينها المسرح والسينما والفنون الشعبية والتشكيلية والموسيقى والغناء، ونتائج هذا التنوير لا تنضج سريعا، كما أنه لا يجوز ولا يستطيع أن يتدخل فيها وزير، أو محافظ، أو أحد كبار مسئولى مؤسسة الثقافة الجماهيرية من القاهرة بإصدار الأوامر أو التوصيات. وعلى إدارة الثقافة الجماهيرية فى القاهرة، أن تحرص كل الحرص على تحقيق هذه الاستقلالية. وذلك فى حد ذاته هو مقياس النجاح.

بقى بعد ذلك أهمية تحديد الأدوات والوسائل التى تمكن من تحقيق الهدف.

وبنظرة سريعة على ما كانت تحويه قصور الثقافة والجامعة الشعبية، نرى أنها شبه خالية من كل أدوات الإنتاج، التى تتمثل فى آلات العرض السينمائى، وشاشات العرض وتجهيزات المسرح، وصالات عرض الفنون التشكيلية، أو قاعات الاستماع للموسيقى، وأماكن مناسبة لعقد الندوات، أو المحاضرات حتى وإن توافرت هذه المعدات فهى متهالكة قد تعمل مرة ولكنها تتوقف مرات عديدة، كما أن بعض هذه المراكز الثقافية لم تكن سوى شقق صغيرة لا تصلح لممارسة مثل هذه الأنشطة. إلى جانب ذلك كانت قوافل الثقافة فى حالة يرثى لها، كما أن الذين كانوا قد ساهموا فى توفيرها لم يهتموا أبداً بمدى ملاءمتها للتنقل داخل طرقات القرى والنجوع، وهى دائما ما تكون وعرة وضيقة وغير ممهدة.

إن توفير المعدات من السهولة بمكان، خاصة وأنه يقف وراء هذا المشروع الثقافى الكبير الوزير، وكذلك عبد الناصر مهتمان لتحقيق هذا الإنجاز الكبير... ولكن السؤال الأهم.

من الذى سيدير هذه الأدوات إذا ما توقفت؟

من الذى سيجعلها تنطق؟ وماذا تقول؟

وكيف تحدث الشرارة بينها وبين الناس؟

وبعد أن انتهى «سعد» من تشخيص المشكلة تشخيصاً عميقا، انتقل إلى خطوات العلاج، وقد حددها فى ست نقاط كالتالى:-

* تنحية كل القيادات والعاملين الذين لا يصلحون جانبا، ومنحهم ألقابا شرفية « كمستشار» أو نقلهم للعمل بوزارات أخرى، أو إلى ديوان عام الوزارة كل حسب رغبته، مع الاحتفاظ بكل الميزات المالية التى كانوا يتمتعون بها.

* تعيين شخصيات ثقافية مرموقة، تعمل خارج وزارة الثقافة عن طريق انتدابهم أو استعارتهم أو تعيينهم بالمكافآت الشاملة، وأن يجزل لهم العطاء.

* نقل بعض الفنانين المعينين فى مؤسسات وزارة الثقافة إلى مؤسسة الثقافة الجماهيرية - إذا ما رغبوا فى ذلك، وبعد موافقة جهة عملهم على هذا النقل.

* الاستفادة بأى أعداد متوافرة من العاملين بالقصور والمؤهلين فنيا وثقافيا بصفة مؤقتة وتحت التجربة، ليكونوا هم قادة لهذه القصور فى المستقبل

* يشارك وزير الثقافة فى المرحلة الأولى، بصفته الشخصية بالاتصال بالمحافظين وتشجيعهم على تأييد المديرين الجدد، ويدعمهم بالإمكانيات المادية والعينية، وكذلك ندب الموظفين ذوى المواهب المختلفة، وأن يعتبروا قصر ثقافة المحافظة هو وزارة ثقافة جديدة وأن مديرها هو وزير ثقافة الإقليم .

* إطلاق اسم «مؤسسة الثقافة الجماهيرية » على المشروع الثقافى الجديد.

واختتم «سعد» تقريره بقوله « يجب أن ينتجوا ويبدعوا ثقافتهم بروح تتسق مع طبيعة أقاليمهم.. وأن يتبنوا كل ما هو جيد فى كل محافظة ... عليهم أن يعملوا بهدف إبراز واكتشاف مواهب فنية جديدة، ومسح للفلكلور الشعبى فى أنحاء الإقليم، وسيأتى يوم ستتنافس فرق الأقاليم المسرحية والثقافية مع ما هو موجود فى القاهرة.

إن الآمال كانت واسعة والأرض خصبة تحتاج إلى تمهيد ... والمهمة وإن كانت تبدو صعبة، غير أن إيمانهم برسالة المؤسسة الجديدة، والتى تهدف إلى تجسيد آمال وأحلام الملايين والذين حرموا من المشاركة الإيجابية سواء سياسيا أو ثقافيا ستفتح لهم أبواب النجاح.

إن مراكز الثقافة التى تتمثل فى قصورها وبيوتها وقوافلها، هى العمل الحكومى الوحيد الذى لا يطلب من جماهير الشعب أى شئ، سوى أن يتمتع ويسعد بالمشاركة فى الخلق والإبداع.

لم يطق «سعد» الانتظار إلى الصباح ليسلم التقرير للدكتور ثروت، ولكنه توجه إلى مكتبه واستلم منه التقرير الذى حمله فى حقيبته.. ليقرأه فى المنزل على مهل!

* * *

[٢٥]
رواد الثقافة الجماهيرية

«إنى سعيد بتقريره .... وسأساعده بأقصى جهد ممكن»

كان هذا تعليق الدكتور ثروت عكاشة عن التقرير الذى سلمه له «سعد»، ووضعه فى حقيبته ليقرأه فى منزله، ولكنه قرأه فى السيارة وأبلغ مارى أن تبلغ «سعد» هذه الرسالة المهمة عند عودته للمنزل.

لقد كانت كلمات الوزير قوية وحاسمة، وبدورها أشعرت «سعد» بالثقة، وبرغبته العارمة فى بذل أقصى ما لديه، من أجل تحقيق كل الأفكار والأحلام التى كانت تراوده لعشرات السنين.

وفعلا فى اليوم التالى مباشرة، تم اتخاذ أول خطوة إيجابية، وأصدر الدكتور ثروت عكاشة القرار رقم ٣٠ بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٦٦، الذى ينص على تعديل تسمية - جامعة الثقافة وقصور الثقافة - إلى - الإدارة العامة للثقافة الجماهيرية - وقرارا آخر بندب سعد كامل من جريدة أخبار اليوم، للعمل مديرا عاما للإدارة العامة للثقافة الجماهيرية، ومقرها جاردن سيتى.

وعلى الفور بدأ «سعد» إعداد مساعدين له، لا بد أن يتوافر بهم الفهم الكامل لهذا المشروع الثقافى، والقادرين على التصدى للبيروقراطية، وفى الوقت نفسه الإمكانية الإدارية لحفظ الوثائق والمستندات، والتى تؤكد عدم وجود أية تجاوزات. وكانت البداية تعرفه على شخصية إدارية ممتازة تعمل فعلا بالإدارة، وهو «شكرى روفائيل» أمين عام الجامعة الشعبية، وتم تعيينه أمينا عاما للثقافة الجماهيرية، وساعده فى البناء الإدارى المحاسب الشاب محمد مراد، الذى تم انتدابه من أحد الأجهزة المالية، ليشارك فى

ضبط وتسهيل الحسابات المالية وضمان سرعة التنفيذ، وتجهيز المصروفات المطلوبة فى الوقت المناسب، مع المحافظة على كافة المستندات والتوقيعات السليمة، وهى أمور من الصعب تحقيقها مع الروتين الحكومى، ولكن الفريق المشارك نجح فى الإنجاز، وكان هذا النجاح قد تم على حساب صحة ووقت وشباب العاملين.

وقادت أعمال السكرتارية والمكتب، السيدة دولت أبو العينين شقيقة الفنان عبد الغنى أبو العينين، وزوجة زميله فى سجن الواحات حليم طوسون.

وكان على ثقة، أن جهد الأفراد المخلصين والمؤمنين بفكرة الثقافة الجماهيرية، الذين يعملون على تذليل أية عقبات تعوق الطريق، إلى جانب عدم الاهتمام بالمكاسب المالية ودون النظر إلى وقت أو جهد مبذول، فالإيمان كفيل بتحطيم كل القيود.

شعر المخلصون والشرفاء أن هناك عملا جادا يجرى إنجازه، فانهالت الطلبات من الأصدقاء والمعارف للمشاركة فى تلك المسيرة المهمة، دون الاهتمام بقدر العائد المادى أو المكاسب الشخصية التى تعود عليهم. كانت هناك على سبيل المثال مشاركة ايجابية من قبل ألفريد فرج الكاتب المسرحى، الذى لخص أهمية الثقافة الجماهيرية، التى تعنى إذا ما وصلت إلى الشعب، تسليح الجماهير بسلاح المعرفة الذى لا يمكن مقاومته بكل أنواع الديكتاتورية والفاشية. ويكفى أن جوبلز الزعيم النازى له مقولة فى هذا المجال هى: عندما أسمع كلمة ثقافة أتحسس فى الحال مسدسى ! لم ينتظر ألفريد فرج تحديد اختصاصاته، أو الاتفاق على مواعيد الحضور والانصراف، ولكنه أصبح المساعد الأول له، ويشاركه مشاركة ايجابية فى كل الخطوات الأولى لبناء مؤسسة الثقافة الجماهيرية. كما قام الفنان الشعبى الموهوب زكريا الحجاوى باقتراح العديد من الأفكار البناءة، فى محاولة لاكتشاف المواهب الفنية البكر بالريف.

وهكذا توافر «لسعد» مجلس أركان حرب منعقد بصفة دائمة، يتمثل فى كل من ألفريد فرج وزكريا الحجاوى، ومن بعدهما بهجت عثمان وحسين بيكار وزهدى، وكلهم من نجوم عالم الفن ومن ذوى الخبرات الطويلة والأفكار المتقدمة، حتى أنه خلال ثلاثة أشهر فقط كانت المحصلة النهائية غنية بالنتائج المبشرة والعمل الإيجابى الناجح، وكأنه بدأ من سنوات طويلة.

وخلال اجتماع المجلس الأعلى للثقافة، والذى يضم العديد من القيادات الجديدة فى مجال العمل الثقافى، فقد كان هناك الأديب نجيب محفوظ والدكتور على الراعى، وأحمد حمروش، وحسن فؤاد، وعبد المنعم الصاوى.

وقام الوزير خلال الاجتماع بعرض خطة الثقافة الجماهيرية، والخطوات الأولى التى تم تحقيقها، والتى استقبلها غالبية المجتمعين بحماس كبير، وخاصة من قبل نجيب محفوظ الذى قال عبارته المشهورة يومها « إن الثقافة الحقيقية هى النابعة من القاعدة الشعبية، وكلما تعمقنا فى الجذور كلما ارتفعنا إلى العالمية» وعلى النقيض من ذلك كان حسن عبد المنعم وكيل الوزارة ومعه عبد المنعم الصاوى، فقد كان يرى أن ما يتم هو « جمهورية الثقافة» أى أن الثقافة الجماهيرية قد تعدت اختصاصها، وزاد حجمها وأصبحت وزارة أخرى للثقافة موازية للوزارة. كما كان عبد المنعم الصاوى يرى أن مفهوم الثقافة الجماهيرية ينحصر فى إدارة التشهيلات، لنقل المنتج الثقافى من المدينة إلى الريف، ونقل المواهب التى قــد تكون فى الريف إلى المدينة، وهى استراتيجية متكاملة وتختلف تماما عن التنمية الثقافية فى مواطنها الأصلية، وإجراء تبادل للمنتج الثقافى الجيد ما بين كل من القرية والمدينة.

وفى نهاية الاجتماع، تمت الموافقة بالأغلبية على ضرورة دعم خطط الثقافة الجماهيرية واستمرارها.

ثم بدأت الخطوة التالية، ولعلها من أهم الخطوات وأصعبها، وهى اختيار مديرى الثقافة فى المحافظات بتوجهات مختلفة عن النمطية والروتين، وعلى ذلك يجب أن تتوافر إلى جانب المواصفات اللازمة لشغل هذا المنصب، مواصفات اخرى منها الإيمان بالعمل الجماهيرى، وأن عليه إشعال شرارة الثقافة الأولى والتى سيتبعها بدون شك تجاوب جماهيرى واسع، إذا ما شعرت هذه الجماهير بالمصداقية.

وقد تم اختيار الفنان هبة عنايت وزوجته الفنانة تماضر ترك، اللذين وافقا بحماس الفنانين على الانتقال إلى أسيوط والإقامة الدائمة بها، ليتعايشا مع الواقع الجديد. وقد قام أحمد كامل محافظ أسيوط آنذاك، بتخصيص شقة جميلة ليقيما بها،

وأرسل لهما سيارة نقل ليحضرا أثاثهما من القاهرة. وبمحافظة بنى سويف تم انتداب يعقوب الشارونى، الذى كان يعمل بقلم قضايا الحكومة الذى يرأسه عبد العليم الجندى، وكان يرفض تماما ندب أى موظف لخارج الجهاز، ووضع مبدأ - الاستقالة قبل الندب - غير أن «سعد» فى جلسة هادئة أقنعه بأهمية العمل الجديد، واستجاب المستشار ليس فقط يعقوب الشارونى لقصر بنى سويف، بل أيضا على ندب الكاتب المسرحى محمد دياب لرئاسة قصر ثقافة الاسكندرية.

أما قصر ثقافة الأنفوشى، فقد كانت المنافسة تدور بين ثلاثة شبان، وعند إجراء مقابلة شخصية مع كل المتنافسين الثلاثة، وجد «سعد» أن الفنان فاروق حسنى (وزير الثقافة الحالى) هو الأصلح لتولى مسئولية القصر.

وفى أسوان تأكد أن المدير المعين، والقائم بالعمل فعلا متجاوب تماما لإنجاح السياسة الجديدة، خاصة وأنه من أهالى النوبة، مما جعله أكثر تفهما للواقع الأسوانى، وتم دعمه بمشاركة إيجابية من المؤلف المسرحى على سالم وأمكن بتعاونهما المشترك، تحقيق نجاحات كبيرة من أهمها الإعلان عن تشكيل فرقة فلكلورية ذاع صيتها فى أنحاء العالم، إلى جانب عرض العديد من الأعمال الفنية على بناة السد العالى من العمال والخبراء السوفييت.

وكان محمد البلتاجى محافظ الجيزة متحمسا للعمل الثقافى، وتم اختيار الفنانة رعاية النمر - زوجة الفنان عبد الغنى أبو العينين - مديرة للقصر وقام المحافظ بتخصيص قصر جميل للثقافة الجماهيرية، بدلا من الشقة الخربة والتى كانت مركزاً للثقافة، وكان يعاونها فى أداء العمل فؤاد عرفة، وهو وكيل وزارة الثقافة فيما بعد.

ولمحافظة كفر الشيخ كان الكاتب والمؤرخ جمال حماد هو المحافظ، وتم نقل الفنان عز الدين نجيب والمعين فى الجامعة الشعبية دون أى اختصاصات، ووافق على الفور أن يترك القاهرة وينتقل إلى برارى كفر الشيخ، ليحقق حلم المثقفين المصريين بنقل العمل الثقافى إلى الريف.

وخاض الفنان التشكيلى هانى جابر تجربة فريدة فى قصر ثقافة محافظة السويس، أثمرت عن نجاحات ملموسة وتركت بصمات عميقة للتنمية الثقافية. كما نجح محمد غنيم (الذى أصبح وكيلا لوزارة الثقافة للشئون الخارجية فيما بعد)، فى أن يتعاون مع وجيه أباظة محافظ البحيرة ، وأثمر تعاونهما عن نتائج ملموسة، منها قيام فرقة فلكلورية استطاعت أن تنافس على مراكز الصدارة أعرق الفرق الفلكلورية العالمية.

وهكذا كانت بداية العمل داخل سبع محافظات وثمانية مديرين، وقبل أن يتسلموا عملهم اجتمعوا مع «سعد» بالمقر الرئيسى للثقافة الجماهيرية بجاردن سيتى، طلبا للتوجيهات.

غير أن «سعد» أجابهم بقوله (لا توجيهات سوى أنكم مقبلون على تجربة فريدة من نوعها، ستحفرون طريقكم غير الممهد، لن تجدوا أحدا يرحب بكم، فالموظفون القدامى سيظنون أنكم قد أتيتم لتكملة عمل روتينى كان وسيستمر، كما أن الجماهير قد تعودت على أن الجهاز الحكومى جاء ليأخذ لا ليعطى) واستطرد قائلا « لا وصاية ولا توصيات، أو توجيهات، تصرف كأنك وزير للثقافة بالمحافظة التى تعمل بها. نريد أن ننشئ حركة ثقافية فى كل المجالات ، والمهم أن تحاولوا اكتشاف عناصر جديدة من داخل أو خارج القصور تصلح لأن تخلفكم فى العمل لضمان استمرار المسيرة ، فالمهم أن تضرب الثقافة بجذورها فى الأرض».

وانفض الاجتماع، والجميع فى عجلة لمعرفة كيف ستكون البداية، وكيف سيتم إقناع الجماهير برسالة القصر ؟.

وللوقوف على مزيد من التفاصيل، نعرض لتجربتين كما رواهما أصحابهما، هما تجربة قصر ثقافة الجيزة كما ترويها الفنانة رعاية النمر قبل رحيلها بفترة وجيزة.... وتجربة قصر ثقافة كفر الشيخ كما كتبها الفنان عز الدين نجيب فى كتابه «الصامتون».

* * *

[٢٦]
تجربة رعاية النمر

الفنانة رعاية النمر تخرجت فى كلية الفنون الجميلة سنة ١٩٥٨، كانت تؤمن بنظرية الفن للحياة، إذ تتلمذت على يد رائد هذه المدرسة الفنان حسن فؤاد. إهتمت بالفنون الشعبية وجابت كل محافظات مصر، وطافت بالقرى والنجوع لتتعرف على الأزياء والحلى الفلاحى، وتعود بنماذج منها إلى مرسمها. وأخذت تعمل على تطوير الجلباب الريفى، وتجعله زيا عصريا متطورا، تتنافس الأجنبيات والمصريات على التباهى بالجلابية المصرية. تزوجت بالفنان عبد الغنى أبو العينين، بعد أن اتفقت أهدافهما فى تنمية الفنون الشعبية، وحولا منزلهما إلى متحف دائم للفنون والرسوم الشعبية، عملت فى مجلة الإذاعة والتليفزيون كمنسقة فنية، ثم تم ندبها للعمل فى إدارة الثقافة الجماهيرية. كان «سعد» يعرف قدراتها ومواهبها مسبقا، ووجد أن قصر ثقافة الجيزة هو المكان المناسب لإظهار طاقتها وإمكانياتها، ولأن البلتاجى محافظ الجيزة كان من المتفهمين لرسالة الثقافة الجماهيرية، فقد أبدى استعداده لدعمها، وقبلت رعاية أن تتولى المهمة. وذهبت إلى القصر الذى خصصه المحافظ للثقافة الجماهيرية، كان قصرا منيفا يقع أمام حديقة الحيوان وهو - قصر مشرقى - وصفته رعاية بأنه تحفة معمارية نادرة إلى جانب أنه مملوء بالزخارف الفنية المتقنة (وقد تم هدم القصر فى السبعينيات وحلت محله عمارة من ٣٢ طابقا كمقار لرجال الأعمال). وبعد دراستها للأحوال السائدة بالقصر، اكتشفت أنه كان وفق العرف الذى كان سائدا، أحد الجراجين المخصصين للتخلص من الموظفين الزائدين على حاجة العمل الفعلى. الجراج الأول كان ديوان وزارة الثقافة، أما الجراج الثانى فكان قصر ثقافة الجيزة، إذ كان يتم استبعاد كل من هو زائد على العمل، أو من الموظفين المشاغبين وغيرهم من مثل

هذه النوعيات للعمل بقصر ثقافة الجيزة وهناك ليس مطلوبا من هذه النوعيات سوى التوقيع والانصراف. ويكفى أن نذكر كما قالت رعاية، إنهم كانوا يطلقون عليه اسم «المصحة» فهو المكان المناسب لمص القصب وأكل الخس على سطحه. وكان من رأيها أن المطلوب (مروض للوحوش) للعمل فى مثل هذه الأجواء، وليس فنانا أو مبدعا ثقافيا. غير أن «سعد» طلب منها أن تعمل على تغيير هذا الأمر الواقع، كما أضاف إلى تبعيتها مركز ثقافة كفر الشرفا لتنميته أيضا!. ودعما لها تم ترقية فؤاد عرفة، وهو من الموظفين المشهود لهم بالعمل الجاد، ليصد عنها بعضا من المشكلات الإدارية.

كان لدى القصر عربة نصف نقل، تقوم بتنقلات الموظفين، وفى طريقها إلى مركز ثقافة كفر الشرفا لتتعرف على الإمكانيات المتوافرة، استقلت السيارة بجوار الأسطى طايع السائق، الذى كان يقودها بطريقة فجة، إلى جانب أن السيارة ليس بها زجاج، وتظن رعاية أنه متعمد، حتى لا تفكر مرة أخرى فى القيام بمهمة رسمية!

وصلت رعاية إلى المركز الثقافى، لتجد أن هناك عاملا واحدا، هو عم محمد أبو صايمة، مرتبه الشهرى أربعة جنيهات، ويقوم بإنتاج الحصير الذى يباع للمساجد، وهو حصير لا يختلف شيئا عن غيره، وعادت رعاية إلى الإدارة المركزية فى جاردن سيتى، لتطلب من «سعد» إعفاءها من تلك المهمة الثقيلة، ولكنها لم تستطع أن تنطق بكلمة، فالهواء البارد خلال رحلة كفر الشرفا أفقدها النطق تماما ! ورغم ذلك فقد فهم «سعد» ماتريد أن تنقله له رعاية، وعاد يؤكد لها أنه لا يوجد شىء اسمه مستحيل، وأنه سيتم توفير كل ما يلزم.

وفى قصر الجيزة أيضا كان هناك - غانم - وهو ساعى يعمل بالقصر، وفى عهدته الآلات الموسيقية المتوافرة بالقصر، وقد تبين أنه أحد مراكز القوى، لقد كان يقوم بتأجير هذه الآلات الموسيقية للفرق الفنية فى شارع الهرم ! وحتى عندما أحالته إلى لجنة للتحقيق معه فى الأمر، كانت اللجنة تعمل لحسابه تقريبا... إذ يكون هو فى إجازة إذا ما جاءت اللجنة للتحقيق معه، وإذا حددت موعدا، يتضح فيما بعد أنه يوم عطلة رسمية !! باختصار لم تستطع رعاية - على حد قولها - طوال العامين وهى فترة تواجدها، من ردع هذا الفراش!

لقد كان الروتين والبيروقراطية أقوى منها.

وحاولت رعاية أن تجد مخرجا، فطلبت من الأستاذ صبرى رئيس الحسابات أن يوفر لها ميزانية، بغرض القيام بنشاط محدود، غير أن عبارة «البند لا يسمح» أدى بها إلى أن تثور على مدير الميزانية، غير أنه عاد فأخبرها أنه فى الإمكان أن يصرف من بند « دفن الموتى »، لكن ذلك أدى إلى زيادة توترها وثورتها، فكيف تكون هناك ميزانية للموتى، وليس هناك ميزانية للأحياء. مما جعلها تصر على توفير هذه الأموال، وأنها على استعداد أن تقدم له كل التوقيعات المطلوبة من الوزير إلى الغفير ! حتى يضبط حساباته!

اتجهت إلى صانع الحصير أبو صايمة فى كفر الشرفا، وطلبت منه أن يضيف شيئا ولو ضئيلا لعمله فى صناعة الحصير... ليكن رسمة لعصفورة أو نخلة أو حتى مجرد لون، مع وعد منها أن تشترى منه كل ما ينتجه... وعلى الفور بدأ عم محمد يضيف بفطرته ويعطى الإضافات الفنية، وكانت تشجعه كل مرة... برافو ياعم محمد... الذى كان بدوره يزداد حماسا، وبالتالى جاء اليوم الذى انضم إلى المركز أعداد من المتدربين على هذا العمل الفنى، ودارت عجلة الأنوال المركونة منذ زمن بعيد.

كان بالقصر عدد من العاملين فى قسم المسرح الشعبى، وغالبيتهم من كبار السن فهم يعملون منذ الثلاثينيات تقريبا، وأصبحوا اليوم لا يستطيعون إطعام أنفسهم، واتفقت معهم رعاية على إعفائهم من الحضور يوميا، مقابل أن يعملوا فى منازلهم بكتابة ذكرياتهم الفنية، تحت مسمى إصدار كتاب يضم ذكريات هذا الزمن الجميل.... وكان من بينهم من لا يجيد القراءة والكتابة، وهؤلاء يمكنهم أن يسجلوا على شريط تسجيل أو أن يكتب له ابنه أو صديق له... وفعلا بدأت أعدادهم تتناقص واتجهت الأنظار إلى اكتشاف مواهب جديدة، وتم تشكيل فرقة مسرحية باسم «خمسة وخميسة » ونجحت فى اكتشاف العديد من المواهب الشابة، كان منهم الفنان نور الشريف والفنانة إنعام الجريتلى، والفنان محمد إسماعيل، وكانت الإدارة العامة هى التى تمدهم بالنصوص المسرحية.

وتشكلت أيضا فرق للشعر والموسيقى والغناء... يؤدون بروفاتهم بآلات موسيقية جديدة غير آلات القصر الضائعة.

بعد أربعة أشهر فقط تحول القصر إلى خلية نحل... أفكار.. أعمال... تنفيذ... تخطيط... الكل يطلب، والكل يعمل، والكل يشعر بأن القصر ملكه وأن فى وسعه تحقيق المزيد من الأعمال الفنية.. ويقول فؤاد عرفة: لقد تحول قصر ثقافة الجيزة من مصحة للموظفين إلى خلية نحل، يتصادم فيها العاملون بالقصر لانشغالهم جميعا فى تحقيق المزيد.

لقد بدأ القصر يحصد أولى ثمار النجاح، وبدأ التخطيط للعمل خارج القصر، والالتحام المباشر بالقاعدة العريضة.... حتى المركز الثقافى بكفر الشرفا، قد تحول بدوره من مركز لإنتاج الحصير للمساجد، إلى مركز إبداع فنى... لقد تحولت العصفورة والنخلة التى كانت تطالب بها رعاية، إلى أعمال فنية تشهد لها كل الأوساط الفنية.

وجاءت أحداث يونيو المريرة... النكسة.. ورغم ثقلها ووقعها الكبير على الجميع، إلا أن العاملين بقصر ثقافة الجيزة قرروا عدم الاستسلام، وشعروا أن عليهم مسئولية كبيرة، مسئولية العمل على أن يسترد الشعب ثقته بنفسه.واستعادة روح الكفاح من أجل التحرر.

وبدأت قوافل الثقافة تجوب قرى ريف الجيزة، ورغم الجو الكئيب الذى يغلف ثقل الهزيمة على الشعب، فقد تم عقد العديد من الندوات واللقاءات الفكرية والشعرية، وتقديم العروض السينمائية والمسرحية، والتى تنتهى غالبا بتظاهرة شعبية تؤكد عدم الاستسلام، رغم ثقل الهزيمة الجاثمة على النفوس.

وفى شهر رمضان ١٩٦٧، عهد الدكتور ثروت عكاشة لزكريا الحجاوى، مسئولية السرادق الذى كانت تقيمه وزارة الثقافة سنويا بميدان الحسين، ليصبح ملتقى وطنيا ثقافيا لرفع الروح المعنوية للجماهير المتعطشة للانطلاق، واستعان زكريا الحجاوى برعاية النمر وبقصر ثقافة الجيزة ليشاركوا فى تلك المهمة الوطنية.

وقدم قصر ثقافة الجيزة عدة فقرات من أبرزها كانت المطربة دلال... ولمن لا يعرفون دلال، فهى مطربة كانت تعمل فى أحد ملاهى شارع الهرم، مقابل عدة آلاف من الجنيهات، ولكنها أحست بثقل الهزيمة وتقدمت طواعية لقصر ثقافة الجيزة لتعلن استعدادها للمشاركة وبالمجان فى تقديم الأغانى الوطنية، ولتسهم فى رفع الروح المعنوية... ونجحت بصوتها القوى فى أداء موال - جسر العودة - وألهبت به مشاعر الحاضرين... كانت تغنى بكل قلبها وبكل مشاعرها، فجاء أداؤها صادقا وتلاقى مع أحاسيس المشاهدين.

كما تم عرض مسرحية أبيض وأسود ن من تأليف أحمد راتب، وأداء فريق الجيزة المسرحى «خمسة وخميسة»، وتحول السرادق طوال شهر رمضان إلى مظاهرة وطنية يومية، جعلت الآلاف يتوافدون عليه حتى يتزودوا بجرعة من الوطنية والمقاومة... لقد ضاق السرادق بمشاهديه إلى الحد الذى دعا رعاية وألفريد فرج مستشار الثقافة الجماهيرية، للتوجه إلى قسم الشرطة بطلب تكثيف التواجد الأمنى، لتنظيم هذا التهافت الجماهيرى المتزايد، والذى ينذر بخطر سقوط السرادق على من بداخله، مما يؤدى إلى كارثة إنسانية...

وكان هذا يعنى تنظيم حماس الجماهير!!

* * *

[٢٧]
تجربة عز الدين نجيب

وكانت تجربة عز الدين نجيب مع الثقافة الجماهيرية تجربة كاشفة للمشاكل الواقعية فى الريف والتى قد تعوق انتشار الثقافة... لقد تم تعيين عز الدين نجيب خريج الفنون الجميلة موظفا بمديرية ثقافة محافظة بورسعيد، حيث خنقته العقلية البيروقراطية مما جعله يفر من الأقاليم مفضلا أن يبقى داخل مرسمه المتواضع، بأحد قصور الثقافة الخاوية على عروشها، متفرغا لإنتاجه الفنى والأدبى، إلى أن عرض عليه «سعد» تولى مهمة إدارة قصر ثقافة كفر الشيخ، والتى لم يكن يعرف عنها سوى موقعها على خريطة مصر.

فى كتابه «الصامتون» يحكى عن هذه الفترة فيقول: « إن اختيار سعد كامل لى، دون سابق معرفة شخصية، كان يرجع إلى أسلوبه فى تجاوز أشواك الساحة الثقافية والسياسية، لقد كان لحيوية وحماس سعد كامل، للقيام بتجربة جديدة ذات رؤية ثورية، جعلتنى أقيم المسألة فى جديد، فقد تم تنحية وبشكل حاسم معظم العناصر العتيقة فى جهاز الجامعة الشعبية، واعتمد فى ملء فراغهم على عناصر من الشباب، ليس لها ماض سياسى معروف وعلى شخصيات لها دور ديمقراطى عام... وقلت لنفسى حسنا... فلنجرب... وهكذا قبلت المهمة »

وصل عز الدين نجيب كفر الشيخ، وبصعوبة بالغة أمكنه العثور على المركز الثقافى الذى سيصبح «مديره»، فى بيت مظلم ذى درجات متهدمة ودخل إليه من ممر موحل.. ووجد لافتة صغيرة كتب عليها بخط الدواوين الحكومية العتيقة « مركز الثقافة والاستعلامات »، كان الباب مغلقا والجرس معطلا... طرق الزجاج... أخيراً طل رجل عجوز، وهو يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة كأنما استيقظ لتوه من النوم !!

قابل المدير الكهل الذى سيحل محله.. نموذج للموظف المصرى الأزلى... يعبد اللوائح الرسمية يستف الملفات بعناية.. يرتجف من المسئولية والرؤساء، ولا يكف عن الشكوى.

وبعد إتمام اجراءات التسليم والتسلم، أخبره المدير السابق أنه سيذهب لوداع السيد المحافظ جمال حماد... وافق عز الدين نجيب على الذهاب معه كبداية تعارف على هذا العالم الجديد...وفوجئ عز الدين نجيب بأن السيد المدير السابق ينحنى راكعا أمام المحافظ ثم يتناول يده ويقبلها... رغم أنه استقبل عز الدين بحفاوة بالغة، وأخذ يحدثه عن اهتمامه بالثقافة واستعداده لتقديم كافة الامكانيات اللازمة لنجاح مهمته... إلا أن صورته وهو يمد يده للرجل الكهل ليقبلها ظلت ماثلة شبحًا بينه وبين المحافظ.

وفى صباح اليوم التالى كان عز الدين جالسا أمام «سعد» يقدم له تقريرا مكتوبا بما شاهده... معتقدا أن «سعد» سيفى بوعده عندما أرسله إلى كفر الشيخ بأن يعيده إلى القاهرة... ولكنه وجد «سعد» غير مندهش من الواقع الذى حكى عنه بل العكس كان يرى أن هذا التخلف الثقافى بداخله العطش الشديد للحياة بكل صورها ومنها الثقافة... ولكن كيف نكتشف المدخل لإشباع هذا العطش ؟!

« أنك تمتلك بداية تحسد عليها.. سيارة معطلة... وآلة عرض سينمائى!!»

بعد هذا اللقاء... أدرك عز الدين نجيب أنه أمام اختبار صعب، وأن المسئولية كلها تلقى على كتفيه وحده... فهل يكون على مستواها أو لا يكون؟... لقد اختار الطريق الصعب.

بدأ يتحسس طريقه.. وكانت الخطوة الأولى هى الاتصال بأعضاء الفرقة المسرحية، والتى سرعان ما نجحت فى تقديم مسرحية «الزوبعة » لمحمود دياب. تم عرضها فى الهواء الطلق وكان قد أخرجها المخرج حسين جمعة بأسلوب مسرح السامر... وكانت المفاجأة أنه وجد نفسه أمام مواهب حقيقية شاركت فى كل العمل المسرحى، من إقامة الديكور، والإكسسوارات، والإدارة المسرحية، والإخراج، والممثلين،

رغم أن غالبية المشاركين فى الفرقة كانوا من صغار الموظفين فى مختلف المواقع بالمحافظة غير أن حب المسرح لَمَّ شملهم كهدف مشترك وأصبحوا أصدقاء، يحلمون معا بإدخال واقع ثقافى فى محافظة البرارى!!

طلب عز الدين نجيب مقابلة المحافظ.. ووجد لديه استجابة فورية لكل طلباته.. مقر جديد.. نقود للصيانة.. انتداب لبعض الموظفين، بل أصدر قراراً ببناء مسرح بجمعية الشبان المسلمين، والتى كانت نادياً ملكيًا قبل الثورة، ونقل الجمعية إلى مبنى المعهد الدينى، على أن يتولى جهاز الإنشاء والتعمير بالمحافظة كافة الإصلاحات والتعديلات التى طلبها عز الدين نجيب، على نفقة المحافظة.

.. إن ما تحقق يعتبر فوق الخيال.

لم ينتظر عز الدين نجيب حتى يتم إعداد المقر ونقل العاملين، بل وشرع على الفور فى ممارسة النشاط الجديد، وكانت البداية إقامة الندوات والتى تعتمد على استضافة أحد النجوم الذين تربطهم به رابطة المعرفة، وذلك بلا مقابل عدا استمارة سفر مجانية للضيف للحضور على نفقة الدولة، وأما المبيت والطعام فقد كانت تتكفل بهما استراحة المحافظة.

ولقد كان لتلك الأمسيات تأثير السحر فى جمهور المدينة، فقد كانت تلبى بالضبط بعض احتياجاتهم من الثقافة، كانت هناك أمسيات موسيقية وغنائية وشعرية وسينمائية ومسرحية وتشكيلية، يشارك فيها نجوم فى الصحافة والفن، لم يكن جمهور المواطنين بكفر الشيخ يحلم بأن يراهم يأتون إليه، ويسهرون معه فى ألفة حميمية.

جاء إلى هناك صلاح جاهين، ومعه الناقد الفنى كمال الجويلى، لمشاهدة سهرة غنائية شاركت فيها فتيات ريفيات، جئن من مواقع العمل، وقدموا فقرة صادقة من أغنيات موروثة تفوح بعطر الأرض والعمل والخبز والحزن والحب.. وساد خشوع تام ثم انطلق الناس معهن فى غناء جماعى صادر من قرار القلب، يزيل طبقات الخجل والتردد والزيف، ويجعلهم أكثر إنسانية ودفئا... وجن صلاح جاهين بالتجربة وأصبح من نجوم أمسيات قصر الثقافة...

وخلال شهور قليلة تحول القصر إلى مركز جذب جماهيرى كبير، وحتى الليالى التى لم تكن فيها برامج للعرض، كان الناس رغم البرد القارس يأتون... تحت الأمطار يأتون... بالبدل والفساتين والأفرولات والجلابيب يأتون.. وتمضى الساعات وتشتعل القاعة بالدفء والنشوة والحدة والغضب أحيانا... وينتصف الليل... ولا يمضون.

سحب القصر جمهور « الاتحاد الاشتراكى » من الندوات التى كان يعقدها، لتأييد كل الخطوات التى تقوم بها الحكومة، وكمحاولة لاستعادة جماهير الاتحاد الاشتراكى إلى سياسة جديدة، وهى المشاركة فى برامج الندوات بالقصر، دون أن يدروا أن فى ذلك تأكيدا لفشل برامجهم فى التوعية، ولا ينكر عز الدين نجيب لجمال حماد - محافظ الإقليم - كبير الأثر فى تحقيق النجاحات التى تمت، كان نموذجا للمحافظ المثقف والمؤمن إيمانا عميقا بمستقبل بلده، كان حريصا على عدم التدخل فى سياسة القصر بأى شكل من الأشكال، رغم كثرة الشكاوى والدسائس التى كانت تصله من قبل الاتحاد الاشتراكى، ولعله كان يرى فى ذلك طريقا لحفظ التوازن بالإقليم.

كما كان يحرص على حضور بعض الأنشطة البارزة، خصوصا عند استقبال المشاهير من الضيوف الوافدين من القاهرة.

وكان قد وافق على مشروع إقامة المسرح، والتى قدرت تكاليفه وقتذاك بسبعين ألف جنيه، لم تتحمل وزارة الثقافة عند إبرام العقد الذى حضر توقيعه سعد كامل سوى عشرين ألف جنيه، وبدأ العمل على إنجازه على الفور. ولم ينتظر أعضاء الفرقة والذين تم انتدابهم للعمل بالقصر، الانتهاء من بناء المسرح، بل بدأوا تدريباتهم على تقديم مسرحيات قصيرة، ذات طابع نقدى لواقع الريف.

وفى الوقت نفسه تم تشكيل جماعات مختلفة فى كل الأنشطة، فى الفن والأدب والموسيقى، والفنون التشكيلية والسينما، كما تم تنظيم ندوة تحت مسمى الفيلم المختار، إذ كان يجتمع عشاق السينما الجديدة والطامحين إلى دراسة أساليبها وجمالياتها، لمناقشة فيلم جديد مرة كل أسبوع، مع نخبة من النقاد والمخرجين والأدباء الوافدين من القاهرة.

لقد ساهم فى دعم وتنمية هذه البرامج كل من الفنانين التشكيليين: عفيفى مطر، ومحمود بقشيش، اللذين لم يبخلا بالمشاركة الإيجابية لدعم وتنمية النشاطات المتعددة التى دخل فيها القصر. كما بدأت بشائر الدعم تصل إلى المحافظة، إذ كانت ترد آلاف الكتب الجديدة للمكتبة، وكذلك عشرات الآلات الموسيقية، والأسطوانات الشرقية والغربية، وأجهزة للإذاعة والتسجيل، وخامات للرسم، وحوامل للعرض وغير ذلك الكثير، وبذلك يكون «سعد» قد وفى لعز الدين نجيب بوعده بالدعم المادى والأدبى.

هذه الأنشطة كانت فى الأغلب تتم فى كفر الشيخ، أو المدن الكبرى من المحافظة، حتى جاء يوم ٧ مايو ١٩٦٧ وكان يوما تاريخيا لقصر ثقافة كفر الشيخ، إذ تحركت أول قافلة إلى قلب الريف إلى قرية – منشأة زغلول – والتى كانت معقلا من معاقل الإقطاع، كانت المرة الأولى للقرية التى تدخلها سيارة حكومية، لا لتأخذ كما هى العادة بل لتعطى وبلا مقابل، إذ تجمع ما يقرب من خمسة آلاف فلاح فى ساحة القرية، ليشاهدوا مسرحية «الناس اللى ممعهاش»، عارضة مشاكل الفلاحين، كان مؤلفها شاب من المنصورة هو فؤاد حجازى، كانت التمثيلية ساذجة ولكنها نجحت لأنها المرة الأولى، بعد ذلك اهتزوا طربا مع فرقة المنوعات الغنائية، ثم استغرقوا مستمتعين مع عرض الفيلم السينمائى – زينب – فى صمت وخشوع كأنهم فى صلاة جمعة.

كان النجاح الذى تحقق بقافلة قرية – منشأة زغلول– أكبر مشجع لأن تتوالى الزيارات إلى قري زعفران – برمبال – والبكاتوش – وسخا – ومنشأة على – وميرة – والخادمية – وغيرها وهى قرى تتوسط مجموعة من القرى والعزب والنجوع، يتوافد أهلها بالآلاف قبل وصول القافلة بوقت طويل، كان الظلام والصمت الأبديان يتبددان فى فيضان الضوء البهيج، وتدب فى خلاء الجرن حياة دافقة، ويتحول إلى ساحة عيد، يتمنى الفلاحون أن يسهروا فيه حتى الصباح.

لم يكن عز الدين نجيب يتوقع كل هذه النجاحات، لقد تذكر ما قاله «سعد»، بأن التوغل فى التخلف يعنى التعطش للثقافة، إنه لن ينسى أول ديسمبر ١٩٦٦ عند

حضوره لأول مرة للمركز الثقافى، هل معقول هو الآن فى أوائل شهر يونيو، أى بعد ستة أشهر فقط، يتحقق كل هذا، بعد أن كان هناك موظف وحيد أقرب إلى النوم منه إلى اليقظة، يتحول المركز إلى خلية نحل تضم كل هذا الكم الهائل من مواطنى كفر الشيخ.

إنها معجزة بكل المقاييس.

إنه يونيو ١٩٦٧ يا للهول، لقد حدثت النكسة ومرت أيام ٥،٦،٧،٨ يونيو، والكل فى ذهول غير مصدق لما حدث، وعما يسمع، ثم جاء يوم ٩ يونيو، حين أعلن عبد الناصر قراره بالتنحى...

لقد حدث يومها مالم يكن متوقعا، لقد تحول قصر الثقافة إلى مقصد لجماهير كفر الشيخ بتلقائية وبلا أية قيادة من أحد، إندفعوا إلى القصر بالمئات بل بالآلاف، يحتلون قاعاته وحجراته وممراته وحديقته، وتحولت الحجرات إلى أماكن إسعاف لعشرات المواطنين الذين أغمى عليهم من وقع الصدمة، أرسلوا إلى المحافظ يطالبونه بالحضور فورا، عرض عليهم أن ينتقلوا إلى مبنى المحافظة فرفضوا... إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى... فرفضوا... وإزاء هذا الإصرار جاء المحافظ جمال حماد إليهم، ووقف يخطب فى الآلاف المكدسة فى الحديقة ذات الخمسة أفدنة... مهدئا... وهم يصرخون ويبكون مطالبين بالسفر فورا إلى القاهرة وأن يدبر لهم سيارات تنقلهم، وكأنهم بذلك سيوقفون الكارثة!!

قبل أن يبزغ صباح اليوم التالى، انطلقت عشرات السيارات التابعة للمحافظة، وللمصالح الحكومية، وللأهالى، انطلقت من أمام القصر إلى القاهرة فى هدير جنونى، كل هذا وأجهزة الاتحاد الاشتراكى صامتة، تنتظر التعليمات! .

تمر الأيام والهزيمة تنخر فى النفوس، والكل يتخبط، خاصة وأن السياسة العامة بدأت تتغير، إذ بدأت مصالحة اليمين، وتصاعدت الاتهامات عبر الصحف، ومن داخل مجلس الأمة والاتحاد الاشتراكى، ضد وزارة الثقافة لأنها أصبحت تأوى الشيوعيين، وتروج للانحلال الخلقى وتطمس الدين... تزايدت الحملات العدائية، حتى بلغت حد تحميل اليسار مسئولية الهزيمة!!

بل وتوالت الضربات، حتى تراخت قبضة الدكتور ثروت عكاشة، ومن خلفه سعد كامل، عن التمسك باليساريين بالوزارة، وبالسياسة الحاسمة ضد القيم الرجعية التى كانت سائدة.

ويثور عز الدين نجيب ويكتب استقالته ويضعها فى جيبه.

وفى قرية سندبيس بمحافظة القليوبية، خلال مهرجان ثقافى وترفيهى، ساهمت قوافل الثقافة من عدة محافظات فى إحيائه، اصطحب عز الدين معه المنشد « عم حسين السخاوى » من قرية – سخا – وعازفون من مختلف قرى كفر الشيخ، ويشدو عم حسين حين اقترب «عز» من «سعد» وقال له:

إنى أشعر أننا نعبث، وتحولنا إلى متعهدى حفلات ترفيهية، توقف «سعد» عن السير ويداه معقودتان خلف ظهره، وقال له :– ليست هذه الحقيقة، فالقوى الرجعية يهمها أن يتوقف كل شئ وأن يعم الصمت، فلا شئ يزعجهم مثل تلك التجمعات، إن صوت عم حسين السخاوى وفريق الفلاحين الموسيقى، يسببان لهذه القوى أكبر إزعاج لهم، إن هؤلاء المجهولين من القرى المنسية.. البؤساء... المساطيل كما تسميهم، لقادرون على أن يغنوا وأن يرقصوا وأن يقدموا لنا فنا حقيقيا من إبداعهم، إنها شهادة حقيقية إنهم موجودون، وعلى أن الجوع والظلم والهزيمة لم يتمكنوا من القضاء عليهم أو تنال من أرواحهم، حتى لو كان كل ما نفعله هو أن نشجعهم على الاستمرار... وأن نغذى الجوانب الأصيلة فى فنونهم ونعمل على تطويرها، وأن نخلق فى كل قرية فرقة غنائية أو مسرحية، لكان هذا عملا مجيدا، لأنهم لن يكونوا مجرد مستهلكين سلبيين لثقافة وسياسة تأتى بها إليهم. حتى لو كانت ثورية، بل سيصبحون مشاركين لنا فى خلق الثقافة والسياسة التى يحتاجونها... وأضاف «سعد» « أعرف أنهم يحتاجون الخبز أولا ولكنهم بنفس الدرجة يحتاجون الحرية والفن، كوسيلة مهمة للحرية لأنه إطلاق للوجدان المكبوت... فالفن الحقيقى حرية».

وكما يحكى عز الدين نجيب .. عاد إلى كفر الشيخ صامتًا، دون حتى أن يخبر «سعد» بأنه يضع فى جيبه ورقة تحمل استقالته، ولكنه مزقها بعد أن قرر أن يعمل من أجل حرية هذا الوطن... والبداية حرية المواطن....

مرة أخرى حاول أن تكون البداية إعادة الحياة إلى العديد من المشروعات المؤجلة، وكان من أهمها جمع التراث الفلكلورى، وقد حقق نجاحا كبيرا فى جمع العديد من التسجيلات المدهشة، للعديد من المواويل والأغانى والألحان الشعبية من قرى سخا ومسير وبرج البرلس وغيرها من قرى محافظة كفر الشيخ، وكلها تعبر عن الأفراح والأحزان فى جوهرها، كما أنها تحوى دعوة لمقاومة الظلم والطغيان، تمثلت فى مواويل عن الصبر والشوق الهائل للحياة. لقد سمع هذه التسجيلات خبير رومانى، فأذهله هذا العمل الفلكلورى العظيم، وقام فى رومانيا بطبعه على اسطوانة ضمت كل هذه الروائع الشعبية، وأضافها إلى مجموعة التراث العالمى.

تم استبعاد محافظ الإقليم جمال حماد لأسباب غامضة، وظل مكانه شاغرا لفترة، كما تم إلغاء ندب أعضاء الفرقة التمثيلية، وجاء إبراهيم بغدادى كمحافظ لكفر الشيخ، وهو معروف عنه أنه كان ضد الفلاحين فى قرية كمشيش، وقت أن كان محافظا للمنوفية، ورغم ذلك قرر عز الدين نجيب استمرار أنشطة قصر الثقافة، للاستفادة من المواهب المتوافرة فى المحافظة، وقام بإصدار مجلة صغيرة تحمل اسم «طليعة كفر الشيخ»، ورغم تواضع الامكانيات إذ كان يتم طبعها على الاستنسل، وعدد صفحاتها لا يزيد على ٢٠ صفحة. وعدد نسخها لا يزيد على المائتين، فقد تخاطفتها الأيدى بلهفة وكان يتم تداول النسخة الواحدة بين العشرات، وتثير من ردود الأفعال ما فاق التصور... إذ احتوى عددها الأول إلى جانب المواد الأدبية والفنية، دراسات جادة عن واقع كفر الشيخ، كشفت النقاب عن أبعاد التخلف والاستغلال فيه، إلى جانب بعض الدراسات الفكرية والتحقيقات الصحفية عن بعض مرافق المحافظة...

استشاطت أجهزة المحافظة غيظًا وعلى رأسها المحافظ، فأصدر قرارًا بتشكيل لجنة عليا للإعلام والثقافة، مهمتها الإشراف والتخطيط لسياسة أجهزة الإعلام والتى يشملها القصر، معنى ذلك أنها لجنة تقوم بدور الوصى أو الرقيب... وكان من رأى عز الدين نجيب أن برامج القصر وخططه تأتى من الإدارة العامة بالقاهرة، وليس للمحافظ رسميا فرض الوصاية عليها، رغم أن المحافظ كان قد ألغى ندب بعض العاملين بالفرقة المسرحية، فقد قام القصر بإخراج مسرحية من أربع لوحات، مسرحية

تعبر عن وجهة نظر الشعب فى الصمود والنضال ضد العدوان وضد القوى الأجنبية، وكأنه ضد أشكال الاستغلال والفساد.

وكان لمشاركة الشاعر عبد الرحمن الأبنودى فى هذا العمل، أكبر الأثر فى نجاحه الكبير، ولم يكتف بالعرض داخل مدينة كفر الشيخ، بل امتد ليطوف باقى مدن المحافظة، وفى غمرة هذا النجاح الساحق، سقط طلعت خليفة، مات هكذا فجأة، وكان أحد أعمدة هذه الفرقة. بعد يوم مرهق من العمل، رغم ذلك فقد تحامل أعضاء الفرقة وبإحساس بمسئولية العمل الذى يؤدونه، إستمر كل أعضاء الفرقة فى العمل كل يؤدى دوره وكأن شيئا لم يكن وما أن ينتهى المشهد الذى يشارك فيه ويغادر خشبة المسرح ليندفع خارجا خلف الكواليس، لينفجر بكل كيانه فى بكاء مرير لزميلهم ورفيق كفاحهم، وأحد الذين ضحوا بصحتهم من أجل نشر رسالة القصر.

وتم تحديد يوم ١٣ ديسمبر ١٩٦٧ لإقامة حفل تأبين للفقيد، افتتحه صديقه الشاعر عبد الرحمن الأبنودى، قام برثائه فى قصيدة مشتعلة، قوبلت بحماس فائق من جمهور الحضور الذين زاد عددهم على ثلاثمائة شخص.

وبينما كان الأبنودى يلقى قصيدته والقاعة غارقة بالخشوع، دخل المحافظ إبراهيم بغدادى فى هدوء، واتخذ لنفسه مكانا بين الصفوف، وبعد لحظات دخلت سيدة شابة تتشح بالسواد، يدل مسلكها على أنها ليست من المدينة، ووجدت لها مكانا فى آخر الصفوف.

انتهى الأبنودى من قصيدته، وصعد عز الدين نجيب إلى المنصة ليقدم الشاعر التالى، ووجد أنه من اللائق أن يحيى الضيوف الذين جاءوا للحفل أثناء إلقاء القصيدة، وبدأ بتحية المحافظ.. وانتظر لحظات ولكن شخصا واحداً لم يصفق تحية له.. واستمر لتحية الضيفة الوافدة، وقد كانت «شاهندة مقلد» زوجة صلاح حسين، شهيد الإقطاع فى كمشيش، وإنها جاءت لتشارك فى تأبين طلعت خليفة، وراح الجميع يتلفتون بحثا عنها، وما أن تعرفوا عليها، حتى ضجت القاعة بالتصفيق الحاد لعدة دقائق، وذلك أن صلاح حسين كان رمزا للثورة ضد الإقطاع، وفى بلد مثل كفر الشيخ يوجد فيه

للإقطاع تاريخ ودعائم، يصبح لهذا الرمز معنى عميق، ولم يكفوا عن التصفيق إلا بعد أن قام البعض باصطحابها إلى المنصة، وبدأت تحيى الجمهور بكلمة قصيرة أشادت فيها بالفقيد وذكرت بلقائه بفلاحي كمشيش، وكفاحه من أجل قضية الاشتراكية فى بلده. بدأ إبراهيم بغدادى يقتنع أنها مؤامرة مدبرة لإحراجه، فقد كان محافظا للمنوفية من قبل، أثناء حادث اغتيال صلاح حسين، وكان موقفه متخاذلا واتهم أنه يؤيد الإقطاع، وتأكد داخل نفسه أنه أمام تنظيم شيوعى، خاصة بعد أن تم إلقاء قصيدة أخرى تمجد ناظم أبو غزالة الشهيد الفلسطينى، وأخرى عن نجوين فان تروش الشهيد الفيتنامى. بعد ذلك الحفل بدأت المواجهة بين المحافظ والقصر، خاصة فقد اعتبر المحافظ أن حضور شاهندة كان مقصودا، فأصدر أمرا بحل الفرقة المسرحية، وتعيين المستشار القانونى للمحافظة مديرا لها!! على أن يقتصر نشاطها على تقديم المسرحيات الدينية والتاريخية.

حاول الدكتور ثروت عكاشة أن يوازن بين الأمور، وأن يوقف حملة المحافظ على الوزارة فاستدعى عز الدين نجيب، وحضر اللقاء معه كل من الدكتور على النويجى، والدكتور فتحى خليل، والمعروفان بميولهما اليسارية.. وبعد استعراض لما حدث، أنهى الدكتور ثروت عكاشة الاجتماع موجها الكلام لعز الدين نجيب، وذلك فى لهجة حادة حميمية «أرجوك... أرجوك أن تصمد فى موقعك... أنت على رأس قلعة أمامية لوزارة الثقافة، فإذا سقطت فسوف تسقط بعدها القلاع واحدة تلو الأخرى، إنك متألم لأن إبراهيم بغدادى يحاربك..... فماذا تقول فى أنه قدم ضدى تقريرا إلى الرئيس، وأنا وزير فى المرة الأولى.... إستمر... وتأكد إننى لن أتخلى عنك......».

وخرج عز الدين نجيب من الاجتماع وهو يسأل نفسه، الحكومة مع من؟... وضد من ؟

عاد من القاهرة ولا يعرف ماذا يفعل فى ظل هذا المناخ الجديد... مناخ الهزيمة يخيم على طريق الأحرار... التنظيم السياسى يثبت كل يوم عجزه وانعزاله... مراكز القوى تتزايد وتحكم قبضتها، وتمارس أشد أنواع القهر والاستغلال.. التجويع

والكبت هما المضمون الحقيقى للشعار الرسمى « لا صوت يعلو على صوت المعركة»، محاكمات المسئولين العسكريين عن الهزيمة، تؤكد التفريط الإجرامى فى حق الوطن... نتائج المحاكمات الهزيلة، تثبت عجز النظام، وتشكل استفزازا جنونيا للجماهير.

مرة أخرى خرجت قافلة للثقافة قاصدة تجمع الفلاحين، لتستكشف آرائهم وليتكلم الفلاح، وقد حدثت المعجزة وأمسك أحد الفلاحين بقبضته الخشنة على الميكروفون... وانطلق بصوت مشروخ لعله من العذاب، يخاطب أهل القرية باللغة التى يفهمونها، مقلبًا بطن التربة القاحلة كالمحراث المسنون ليظهر ما بداخلها من عفن.. لم يكن حديثه موجها للفلاحين المبهورين.. ولا إلى مشرف القافلة.... بل كان موجها للميكروفون ذاته يخاطبه وعينه منغرزة فيه، وكأنه يخاطب إنسانًا وسبابة يده الأخرى تشير إليه بغضب، وكأنما يرسل إلى العالم كله من خلال الجهاز شكواه !!

وأخيرا اكتشفت قافلة الثقافة، عن اختراع خطير اسمه «الميكروفون» ! واكتشاف آخر اسمه المؤتمرات، وكان مجرد الإعلان عن موعد لعقد مؤتمر، بمثابة حصر وتصنيف وحل لكل مشاكل القرية.

لقد أطلقوا على قافلة الثقافة اسم « قافلة النور»، تيمنا بإزالة الظلام، وكان رد الفعل أن قامت القيامة على كل الجهات ولم تقعد.

لقد شعر كبار الملاك، بأن هناك وافدا جديدا يهدد كيانهم، ويبدد السكون التام الذى يعيشه الفلاح منذ عشرات السنين.

كان لانغماس القصر فى العمل السياسى، والانحراف عن العمل الثقافى، خروج على النص، ولكن الظروف السياسية التى تمر بها البلاد، كانت تحتم على كل مواطن أن يفكر بعمق، فى الأسباب التى أدت إلى هزيمة ٦٧، والتى تبلورت فى ضرورة بل حتمية التغيير، بعد أن ثبت من الحراك الاجتماعى ومن مواصلة الحوار والنقاش، أن التغيير الجذرى أصبح مطلبا جماهيريا. مما دفع جمال عبد الناصر إلى أن يتقدم ببيان ٣٠ مارس، والذى كشف فيه عن وجود التصدعات فى الواقع الاجتماعى والسياسى، وطالب البيان الجماهير بضرورة التغيير وقدم لذلك برنامجا شاملا لكل شىء.

وجاءت التعليمات من القاهرة إلى القصر، برامج الندوات طوال شهر أبريل هو النزول إلى الجماهير، وعرض برنامج ٣٠ مارس للمناقشة، أى أن الإدارة تؤيد خطوات القصر بالنزول للجماهير. وهكذا تنفس القائمون على القصر والقافلة الصعداء، واعتبروا هذا الأمر بمثابة الضوء الأخضر للالتحام بالجماهير.

راحت القافلة تتنقل كل ليلة إلى قرية جديدة... وأصبح التركيز كله على إقناع الفلاحين، بأن خلاصهم هو إسقاط لجان الاتحاد الاشتراكى الفاشلة، وانتخاب ممثلين حقيقيين يعبرون عن مصالحهم.

وبدأت حرب مسعورة ضد القصر، يقودها ويغذيها كبار الملاك وعناصر الاتحاد الاشتراكى المنحل، إلى جانب عصبة من الموظفين وعبدة البيروقراطية... وتنوعت أساليب الحرب ما بين الاتهام بأن القصر يعمل على نشر الكفر والإلحاد، وأنه أصبح وكراً من أوكار الشيوعية، وبين افتعال خلافات في الاجتماعات تنتهى بمشاجرة، تستخدم فيها كل الأسلحة بدءاً من الكراسى والعصى، وانتهاء بالأسلحة البيضاء، بل انتهى الحال بعمل أكمنة لمداهمة القافلة وقذفها بالزلط والطوب أثناء سيرها.

لقد تجاوبت الجماهير مع طرح البيان للمناقشة، فلم تقتصر الندوات والتجمعات على برنامج القافلة والتجمعات المستمرة فى قصر المحافظة، حيث كانت الندوات والمناقشات بصفة دائمة، حسب برنامج سابق أو بدون تخطيط، بل امتدت هذه المؤتمرات لتصل إلى مواقع أخرى بالمحافظة، خاصة فى مدينة دسوق، حيث اعتلى الخطباء والشعراء مقاعد المقاهى وتصدروا المناقشات، وامتلكوا النفوس والقلوب كل ليلة حتى مطلع الفجر.

وكان الشاعران الأبنودى، وعبد الصبور منير، من النجوم الساطعة... بينما تحول الدكتور على النويجى إلى أسطورة، وأصبح أباً روحيا لكل الفقراء والمثقفين.

ولا ننسى فى ذلك المقام ذكر الفنانة الممثلة محسنة توفيق، التى كانت تترك مسرحها وتألقها فى القاهرة، لتشارك أهالى كفر الشيخ مناقشاتهم وأمانيهم وأحلامهم... لقد نجح نزول البيان للقواعد الشعبية فى إشعال حماس الجماهير،

وإحساسهم بأن زمام المبادرة قد عاد لهم، بعد إحساسهم العميق بوطئة النكسة وثقلها على نفوسهم.

لم يكد شهر أبريل ١٩٦٨ ينتصف، والمد الثورى يتصاعد عند الجماهير، لأنه ولابد أن يكون لهذا الفعل رد فعل، لإيقاف ذلك المد الثورى الذى أقلق وأثار الكثيرين من ذوى السطوة والنفوذ. وقد تحقق رد الفعل ذلك جليا فى قرية مطوبس، فما أن وصلت قافلة الثقافة إلى القرية، وجدت من يتصدى لها بدءا من رئيس النقطة، ثم بالنصح والإرشاد من رجال الاتحاد الاشتراكى المنحل، والجمعية التعاونية، وبعض ملاك الأراضى والمزارعين، إذ اتفق جميعهم على نصح المسئولين عن القافلة، بأن عقد الندوة يضر بالأمن العام، مما قد يستدعى من الإدارة استخدام القوة ضد القافلة.

مندوبو القصر يؤكدون أنهم ينفذون تعليمات الرئيس جمال عبد الناصر، ووزير الثقافة.

المناقشات احتدمت، واستمرت إلى أن وصلت عربة لورى محملة بجنود الشرطة، يرتدون الخوذات ويحملون العصى، ثم جاءت بعدها عربة جيب، نزل منها ضابط برتبة عالية... واتجه إلى عز الدين نجيب يسأله: إن هناك بلاغا وصله بأن هناك مشكلة... ما الموضوع ؟

لم يقتنع الضابط برد رئيس القافلة وطلب منه الرحيل.

فرد عليه عز الدين نجيب قائلا :-

أن أبقى أو أرحل ليس هو قرارى، بل هو قرار هؤلاء الناس.

فرد عليه الضابط بقوله« دول شوية بهايم !»، وتحول بعنف إلى أحد الضابطين خلفه وأمره بتفريق الفلاحين... وفى لحظات كان الجنود يقفزون من اللورى بعصيهم، ويطيحون بها وسط الفلاحين فى ضربات عشوائية، وهم يسبونهم بأقذر الشتائم.

وقفز عز الدين نجيب داخل عربة القافلة، وأمسك بالميكروفون وقال بأسلوب هيستيرى :- « يا فلاحين ياجعانين... ياعرايا... عبد الناصر يعطيكم السلطة فى أيديكم مش قادرين تاخدوها... دى فرصة حياتكم... يا تأخذوها وتبقوا بنى آدمين... لإمتى حتفضلوا ساكتين ؟؟

بدأت هتافات الفلاحين تتعالى رغم هراوات الجنود... «يسقط الظلم ناصر... ناصر... نريد العدل... ...» مدوية كالزئير فى سماء الساحة التى عمها الظلام، بعد رفع كشافات القافلة استعدادا للرحيل، وحين بدأ التحرك بالسيارة اندفعت كتل منهم تسد الطريق أمامها، وهى تهتف « نريد العدل.... نريد العدل... ».

تعتبر معركة مطوبس أو مواجهة مطوبس، هى بداية النهاية لنشاط القصر وامتداده من عاصمة الإقليم إلى القرى والعزب، أى الوصول إلى الفلاحين الكادحين، مما جعل الكثيرين يعتبرون أن القصر قد تعدى الخطوط الحمراء، ولا بد من مواجهته لإيقاف هذا المد الخطير.. وفعلا أحال المحافظ عز الدين نجيب إلى التحقيق، واشتكى إلى شعراوى جمعة وزير الداخلية وأمين التنظيم السياسى والتنظيم الطليعى، وقد حاول أن يوقف اندافع عز الدين نجيب، وجعله يتعاون مع إبراهيم بغدادى، وتمت عدة لقاءات مع شعراوى جمعة، بحضور سعد كامل وأحمد حمروش، وفى مرة ثانية حضر اللقاء الدكتور النويجى، والدكتور جلال رجب المحامى بكفر الشيخ، وانتهت هذه اللقاءات بأن تحول عز الدين نجيب إلى موظف حكومى، يحضر إلى القصر فى ميعاد الحضور، وينصرف فى نهاية النهار... وبدأ المحافظ يسحب كل المنتدبين.. وحاصر القصر بالعديد من المراقبين والبصاصين، مما جعل الكثيرين يشعرون بأن القصر أصبح مراقبا، وأن أى نشاط فيه من أى نوع هو خروج على القانون، وتحقق ما أرادوه، فقد أخذت الأعداد تتناقص.

وفى صباح أحد الأيام وصل عز الدين نجيب إلى القصر، فوجد عربات المقاولين تحيط بالقصر، ومعاول الهدم تنقض على سور القصر التاريخى الذى يحيط به وبحديقته الشاسعة.. ويوما بعد يوم أخذ الهدم والتعديل يتقدمان إلى داخل القصر، كأنما يعدون لمهمة أخرى.. وعز الدين نجيب مدير القصر لا يعلم ماذا يتم؟؟

وهكذا وجد عز الدين نجيب نفسه ، مجبرا أخاك لا بطل، يضطر لأن يترك القصر ويتجه إلى القاهرة ليسأل وماذا بعد؟؟

* * *

[٢٨]
مد يمينى وجذور يسارية

لقد وجد عز الدين نجيب بعد أن وصل إلى القاهرة والتقى مع زملاءه أن ما حدث فى كفر الشيخ كان صورة متكررة لما حدث فى بقية المحافظات عامة، بل وبصوره أوضح فى القاهرة إذ تم شن هجومًا قاسيًا على الدكتور ثروت عكاشة، وصلت إلى اجتماعات مجلس الوزراء وهجوم بعض الوزراء القاسى على سياسة وزارة الثقافة بلغت حد أن صرح أحد الوزراء بأن إقامة مشروع للصرف الصحى أفيد للشعب من إقامة دار للأوبرا!!

بدأ بعد ذلك التخلص من كل العناصر اليسارية، وبسهولة ويسر استقال البعض كما تم نقل بعضهم إلى خارج الوزارة. وبقى «سعد» الذى رفض كل الخيارات المطروحة وفضل أن ينتظر قرارًا بفصله أو نقل دون أن يطلب شيئا وذلك ليثبت تاريخيا أن التجربة التى تمت خلال فترة زمنية قياسية لا تتجاوز العام لم يشارك هو شخصيا فى هدمها خاصة وأنها أثبتت أن فى الأمكان أن تلعب دورًا هامًا فى إطلاق القوى الخلاقه الكامنة فى نفوس المواطنين، ولشرح السياسة الجديدة فى حقل الثقافة الجماهيرية تم عقد اجتماع عام لكل العاملين بالثقافة الجماهيرية فى كل المحافظات فى مسرح الجمهورية الذى امتلأ عن آخره وذلك لمناقشة الوضع الجديد بالوزارة ولمهاجمة السياسة السابقة وكان المتحدثون من الموظفين القدامى الذى تم إبعادهم عند تولى «سعد» لافساح المجال للقيادات الشابة.. وحين طالب الشبان خلال الاجتماع الكلمة منعوا لأنها لا تتمشى مع الاتجاه العام للاجتماع فقد طلب الدكتور ثروت عكاشة منهم الحضور إلى مكتبه عند المساء فى لقاء خاص لتبادل الآراء وبحرية أكثر.

وقد سجل عز الدين نجيب فى كتابه «الصامتون» كل ما دار فى الاجتماع بالتفصيل والذى يوضح حقيقة الأوضاع فى تلك الفترة التاريخية الفاصلة.

يقول: «جلسنا - مجموعة المديرين الشبان - فى الموعد المحدد فى حجرة ملاصقة لمكتب الوزير، واكتشفنا أن بالحجرة المجاورة لنا تماما مجموعة أخرى من المديرين الكهول المبعدين ينتظرون هم أيضًا موعدهم مع الوزير، لقينا الدكتور ثورت عكاشة بشكل ودى وهو يتعرف على كل منا، ثم بدأ يتكلم مرة أخرى عن انحرافات سعد كامل والتى كانت تتلخص فى أنه يسئ معاملته ويتعالى عليه.

ويستطرد عز الدين نجيب فى تسجيله:

«أخذت الكلمة وشرحت تصورى العام للسياسة الثقافية التى يجب أن تنتهجها الثقافة الجماهيرية، والتى كانت تتحقق إلى حد كبير فى ظل سعد كامل لولا العديد من العقبات وأن مهمتنا هى تدعيم هذه السياسة لاهدمها، بغض النظر عن المواقف الشخصية.

استخدم الوزير كل إراداته ليكبت غيظه وعلق على كلامى باقتضاب أن لى وضعا خاصا سوف يناقشه معى على انفراد فى موعد محدد باليوم التالى واستمر قائلاً: إنه يعتز بنا نحن الشباب ويعتبرنا أحد ايجابيات وزارته.

وذكرنى هذا بكلام شبيه وجهه إلى الوزير فى نفس هذا المكان منذ بضعة شهور.

وبينما كنت ابتسم فى داخلى لهذا الخاطر، غمزنى ألفريد فرج الكاتب المسرحى المعروف، وقد حضر باعتباره المشرف على الثقافة الجماهيرية نائبًا لسعد كامل، وكان يجلس على يسارى - لينبهنى بألا أعاود الهجوم بعد تلك المبادرة الطيبة من الوزير... لكن يبدو أن السيدة رعايه النمر مديرة قصر الجيزة التى كانت تجلس على يمينى - بالغت فى تقديرها لحسن نوايا الوزير، فقالت فى عتاب رقيق مؤدب للغاية بعد تحيتها لكلام الوزير أنها تندهش من أنه فى الوقت الذى يصرح فيه الوزير بتمسكه بنا، يجلس الآن فى حجرة مجاورة المديرين القدامى على موعد مع سيادته .

وهنا انفجر الوزير غاضبا.. وكأنما فاض كيله أو أراد أن يحطم عقدة الذنب فى موقف الضعف أمامنا... وقال بصوت مجلجل:

- أنا لست شيوعيا يا سادة.. ولست ماركسيا، قد أسمح بوجود بعض الماركسيين فى وزارتى، ولكن لن أسمح بالشيوعيين.

قالها وهو يدق زجاج المنضدة بقبضته حتى كاد ينكسر، وخصلات شعره تتناثر على جبينه ووجهه يتفجر باللون الأحمر وواصل قائلاً: سوف أدق رأس الأفعى (يقصد سعد كامل) ولولا أنك يا رعاية مثل ابنتى لتصرفت معك بشكل آخر...

وبينما عقد الذهول لسان رعاية وألسنتنا جميعًا، راح كل من عبدالمنعم الصاوى، وحسن عبدالمنعم وكيلا وزارة الثقافة، يتسابقان فى استخدام براعتهما المكتسبة عبر سنين فى العمل كمرؤسين فى الوزارة، لامتصاص غضب الوزير والاعتذار نيابة عن رعاية النمر..».

«ولم تمض أيام حتى كان سعد قد أبعد إلى وظيفة بدار الكتب، وبعد ذلك بأسابيع تم فصله من الوزارة نهائيا بحجة الانقطاع عن الحضور وعين بدلاً منه الدكتور عبدالحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى وتم التخلص من المديرين الشبان فى كل قصور الثقافة باستثنائى... وعاد المديرون الكهول إلى قصورهم ومواقعهم؟؟».

إلى هنا تنتهى شهادة عز الدين نجيب، ورغم عدم موافقتنا على بعض تعليقاته والتى جاءت بشهادته، هذا وقد تم عرض هذا النص على كل من الكاتب ألفريد فرج ورعاية النمر والمحاسب محمد مصطفى مراد فأجمعوا على أنها صورة واقعية لأحداث تلك الجلسة...

* * *

تعتبر تجربة نشر الثقافة الجماهيرية تجربة إنسانية، ثقافية، سياسية، من الواجب أن نحتفظ بها فى ذاكراتنا الوطنية.

لقد تحققت نتائج باهرة خلال فترة زمنية قصيرة أسبابها تعود إلى حد كبير إلى العمل السياسى والذى كان قاصراً على تنظيم سياسى أوحد هو الاتحاد الاشتراكى والذى كان يضم قبل النكسة كافة الاتجاهات السياسية بما فيه اليسار الذى حل تنظيماته، وبدأ فى المشاركة إيجابيا سواء فى العمل السياسى أو التنفيذى ثم بعد النكسة وقع التنظيم فى قبضة اليمين وبذلك حرمت القاعدة العريضة من حرية التعبير داخل التنظيم مما دفع العمل الثقافى أن يكون بديلاً للعمل السياسى، إن نجاح هذه التجربة يعود إلى:

* الدكتور ثروت عكاشة، ورهان جمال عبدالناصر عليه ودعمه بالإمكانيات المادية والأدبية.

* توظيف «سعد» لكل خبراته وعلاقاته السياسية الطويلة.

* وقوف المثقفين بأفكارهم وجهودهم إيماناً منهم بأهمية وخطورة التجربة فى ما تحدثه فى وجدان الشعب.

وإذا بدأنا بالعامل الأول وهو الدكتور ثروت عكاشة نجد أن نشأته الأولى لعبت دورا رئيسيا فى تكوين الفارس المستنير فقد نشأ فى أسرة ميسورة الحال فوالده وجده أيضاً كانا من رجال السلك العسكرى مما جعل أحلامه فى الصبا تدور حول الأمجاد العسكرية، رغم أن والده كان يأمل أن يكون ابنه رجل قانون ودفعه دفعا لدخول كلية الحقوق، ولكن أحلامه جعلته يتقدم إلى الكلية الحربية دون علم والده ليصبح رجل سيف فى حين أن تكوينه الأساسى يقول: إنه رجل قلم، فهو محب للقراءة منذ الصبا مما دفعه أن يترك «الشارع» ويحب العزلة والانفراد بالنفس، فالكتاب هو خير أصدقائه. وإن كان قد مارس السباحة والغطس ولكنه عشق رياضة ركوب الخيل فأصبح بذلك الفتى عاشق الكتاب بأحلامه الوردية والفارس الهمام بشجاعته ورومانسيته...

إلتحق بالكلية الحربية يحدوه الأمل أن ينقذ الوطن من كل مشاكله عن طريق الفروسية، كما أنه فى داخله كان يهوى ويعشق أن يكون عازفا للبيانو أو شاعراً يتمثل نفسه فى جبران خليل جبران وعشقه لإنتاجه الرومانسى، والذى ترجمه إلى العربية

فى كتابه «النبى» ونجح فى نقل أحاسيس وأفكار شاعر ورمانسى كبير كجبران خليل جبران إلى حد أن الإقبال الجماهيرى على شرائه دفع الناشر إلى إعادة طبعه ٩ مرات وهى من الأمور نادرة الحدوث فى عالم النشر والتأليف.

تعرض فى شبابه ككل فتيان عصره لكافة الأفكار السياسية التى كانت فى الساحة فلم تستجب طبيعته مع الإخوان المسلمين، وكذلك مع أفكار مصر الفتاة وبأفكارهم الفاشية ولكنه وجد نفسه قريبا ومتعاطفا مع اليسار والقاعدة الجماهيرية، وكذلك مع حزب الوفد بسبب قربه من أحمد أبو الفتح ولصلة القرابة التى تربطهما.

وكان الوفد يضم كل ألوان الطيف السياسى إلى جانب اليسار الوفدى الذى كان يتدرج ما بين رومانسية عزيز فهمى ليصل إلى أقصى اليسار متمثلا فى الطليعة الوفدية وتأسيسها لجنة «اتحاد الطلبة مع العمال».

فأصبح تكوينه السياسى يساريا فقط ولكن ليس شيوعيا فلم يتم تجنيده فى تنظيم شيوعى كخالد محيى الدين ويوسف صديق، وأحمد حمروش.

وعند صدور مجلة التحرير بعد قيام الثورة بفترة وجيزة برياسة تحرير أحمد حمروش، وضح فيها الاتجاه الشيوعى.

ويشير إلى ذلك ثروت عكاشة فى مذكراته قائلاً: «إذ المجلة تبدو فى نظر قيادة الثورة حمراء الصبغة وتصدر على غير الصورة التى كانت تنشدها الأمر الذى جعل جمال عبدالناصر يطلب لقائى بعد صدور ثلاثة أعداد فلقيته وكان خالد محيى الدين حاضرا وإذا هو يعرض على رئاسة تحرير المجلة متوسمًا فى القدرة على أداء هذه المهمة بحكم تجربتى فى مجال الصحافة منذ عام ١٩٤٥ وحصولى على دبلوم الصحافة من كلية الآداب عام ١٩٥١».

واستمر إصدار المجلة بإحلال يسارى النزعة بدلاً من من هم شيوعيون، وبذلك نجح ثروت فى التعامل مع جهاز التحرير الذى كانت أغلبيته تضم شيوعين منظمين.

لقد جاء فى مذكرات ثروت عكاشة أن ثلاث شخصيات عامة وصفته كما يلى:

– صحفى مرموق يقول عنه «به عصبية فائرة منطوى على نفسه متقوقع لا يخرج إلى الناس إلا حين يكون مدفوعا إلى ذلك دفعا... فى كثير من الأحيان يصدر أحكاما بالغة الحدة دون قصد منه فى أن يعادى أحد، ويتصور الناس فريقين أبيض.. وأسود أى مع منهجه أو ضده».

– أستاذ جامعى يقول فى وصف شخصيته:– «قليل التحفظ مع الناس، يمنحم ثقته دون أن يتبين حقيقة دخيلة أنفسهم مما يجعله بعد ذلك يسقطهم من حساباته دون رجعة فهكذا يبدو ذا طبع متقلب وعنيف».

– وصديق لثروت عكاشة يصفه بالتالى: «إنه الحماس الزائد مع رهافة المزاج وتوصف هذه الشخصية فى علم النفس بأنها شخصية اجتنابية بمعنى أنها تتحاشى أن يجرح الغير مشاعرها الشديدة الحساسية مما يؤدى إلى احتكاك هو فى غنى عنه، لا يتعامل إلا مع من شابهه نزعه ومزاج وعفوية مع نفوره من معادلات الربح والخسارة».

لقد كان للصفات الإيجابية فى ثروت من شهامة ورومانسية والإخلاص من أهم الأسباب التى وطدت الصداقة بينه وبين جمال عبدالناصر... إذ تم التعارف بينهما فى كلية أركان الحرب عام ١٩٤٥، حيث التحق بها ثروت وكان يدرس بها وقتذاك جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وذكريا محيى الدين وصلاح سالم، وتوثقت بينهم عرى الصداقة خاصة وأن الدراسة فى تلك الكلية كان تتناول الاستراتيجية السياسية سواء داخليًا أو دوليًا فكانت فرصة نادرة لتبادل الآراء فى مختلف الأمور وبصفة خاصة الأحوال السياسية المضطربة التى كانت تمر بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعنف هو محور الحديث الشائع بينهم، وكان يجمعهم الشعور بأن قيادة الجيش ليست بالقدر الكافى التى تجعل سمعته حسنة بل كان ينظر إليه على أنه العصا الغليظة فى يد الملك.

وازدادت روابط الثقة والتقارب بينهما بانضمامهما إلى جماعة الإخوان المسلمين، حيث تم الاتفاق مع الجماعة أن يكون تشكيل الضباط ذو كيان مستقل وتكونت منهم

خلايا تتولى شئونها لجنة مختارة منهم تضم جمال عبدالناصر، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وخالد محيى الدين، وكمال الدين حسين، وصلاح خليفة، وعبدالحكيم عامر، وحسن إبراهيم، واستمر انتماؤهم للإخوان حتى حرب فلسطين ثم أصبح انشغالهم بالجبهة وتواجدهم هناك حائلا: دون مواظبة الاتصال بالجماعة.

وفى غضون عام ١٩٤٩ طلب جمال عبدالناصر من ثروت أن يعرفه بأحمد أبو الفتح – رئيس تحرير جريدة المصرى وهو زوج شقيقه ثروت -- فصحبه ثروت إلى صحيفة المصرى، حيث كان اللقاء.. وأصبح بعد ذلك أحمد أبو الفتح واحداً من المتعاطفين مع تنظيم الضباط الأحرار خاصة وأن جمال عبدالناصر كان يوثق هذه الصلة باستمرار زيارته إلى الجريدة.

وبعد حريق القاهرة ومنع التجول وانتشار الجيش فى أنحاء العاصمة حول مرافقها الحيوية، وبدأ عبدالناصر يفكر خلال شهر فبراير فى استيلاء الجيش على القاهرة.. رفض ثروت عكاشة هذه الفكرة خاصة وأن قوات الاحتلال البريطانى كانت مستنفرة وفى إمكانها إجهاض المحاولة وتحطيم كل آمال الضباط الأحرار... وهنا طلب عبدالناصر أن يحتكما لأحمد أبو الفتح وتمت زيارته فى المنزل وعرض جمال عبدالناصر على أحمد أبو الفتح أن يتحرك الجيش ليستولى على القاهرة واغتيال الخونة فى نفس الوقت... فكان رد أبو الفتح لا معنى لاستيلاء الجيش على القاهرة الآن فالجو متوتر ومشحون والأعصاب متقدة ومن الممكن أن يكون فى ذلك فرصة لتدخل الانجليز فى الأمر... أما الاغتيال فقد رفضه أبو الفتح رفضاً تاماً .

وازدادت الثقة بينهما قبل قيام الثورة ويمكن الإقرار بأن ثروت عكاشة وأحمد أبو الفتح هما وراء تحديد يوم ٢٣ يوليو فقد اتصل أحمد أبو الفتح تليفونيا بثروت عكاشه يوم ٢٠ يوليو وأخبره أنه فى النيه تشريد وسجن أربعة عشر ضابطاً ونصح أحمد أبو الفتح ثروت بالرموز بأنه لابد من تحرك سريع واللحاق بالضباط الأحرار ما لا يتوقعون... وما أن انتهت المكالمة حتى نزل بسرعة ومعه حسين الشافعى الذى كان فى زيارته قاصدين منزل جمال عبدالناصر، وكان يعج بالضباط، كما هى العادة

فانتحيا به جانبا وأخبره برسالة أحمد أبو الفتح.... وسأل عبدالناصر ثروت عن رأيه فى الرسالة.. فأخبره ثروت بأنه ينصح بأن يكون باكر (٢١ يوليو)، هو موعد بدء تنفيذ الخطة بدلاً من الموعد الذى كان قد حدده عبدالناصر وهو ٥ أغسطس - وأيد حسين الشافعى ثروت وطمأنا عبدالناصر بأن وحدة الفرسان المهيأة للقيام بالانقلاب قوامها ٣٢ ضابطًا و٤٨ دبابة ٤٨ سيارة مدرعة فضلا عن الكتيبة الميكانيكية وأن هذه الوحدة من الفرسان بما تضم من كفاءات كفيلة بإنجاح الحركة دون حاجة لانتظار وحدات المشاة القادمة من سيناء.

وفى اليوم التالى مر عبدالناصر على ثروت فى مكتبه برياسة هيئة أركان حرب الجيش وأخبره أنه اقتنع برسالته وأن البداية ستكون بعد ٤٨ ساعة أى مساء ٢٢ يوليو الموافق ليلة ٢٣ يوليو... وبناء على هذه الرسالة اجتمع التشكيل الرباعى المقرر قيادة العملية، وتم توزيع الاختصاصات كالتالى: حسين الشافعى أقدم الأربعة الرياسة.. ثروت عكاشة أركان حرب العملية، خالد محيى الدين قيادة الكتيبة الميكانيكية، عثمان فوزى قيادة الآى الخيالة... وجاءت ساعة الصفر وسارت الخطة حسب الإعداد المسبق لها وكان من مسئوليات ثروت الاطمئنان على صرف الذخيرة لكل وحدة عسكرية ولكل مدفع بل ولكل مسدس.... واستغرق ثروت فى العمل وعلى كتفه مدفعه الرشاش الذى كان يمده بالثقة والأمان... وما أن مضت الساعات الأول وشعر بالاطمئنان بأن الخطة قد نجحت التفت لمدفعه.. وضحك ثروت ضحكة عميقة فقد نجح فى تزويد كل المدافع والمسدسات ونسى فقط مدفعه الذى كان يحمله فهو فارغ من الذخيرة ويقول ثروت «إن الواجب العام كثيرا ما ينسى الواجبات الخاصة...».

وبعد اجتياز مرحلة الخطر وإعلان نجاح الثورة... وبدأت صفحة جديدة يمكن تسميتها مرحلة توزيع الهدايا والمكافآت.. فقد عرض عبدالناصر على ثروت أن ينضم لعضوية مجلس قيادة الثورة على أساس أن يكون لكل سلاح من أسلحة الجيش ممثلا بداخله... فقد كان كل من ذكريا محيى الدين ويوسف صديق ممثلين لسلاح المشاة وعبدالمنعم أمين، ممثلا لسلاح المدفعية، وبالنسبة للفرسان تم ضم خالد محيى الدين ومطلوب ممثل ثانى وقد وقع الاختيار على ثروت... فاعتذر ثروت عن قبول هذا المنصب

لأنه شارك فى هذا المهمة بحافز من ضميره دون نظر لجزاء إلى جانب أن عليه مهمة المشاركة فى تأمين الثورة وهى مازالت فى خطر خاصة وان الجيش البريطانى على بعد ساعات من القاهرة... ويضيف ثروت قائلاً: لعبدالناصر إنه مادام هناك من هو أقدم منه رتبة فى سلاح الفرسان ممن شاركو فى الحركة مشاركة جادة فعالة وهو حسين الشافعى فهو يرى إنه أولى بالمنصب.

لقد شعر عبدالناصر إنه أمام رجل عملاق وشهم وكله إخلاص للوطن وبالتالى فمن هذا اليوم اعتبره عبدالناصر إنسانا أمينا، يمكن أن يدخره للمهام الصعبة والمحتاجة لإنسان يتصف بأخلاق كالتى يتصف بها ثروت عكاشة.

إن فلسفة ثروت فى الحياة هى الإيمان بالعطاء أكثر من المكاسب ويفضل دائما المهام البعيدة عن الصراعات. فمثلا عندما أوكل له رياسة تحرير مجلة التحرير تصدى صلاح سالم وزير الإرشاد القومى وقتذاك الذى تهجم على ثروت وأمر بسحب مقاله الذى كتبه بمناسبة مرور عام على الثورة ومنع صلاح سالم نشرها لأن المقال لم يرد فيه اسم صلاح سالم وجهوده فى قيام الثورة!!

بل عقد صلاح سالم يوم صدور المجلة ٢٣ يوليوة ١٩٥٣ - مؤتمراً صحفيًا، ووصف فيه مجلة التحرير بأنها لم تعد تعبر عن رأى القوات المسلحة ولا عن رأى مجلس قيادة الثورة - كما أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بأن تصدر المجلة عن دار التحرير وتخضع للرقابة.

إن هذا الحادث يبين أخلاق ثروت الرومانسية فإذا ما وجد من يقف ضده أو يهاجمه يترك له الساحة مادام الأمر دخل فى صراعات شخصية أو أهداف ليست سامية. عكس ما كان يتم فعلا بعد مرور أشهر على الثورة إذ بدأ الكثيرون فى البحث عن المكاسب والمغانم. لقد كتب يصف حال الثورة وما وصلت إليه عام ١٩٥٦ فى مذاكراته، حيث قال:- «أما الظاهرة التى جزعت لها كل الجزع فهى تحول الدولة إلى ما يشبه الإقطاعيات التى يقف على رأس كل منها عدد من رجال القوات المسلحة سواء فى أجهزة المخابرات أو الأمن أو رياسة الجمهورية والتنظيم السياسى إلى غير ذلك...

ومن الإنصاف ان أذكر هنا أن هؤلاء لم يكونوا من الضباط الذين شاركوا فى قيام الثورة بل كانوا من ضباط الجيش الذين توسمت القيادة فيهم الكفاية، منهم من قام بواجبه على خير وجه ومنهم من ضيع على الثورة أهدافها واقتنصوا ما يمكنهم اقتناصه من مكاسب فسلبوها شرفها».

كان المكان المناسب لثروت والذى فى الإمكان أن يستمر فيه ويعطى لبلده كل إبداعاته هو العمل فى الخارج كملحق عسكرى أو كسفير لمصر فى إيطاليا، فذلك يتلائم مع رومانسيته وأن يحيا بين ضفاف الفنون والآداب العالمية بعيدا عن الصراعات والحزازات الشخصية، وكانت الصلة الوثيقة التى تربطه بمصر هو عبدالناصر فقد كان الاثنان يتبادلان الثقة المطلقة.

وفى نفس الوقت كان ثروت يأمل بل ويحلم بأن يغير العيب الأساسى فى عبدالناصر، وهو إمساكه بكل خيوط اللعبة ويتحمل بمفرده كل مسئولياتها دون أن يسمح لأى مشارك معه فى المسيرة أن يكون له رأى أو مشوره بل العكس فالكل يعمل معه... هو صاحب القرار والجميع يعملون من أجل تنفيذ القرار وإنجاح ما قرره عبدالناصر، لقد كان ثروت يحاول أن يتخطى حاجز انفراد عبدالناصر بالقرار ويتمنى أن يجده كما يحبه من داخله.

لقد عرف من اذاعة القاهرة وهو فى روما عندما كان سفير مصر فى ايطاليا عام ١٩٥٨ أنه تم اختياره وزيرا للثقافة، وعلى الفور قرر العودة إلى القاهرة ليطلب إعفائه من تنفيذ القرار الذى صدر دون حتى التلميح له بما سيتم حتى من منطلق العرف أو الذوق العام.

ولقد أحس عبدالناصر بمجرد أن رأى ثروت أنه جاءه محتجا، وليمتص غضبه جعل الحديث عن آمال عبدالناصر فى مستقبل الثقافة فى مصر، وذكره بما كان يدور بينهما من أحاديث قبل الثورة عن انحصار المتعة الثقافية وبخاصة الفنون الراقية فى رقعة ضيقة لا تنفسح إلا للأقرباء، وكيف ينبغى أن تصبح الثقافة فى متناول الجماهير العريضة وأن تخرج من أسوار القاهرة والإسكندرية لتبلغ القرى والنجوع، ويضيف عبدالناصر قائلاً: «فمن بين أبناء هذه القرى الغائرة فى أعماق الريف بالدلتا والصعيد

ممكن أن يبزغ عدد من الفنانين الذين يعكسون فى إبداعهم أصالتهم الحضارية، ويبدو لى أن الأوان قد آن لتحقيق هذا المطمع».

وأضاف عبدالناصر قائلاً: «كنت أنتظر هذه اللحظة لأسند لك مهمة وزير الثقافة».

بعد هذه النظرة العامة للسياسة الثقافية التى أدلى بها عبدالناصر حاول ثروت عكاشة أن يفتح باب النقاش مرة أخرى فما كان من عبدالناصر إلا أن أنهى الجلسة قائلاً: – «عليك أن تتذكر أن قرار رئيس الجمهورية لا يقبل التغيير السريع الذى توده أو الذى كنت توده».

لقد تحمل ثروت أعباء العمل الوزارى وحقق نجاحات عديدة جعلت الكثير من الحاقدين يوقعون بينه وبين عبدالناصر إلى أن وجد نفسه فى وضع محرج يتطلب منه أن يستقيل فذهب إلى عبدالناصر ومعه الاستقالة، فكان رد الرئيس عليه بأن ما حدث كان نتيجة دس من قبل أجهزة المخابرات ومن تدبير مراكز القوى بقصد الإيقاع بينهما، وأنهما وقعا بالفعل ضحية هذه المؤامرة.

غير أن ثروت أصر على الاستقالة، وكما يعرف عبدالناصر عنه أنه ليس بالإنسان السهل بل سيصر على رأيه، فأخذ عبدالناصر الاستقالة منه وأخبره أنه سيريحه من هموم وزارة الثقافة ويعينه رئيسا لمجلس إدارة البنك الأهلى المصرى وبالطبع هو منصب بعيد كل البعد عن أفكار وأحلام ثروت عكاشه، ولكى يفسر عبدالناصر القرار لثروت قال له: «إن نظامنا السياسى لا يعرف استقالة وزير».

لقد فوجئ ثروت بأن النظام السياسى الذى هو جزء لا يتجزأ منه ليس بالنظام الذى يتخيله ولا يصدق نفسه بأنه نظام ليس للإنسان فيه حق الاختيار بل هو مسير لا مخير.

ويتبين من هذا العرض أن ثروت من داخله لا يصدق أنه يعيش فى ظل نظام عسكرى، ويحجب عنه هذه الرؤية هو الحب المتبادل بينه وبين عبدالناصر ما كان يمكنه أن يحتمل كل المشاكل والعقبات التى كانت تظهر خلال مسيرته فى وزارة الثقافة.

* * *

[٢٩]

بين السياسة والثقافة

فور نجاح حركة الجيش ونقل كل السلطات لمجلس قيادة الثورة، أصبحت السيطرة مركزية، ظهرت طبقة المنتفعين والمستفيدين بالنظام الجديد متخذه أسلوب النفاذ إلى السلطة عن طريق نقط الضعف فى النظام، وسرعان ما تحولت تلك الطبقة إلى مراكز قوى تؤثر ولا تتأثر وتعزل العناصر النظيفة التى لا تسعى لأغراض شخصية، كما نجحت فى أن تحولها إلى أن تكون فى حالة دفاع مستمر من النفس لتبعدها عن المراكز القيادية وينفتح الطريق واسعا أمام مراكز القوى.

أشار الدكتور ثورت فى مذكراته إلى ثلاثة من تلك الأحداث التى آلمته من تصرفات المؤسسة العسكرية ورد فعله عليها فيقول إنه بعد دخوله الوزارة بفترة وجيزة، تم استدعائه لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر وطلب منه الاستماع إلى شريط صوتى لمجموعة أشخاص انهالوا على شخص الرئيس بالشتائم البذيئه ناعتين إياه بأحط النعات «وسألته مندهشا عما يكونون، فذكر لى اسم أحد الوزراء واسم أديب رائد مرموق وإنه استغنى عن خدمات الوزير وأمر باعتقال الأديب الشيخ، ولما سألته عن الغرض من دعوتى للاستماع إلى ذلك التسجيل قال: «إن يحيى حقى رئيس مصلحة الفنون كان متواجداً معهما ويتعين إحالته على المعاش، فبادرته بقولى لكن من الواضح من الشريط الصوتى إنه لم يشارك فى هذا السباب، وهو مشهود له بعفة اللسان ودماثة الخلق فضلا عن أنه أديب مرموق ومحبوب ومجازاته ظلماً على هذا النحو ستكون لها أثر سيء فى أوساط المثقفين والعامة على السواء فقال: ولكنه كان موجودا معهم ولم يعترض وهذا يكفى.... فناشدته أن يترك الأمر لى لاعالجه بأسلوب مناسب فوافق بعد إلحاح».

قام بعدها ثروت بتنحية يحيى حقى عن إدارة مصلحة الفنون ولكن حتى لا يشعره بأنه مغضوب عليه أوكل إليه إدارة مركز تدريب العاملين بالوزارة ورياسة تحرير مجلة «المجلة»، إلى جانب منصب ملحوظ بدار الكتب وذلك لكى لا يشعر بغربة عن عالمه فى مجال الفكر والأدب والفن دون أن يدرى إن ما حدث هو عقاب له لأنه «سمع ولم يبلغ!!».

وفى تعليقه عن هذه الواقعة يقول: «بداية إنى أرفض بذاءة القول للتعبير عن الخلاف فى الرأى ولكنى أدركت من ناحية أخرى أن التجسس على الوزراء وأسرارهم الشخصية داخل بيوتهم قد تساوت مع التجسس على المجرمين والخارجين على القانون فكلهم فى هذا سواء... وكان هذا درسا وعيته كوزير حديث العهد بالمنصب».

وواقعة أخرى مع الدكتور لويس عوض - وكان وقتها يعمل استاذا بجامعة دمشق، ويضيف الدكتور ثروت فى مذكراته قائلاً: طلبت منه الانضمام إلى وزارة الثقافة ليعمل إلى جوارى مديرا عاما لإدارة الثقافة، فاعتذر مؤثرا أن يواصل رسالته الجامعية، غير أنه إزاء إصرارى قبل وتولى هذه المهمة وأبدى كفايه نادرة، كما نتوقع منه دائمًا... وبعد أربعة شهور فى مارس ١٩٥٩، فوجئت بأنه قد اعتقل بتهمة الشيوعية وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يدين بالمبادئ الماركسية، وقد حاولت المستحيل لإطلاق سراحه فتوجهت لتوى إلى الرئيس جمال عبدالناصر استصرخه وأناشده أن يأمر بالإفراج عن هذا العالم البرئ، فأبلغنى إنه لا يعرف شيئا عنه وان قائمة وصلته من وزارة الداخلية تضم أسماء مجموعة من المعتقلين السياسيين فوقعها، وأحالنى إلى وزير الداخلية الذى استدعى مدير مباحث أمن الدولة. ولما ناقشته فى سبب اعتقاله، أجابنى بأنه شيوعى معروف، فأوضحت له معرفتى التامة به لاسيما إنى تتلمذت على يديه ثلاث سنوات بجامعة فؤاد الأول، وأنه بعيد كل البعد عن الماركسية بل هو فى اعتقادى شيخ الليبرالية فى مصر ولا إثم فى ذلك.

لكنه أجابنى بأنه بين يديه من الأدلة ما يكفى لاعتباره شيوعيا ضالعا.. وأن هذه أمور لا يعرفها غير رجال الأمن تخفى على ولم يستطع وزير الداخلية - ذكريا محيى الدين - حيال ذلك الإصرار أن يفعل شيئا فخرجت آسفا محبطا....».

وتعليقا على ذلك يقول الدكتور ثروت «لقد كان هذا درسا جديدا وعيته بعد خمسة شهور من قبولى منصب الوزير، وهو أن كبار المسئولين فى الدولة كانوا لا يؤمنون بغير ما يسجله رجال مباحث أمن الدولة عن الأفراد.. وهكذا عجزت تماما عن ان أستنقذه من كارثة الاعتقال وتألمت أشد الألم لإحساسى بمسؤليتى عن تركه عمله فى سوريا ومجيئه إلى القاهرة، حيث تيسر لهم القبض عليه ووضعه خلف الأسوار... ومن العجيب أنه منذ اليوم الذى عين فيه الدكتور لويس بالوزارة إنهالت على احتجاجات مسعوره من بعض كبار المثقفين للأسف على رأسهم من لم أكن أتصور أن يحدث منهم ذلك... غير أنى لم أرضخ لطلب أبعاده وأصررت على بقائه وللإفادة من مواهب هذا العالم الكبير.... والراجح انهم وقد خاب أملهم فى إثنائى عن التمسك به اتجهوا وجه آخر شرير أنجع أودت به إلى المعتقل....».

أما الحادث الثالث والذى يعتبر القشة التى قصمت ظهر البعير فقد كتب الدكتور ثروت عكاشة فى مذكراته يقول: «فوجئت وأنا فى لندن بين يدى الطبيب بنبأ القبض على اثنين من أعضاء مكتبى أحدهما المدير الفنى المستشار الفنان أحمد لطفى والآخر سكرتيرى الخاص، فغضبت غضبا شديدا حفزنى أن أغادر لندن لتوى وأقطع الاستمرار بعلاجى، وعدت إلى القاهرة فوصلتها منتصف الليل وعلمت أن الرئيس ونائبه بالاسكندرية فتوجهت إلى الاسكندرية بالطائرة فجرا وقصدت بيت عبدالحكيم عامر، وكان ذلك فى السابعة صباحا، وبادرته ثائرا محتجا على ما حدث وأضفت إنى ما كنت أتوقع أن هذه الثورة التى جمعتنا مبادؤها النبيلة ستقضى بنا إلى هذه الغاية الرذيلة، ولهذا أجدنى فى حل من أن الزم بيتى منذ هذه اللحظة لأنى أعد هذا الذى مس من يعملون معى ويحظون بثقتى هو فى الحقيقة مما يمسنى أنا، كما أعده طعنة فى ظهرى.

وقد حاول عبدالحكيم عامر أن يهدئ خاطرى وكانت حجته التى برر بها هذه الفعلة الشنعاء هو ما بلغهم من أن المدير الفنى لمكتبى المستشار أحمد لطفى وسكرتيرى الخاص يمدان شقيقى الدكتور أحمد عكاشة بنكات تمس جمال عبدالناصر وأسلوب حكمه وأن أخى بدوره فى زعمهم يقوم بنقلها إلى الأستاذ أحمد أبو الفتح

المقيم فى جنيف لتكون له منها مادة للتشهير بالنظام فى كتاب يعده لهذا الغرض... وكان شقيقى يدرس فى لندن ولم تطأ قدماه أرض مصر إلا أسابيع فى شهر يناير ١٩٦٢ قبل القبض عليهما بثمانية شهور... أفلم تتكشف لهم قصة تلك النكات إلا بعد المدة الطويلة منتهزين غيبتى فى لندن؟ والغريب أيضًا أن المدير الفنى لمكتبى كان اثناء مجئ أخى إلى القاهرة منتدبا من وزارة الثقافة إلى يوغسلافيا للإشراف على البعثة الموفودة لدراسة أصول إدارة قصور الثقافة فى تلك الدولة الأوروبية... معنى هذا أنه لم يكن إذن ثمة لقاء بينهم وبين أخى حين جاء فى إجازته إلى مصر على الإطلاق.... فكيف فات هذا كله حذق أجهزة المخابرات الحربية والمخابرات العامة وغيرها من شتى أجهزة الأمن التى حاكت تلك المكيدة؟.

لقد كانت أجهزة الأمن لا تبغى الحقيقة إنما كانوا يبغون الإساءة إلى فى أشخاص من يحيطون بى».

وعلق الدكتور ثروت على هذا الحدث بقوله: «لقد ضقت سأما وبرما بكل ما حولى وما من شك فى أن هذا الذى دار بينى وبين عبدالحكيم وإصرارى على الاستقالة والاعتزال فى بيتى قد بلغ جمال عبدالناصر فى حينه.. والعجيب انه لم يحرك ساكنا ولبث أيامًا خمسة قبل أن يصدر أمره بالافراج عمن اعتقل من أعوانى الأبرياء الذين لم يكن ثمة ما يدينهم من قريب أو من بعيد، فلم تحوم حولهم شائبة ما وإلا فما كان أجدر بى وأنا رجل من رجال الثورة المخلصين لها أن أسكت عن خلل فى التصرف أراه يمس نظام الحكم».

«وعدت إلى نفسى أسألها هل يعقل أن يدبر لى ما يسئ إلى سمعتى لمجرد أنى أفكر فى الاستقالة؟».

«على الرغم من هذا كله عقدت العزم على أن أتنحى عن منصبى وليكن ما يكون... فأى قيمة للإرادة - كما يقول طه حسين - إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن ينفذها ويجرى أحكامها؟ إنما الارادة العاجزة أقبح صور الذل وأشنع ألوان الرق وأبغض ما يلقى الإنسان فى الحياة».

فى هذه الوقائع الثلاث نرى أن الدكتور ثروت عكاشه يتنازعه هاجسين أولهما أنه يؤمن بالليبرالية الرومانسية وبها يمكنه أن يقدم للثورة أجمل ما عنده وثانيهما عسكريته وإيمانه بأن الثورة فى الإمكان أن تحقق الكثير، أما المشكلة التى تواجهه هو اكتشافه أن الليبرالية لا تتماشى والعسكرية. والنتيجة هو أنه أصبح محبطا يملاؤه الشعور بالأسف والأسى.

هكذا كانت تجربة الثقافة الجماهيرية.... فقد أدرك ثروت عكاشة أن الثقافة يمكنها ان تصل لاعماق الريف شرط أن تتوافر عناصر بشرية قادرة على الوصول إلى الجماهير وتعمل على إطلاق القوى الخلاقة الكامنة فى نفوس الناس، وهذا لا يتحقق إلا بقيادات مرت بتجارب سياسية سابقة ولا تتوافر فى ذلك الوقت إلا عند الماركسيين السابقين والذين كانت لهم انتماءات لتنظيمات شيوعية مختلفة وأصبح فى الإمكان الاستعانة بهم خاصة بعد أن قام الشيوعيون بحل تنظيماتهم وشاركوا بجدية فى التنظيم الذى تم تشكيله لقيادة الاتحاد الاشتراكى تحت مسمى التنظيم الطليعى.

لقد استعان ثروت بالتيار اليسارى فى تدعيم المناصب المختلفة فى الوزارة وكانت الوزارة شبه خالية من الاتجاه اليسارى فى حين كانت حافلة بكافة الاتجاهات الأخرى، ويؤكد الدكتور ثروت أنهم جميعا أدوا واجبهم فى مواقعهم بكفاءة وأمانة واخلاص وهكذا الحال بالنسبة «لسعد» فقد شهد له ثروت عكاشة فى مذكراته بقوله: «امضى فى منصبه قرابة عام بذل فيه قصارى جهده وكان مثالاً للجد والحماسة».

إن نجاح تجربة العمل الجماهيرى وتحقيقه لإنجازات ملموسة خلال فترة تقل عن عام كانت نتيجة أن العمل السياسى الحقيقى هو ما كانت تفتقده القاعدة الجماهيرية العريضة بعد غياب الأحزاب وتأميم الصحافة، أصبحت رسالة الثقافة الجماهيرية مزج العمل السياسى بالعمل الثقافى، وبذلك تحولت إلى رسالة تحتاجها الجماهير.

فى المناخ المتفتح الذى كان سائدا قبل نكسة ٦٧ ، مما مكن ثروت عكاشة ومعاونيه من تحمل المسئولية وتخطى العرف السائد وقتذاك بضرورة موافقة الأمن قبل التعيين وهذا أدى إلى خلق مناخ مملوء بالثقة والأمان جعلت هذه العناصر الجديدة

تعمل بكل إخلاص وتفان ونشاط. وتدخل عنصر لم يكن فى الحسبان وهو نكسة ٦٧، اختلت الموازين وبدأت قوى اليمين المتربصة تظهر من جديد على كافة المستويات سواء من قبل الوزراء أو المحافظين والذين تقلدوا العديد من المناصب القيادية.

لقد سببت النكسة شرخا فى نفوس كل المصريين وبصفة خاصة للعناصر النشطة والتى لها ماضى سياسى وراحت تعمل مع الجماهير، وأصبح هدفها إزاحة الألم الذى حل فى نفوس الجميع.

واختلت القيادات سواء السياسة أو البيروقراطية فنشأت أفعال غير متناسقة من القيادات قابلتها ردود أفعال غير متناسقة أيضًا من القاعدة.

والنموذج الصارخ لتلك الحال هى قيام المظاهرات والاحتجاجات بسبب الأحكام الخفيفة الصادرة ضد المسئولين عن نكسة ٦٧. مما جعل عبدالناصر يصدر بيان ٣٠ مارس فكان التخبط الثانى، إذا كانت التعليمات لقيادات الثقافة الجماهيرية بضرورة النزول ببيان ٣٠ مارس إلى الجماهير.... وبعد فترة وجيزة توجيهات جديدة بضرورة التنسيق مع الاتحاد الاشتراكى، ثم انتظروا لحين صدور تعليمات جديدة!!

ساد التخبط كافة المستويات، وهو ما يصفه ثروت عكاشة بقوله: «كوزير مسئول أصبحت فى حرج شديد وإذا بعض المحافظين يقطعون ما بينهم وبين الثقافة الجماهيرية من صلات، فرأينا محافظ السويس يبعد مدير قصر الثقافة عن محافظته كلها، كما جاءنى محافظ الشرقية، يشكو مما ناله من مدير قصر الثقافة فى محافظته من ألفاظ جارحة علنية على مسمع ومرأى من الناس، كما رأينا خلافا ينشب بين أجهزة الأمن، بمحافظتى بنى سويف وكفر الشيخ وبين قصرى الثقافة مما يجعل تلك الأجهزة تعلن عزمها على الحيلولة بين قوافل الثقافة وبين الطواف فى المدن والقرى».

لقد تألم الدكتور ثروت عكاشة كل الألم عندما هاجمه أحد الوزراء فى جلسة ٢٤ مارس ١٩٦٨، وكتب الدكتور ثروت فى مذكراته يقول: «لقد هاجم المشروع مدعيا أن مشروعا للترسيب (الصرف الصحى) قد يكون أكثر فائدة ونفعا من إقامة قصر للثقافة فى محافظة من المحافظات!!».

لقد شعر عبدالناصر بمدى الألم الذى لحق بثروت من الهجوم عليه وعلى الثقافة الجماهيرية فكان بحسه الثقافى ولتفهمه لأهمية الثقافة فى بناء الشعوب أن أتاح لثروت أن يرد على حجة ذلك الوزير، رغم أن وقت مجلس الوزراء لم يكن يتسع إلا لما هو موصول بالحرب والسياسة فقد قال:- «أحب أن أوضح أن أول مطلب لأهالى لينجراد التى أرهقها الحصار ونالها التدمير بمجرد انتهاء الحرب لم يكن إقامة أفران الخبز، كما يتوقع المرء بل كان إعاده بناء دار الأوبرا التى دمرها الغزاه.

إن الثقافة والفنون تفتح قلوب جماهير الشعب على ما يحرك فيهم طاقات المشاركة والإبداع.. إن الثقافة هى لب الحياة من أجلها نحيا ومن أجلها يهون علينا الموت».

ووجه كلامه للذين هاجموا مشروع الثقافة الجماهيرية بقوله «إن من يدعو إلى المنجزات المادية فحسب ونسى أو يتناسى أهمية مكاسب الروح يجعل من البشر دمى أو يحيلهم متقاعسين فاقدى الهمة».

ووجه كلامه إلى الوزير الذى هاجمه متسائلا: «ما هو قصر الثقافة هذا الذى وجد نفسه فجأة بإزاء مشروع الترسيب فى كفه مقابلة فى الميزان؟ وماذا يفعل هذا القصر؟؟ إلا يرسب هو الآخر شيئا يفيد منه المواطنون».

واختتم كلامه قائلاً: «إن قصور الثقافة التى أهدتها الثورة لريف مصر الذى لم يكن يملك قبل الثورة معرفة ولا قصورا... هى واحات فكر وفن ستتألق مع مر الزمان بامتداد الوطن كله...».

لقد كان ثروت عكاشه يؤمن بأن الثقافة يجب أن تنتشر وأن تصل إلى الملايين فى الريف وجاءته الفكرة وترسخت بزياراته للدول الاشتراكية فى فترة وزارته الأولى – ٥٨ – ١٩٦٢ – مما دفعه إلى أن يتقدم فى الخطة الخمسية الأولى بمشروع التوسع الثقافى بأنه يتم إقامة قصر للثقافة فى عاصمة كل محافظة يتبعه قوافل ثقافية تجوب القرى وتشيع الثقافة بين مواطنيها ليكونوا أهلاً لأن يصلوا حبلهم بحبل الثقافة فى المدينة، وكانت بداية الخطة وقتذاك تطوير الجامعة الشعبية التى آلت إلى وزارة الثقافة من وزارة التربية والتعليم، وأطلق على هذه الإدارة الجديدة التى تضم قصور الثقافة وقوافلها اسم «جامعة الثقافة الحرة».

لقد تضمنت الخطة الخمسية الأولى إقامة ١٤ قصراً للثقافة بعواصم المحافظات و١١ مركزاً ثقافياً بالمدن، وبجانب ١٧ قافلة ثقافية... لقد كانت خطة ثقافية طموحة إذا ما تم مقارنتها بما يحدث في دول متقدمة، ففي فرنسا مثلاً لا يوجد سوى ٢٠ قصراً للثقافة في كافة أنحائها.

لقد أدى عدم وضوح الفرق ما بين الثقافة والإعلام واعتقاد الكثيرين من المسئولين أنه لا فرق ما بين العمل الثقافي وإبداعاته وبين مفهوم الدعاية والإعلام السياسي، إلى تنحيه الدكتور ثروت عكاشه ليحل بدلاً منه الدكتور عبدالقادر حاتم وزيراً للثقافة والارشاد القومي. ثم تم دمج مكاتب الاستعلامات ومراكز الثقافة بالأقاليم، وتحولت قصور الثقافة إلى دور «للثقافة والاستعلامات» وكان المستهدف إقامة ٤٠٠٠ مركز، وذلك حتى يشاهد المواطنون بداخل هذه المراكز التليفزيون والاطلاع على الصحف والمجلات واستعارة الكتب التي كانت في أغلبها مرتجعات كتيبات سياسية والتي كانت تصدر تحت شعار كتاب كل ٦ ساعات. كما تم تنظيم ٥٠ قافلة للاستعلامات والثقافة، وتقوم بتقديم عروض سينمائية ودعائية للأعمال السياسية التي تقوم بها الدولة.

بعد ثلاث سنوات من هذا الدمج بين الثقافة والإعلام ثبت فشلها فشلا ذريعا وتوارى العمل الثقافي وتنامى العمل الإعلامي والذي أصبح بدوره فجاً وغير مؤثر في الجماهير.

لعل كل هذا هو الذي دعى ثروت عكاشة أن يطلب من جمال عبدالناصر حين طلب منه تولي الوزارة مرة أخرى أن يكون وزيراً للثقافة فقط دون الأعلام، ووافق عبدالناصر فورا على ذلك بعد أن لمس فشل مزج الثقافة والإعلام.

كانت أولى اهتمامات ثروت عكاشة إنقاذ قصور الثقافة من الدمار الشامل وإعادتها إلى أهدافها الأصلية وهي تنمية الثقافة والإبداع.

كان سعد صادقا مع نفسه حين كتب في أول تقرير له بعد استلامه المنصب الجديد في أكتوبر ١٩٦٦ للدكتور ثروت عكاشة متنبئا بما سيحدث، وأكد فيه أن طريق الثقافة الجماهيرية محفوف بالأشواك والعراقيل فكتب يقول:- «إنه من أخطر ما يواجه

التجربة الجديدة للثقافة الجماهيرية هو وقوعها أثناء العمل فى تناقض مع الجهاز السياسى فى المحافظة (الاتحاد الاشتراكى، المكتب التنفيذى أو المجموعة القيادية)، خاصة وأن الطابع الجماهيرى للعمل الثقافى ينطوى فى جوهره على مضمون سياسى، ولا شك أن هذا سيغرى العامل فى الميدان الثقافى الجماهيرى بالتنافس مع الجهاز السياسى إذا كان نشيطا، فإذا كان الجهاز السياسى لا يؤدى دوره كاملاً، فإن نشاط الادارة الثقافية سيثير المسئول السياسى هناك.. فسرعان ما يضيق فزعا من الحركة الجديدة فى مجال معتبراً ان هذا اعتداء على اختصاصه ويبدأ فى زراعة الأشواك أمام التجربة الجديدة محاولا عرقلتها وافتعال حركة موازية لا يقصد به سوى احباط النشاط الثقافى والتخلص منه». واستطرد قائلاً: «وفى بعض المحافظات يكون هناك تناقض قائم فعلا بين المحافظ والجهاز السياسى، وفى مثل هذه الأحوال سيحاول كل منهم أن يغرى القائمين على التجربة بالتحيز له ضد الآخر، وذلك يسبب حتما إثارة المتاعب والعقبات فى وجه التجربة الجديدة ولهذا أرى أن يكون واضحًا للقائمين بالعمل بضرورة التنسيق الكامل مع الجهاز التنفيذى والشعبى وعدم التورط فى هذا التنافس مهما كان الثمن ومهما كانت مغريات النجاح السريع فى البداية فإنه من الأفضل فى هذه الحالة السير ببطء على نجاح سريع وقصير».

لقد بدى التناقض واضحًا عقب صدور بيان ٣٠ مارس، حين طلبت الإدارة المركزية من القائمين على القصور فتح باب الحوار حول البيان واستجابت المراكز الثقافية وطافوا القرى وانطلق الفلاحون وعبروا بأمانة عن أوجه القصور فى المؤسسات التنفيذية والسياسية، وقد أشعل ذلك غضبها وشكواها من نشاط الجهاز الثقافى. بعد ذلك تغيرت التعليمات إلى ضرورة التنسيق مع الاتحاد الاشتراكى وتطور هذا التنسيق إلى التصدى لتلك الاجتماعات وإلغائها ولو باستخدام القوة.

وكانت النتيجة النهائية أن تحولت مراكز الثقافة فى المحافظات إلى بؤر للتوتر والإزعاج للبيروقراطية وأعداء النجاح.

قد ترك الدكتور ثروت عكاشة الوزارة عام ١٩٧٠ بعد أن أصبحت قصور الثقافة حقيقة واقعة فى نفوس كافة طبقات الشعب وأصبحت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها،

لقد كانت قبل بدء التجربة مرفقًا وسيطًا لا يؤدى شيئًا بذاته إنما يقوم على التلقى والإرسال فى مجال التثقيف والترفيه عن طريق الآداب والفنون والمكتبات والافلام إلى ان تخذت مكانها الواجب لها بين مرافق الوزارة ومصالحها، وأصبح من أولويات مسئولياتها العطاء قبل الأخذ، تؤدى أعمالها بالتعاون مع مؤسسات الوزارة وهيئاتها ووكالاتها على أساس من التكامل والتنسيق وفق تخطيط دقيق. وبذلك نجحت التجربة فى ترسيخ كلمة «قصر ثقافة» فى نفوس كافة طبقات الشعب وأصبحت هى الملاذ الثقافى لجماهير الشعب على اختلاف طبقاتهم فهى المنارات التى يشع ضوئها فى أرجاء الوطن، وتزود أهله بألوان مختلفة من الثقافة والفن.

وإذا ما حدث تهاون فى عمل تلك القصور يكون نتيجة مناخ عام ولأسباب خارجة عن الإرادة. ان تجربة عام ١٩٦٦ – ١٩٦٧ هى النموذج الذى نسعى لتحقيقه، وحتى تتحول الثقافة الجماهيرية إلى ثقافة ناتجة عن إدارة الجماهير، وكل أدوات الثقافة، يجب أن تتحول إلى أهالى القرى والنجوع والأحياء، وعلى الأهالى وضع سياستها والإشراف على تنفيذ برامجها دون أى تدخل من الدولة أو أجهزة وزارة الثقافة، فلتكن البنية الأساسية تشكيل جمعيات ثقافية أهلية على المستوى القاعدى، وتتحد هذه الجمعيات لتكون بيت ثقافة فى كل مركز، وتتحد بيوت الثقافة لتكون مجلس إدارة قصر الثقافة على مستوى عاصمة المحافظة، وأخيرًا تتكون الجمعية العمومية من اتحاد قصور الثقافة والتى عليها رسم ومتابعة سياسة الثقافة الجماهيرية على مستوى الجمهورية.

إنه حلم بناء صرح ثقافة الجماهير، ولابد أن تكون البداية من القاعدة العريضة للجماهير المتعطشة للعمل الثقافى الصادق.

إنها أحلام «سعد» التى بدأ أول خطواتها... ورغم أن المدة كانت قصيرة إلا أنها تركت بصمة واضحة، مازالت تنتظر الفرصة السانحة لتحقيق النجاح والانتشار.

* * *

الفصل السابع
سباحة ضد التيار

[٣٠]

توكيل عام لعبد الناصر

في مطلع عام ١٩٦٨ صدر قرار فصل «سعد» من عمله بالثقافة الجماهيرية، وجاء في مسببات الفصل تغيبه عن العمل مدة تجاوزت الحد المسموح به!.

وبعد مباحثات واتصالات مكثفة، عاد إلى أخبار اليوم ليستأنف مسيرة العمل الصحفي، والتي بدأها منذ عام ١٩٤٨.

النكسة تنهش في عقول وقلوب كل المصريين عامة، والمثقفين بصفة خاصة، الإحساس بالذنب يخيم على عقولهم ونفوسهم، والسؤال الدائم الذي كان يطرح نفسه بينهم... هل شاركوا في الجريمة؟ وهل لهم دور ما في هزيمة يونيو؟.

لقد وضع المثقفون أنفسهم في خدمة الثورة وقضاياها، فهل خدعوا بذلك الجماهير؟ أم هم الذين كانوا مخدوعين؟ هل كاريزما عبد الناصر من القوة إلى الحد الذي سلب إرادة قادة المثقفين، وساروا خلفه دون حذر أو وعي. هل أخطأ «سعد» عندما شارك إيجابيا في تعبئة كوادر اليسار، ليدعموا الحقل الثقافي في جميع جوانبه، سواء المسرح أو السينما أو الكتاب أو الثقافة الجماهيرية بصفة خاصة، لقد كان للمشاركة الايجابية لكافة ألوان الطيف اليساري دور مهم في دفع عجلة التقدم، وتحقيق نتائج مذهلة خلال فترة زمنية قصيرة.

عاد «سعد» مرة أخرى لعمله الصحفي في جريدة الأخبار، ليشرف على بابه عن « الثقافة والحياة» . كتب سلسلة مقالات تعرض فيها لفكرته، في أن لا تقتصر الحرب مع

إسرائيل على التعبئة العسكرية، بل يجب أن يصاحب ذلك مساندة أنصار السلام، سواء داخل المعسكر العالمى، أو من داخل اسرائيل نفسها.

ذهب «سعد» فى مقالاته الى أن إسرائيل ليست كما نتصور متوازنة داخليا، وأنها تعيش دون أى مشاكل وتناقضات ، بل بالعكس فهناك تناقضات خطيرة داخل المجتمع الإسرائيلى، وعلينا ألا نتجاهل ذلك، وأن نعمل على تنامى تيار أنصار السلام، وكلما ارتفع صوت السلام فى إسرائيل، كلما تراجع صوت صقور الحرب، والذين مازالوا منتشين بانتصارات ٦٧. ودون تحجيم جبهة أعداء السلام، فإن معركتنا العسكرية ستكون بالصعوبة بمكان.

ورغم أن «سعد» كان مستبعدا من حركة أنصار السلام المصرية، والتى شارك فى تأسيسها خلال الأربعينيات مع يوسف حلمى، ونجحت فى أن تحقق العديد من المكاسب السياسية قبل قيام الثورة. واستمرت الحركة الى أن تم القبض عليهما – سعد ويوسف حلمى – وقدما للمحاكمة ثم تم تأميم الحركة عام ١٩٥٦ وضمها للتنظيم السياسى الوحيد آنذاك، وتم تشكيل اللجنة التنفيذية من عناصر جديدة بعد استبعاد كل المؤسسين وأصبح خالد محيى الدين رئيسا للحركة. ورغم استبعاده من حركة أنصار السلام، إلا أنه قرر أن يعمل وأن يواصل دعوته داخليا وخارجيا.

وكان أول صدى لدعوته، أن تلقى اتصالا تليفونيا ذات يوم من الصحفى الفرنسى إيريك رولو، وهو مصرى المولد، ومسئول قسم الشرق الأوسط بصحيفة لوموند الفرنسية. وجاء لتوه للقاهرة قادما من باريس، لإجراء حديث صحفى مع جمال عبد الناصر.

وخلال لقاء طويل مع «سعد»، أخبره أن فكرته لتنمية معسكر السلام بإسرائيل، لمناصرة حرب مصر ضدها، لاقت استحسانا من المهتمين بالعمل السياسى فى فرنسا وعلى رأسهم هنرى كورييل، الذى يطلب مقابلته لمناقشة الخطوات التنفيذية لهذا المشروع الكبير... إن الأفكار بدأت تصبح حقيقة... ولما كان شعراوى جمعة مسئول التنظيم الطليعى، والذى لم يجتمع بأعضاء التنظيم ولا مرة بعد النكسة، فقد رأى

«سعد» أنه قبل أن يبدأ خطوات تنفيذية أن يعرض عليه الفكرة، ولقى منه ترحيبا وتأييداً مطلقاً.

سافر «سعد» إلى باريس للقاء هنرى كورييل ، ولكن من هو هنرى كورييل؟ إنه يعتبر مؤسس الحركة الشيوعية فى مصر، وبالذات تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) . فلقد جاءت البداية من الأجانب المقيمين فى مصر إلى أن تزايدت أعداد المصريين وأصبحت حركة وطنية خالصة، خاصة بعد هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين وإعلان هيئة الأمم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ ، ووافق التنظيم الشيوعى على التقسيم، انتهزت الرجعية المصرية الفرصة، واعتبرت هنرى كورييل عميلا لإسرائيل، فهو يهودى الديانة مصرى الجنسية. وتم القبض عليه، وانهالت كل أجهزة الإعلام تنعته بأحط الأوصاف ، وتم ترحيله من مصر فى ٢١ أغسطس ١٩٥٠ وأصبح يمثل للمصريين نموذجا للخيانة والعداء للوطن. ولكن مرت الأيام وأثبتت عكس ذلك، فهو يحب مصر وبذل من أجلها كل ما يملكه.

فقد حدث أنه فى عام ١٩٥٦ وقبل العدوان الثلاثى على مصر، حصل على خطة غزو مصر، وببساطة قام بتسليمها إلى خالد محيى الدين، الذى كان موجودا فى جنيف خلال فترة إبعاده عن مصر... وقام خالد بإبلاغ الخطة إلى جمال عبد الناصر، الذى أشاد فى إحدى خطبه بدور هنرى كورييل البطولى خلال حرب ١٩٥٦.. هذا بجانب دوره البطولى مع ثوار الجزائر، الذى شاركهم حربهم، ودعمهم فى كفاحهم ضد الاحتلال الفرنسى، وانتهى ذلك إلى اعتقاله مع الثوار الجزائريين فى سجن (غرين) بالجزائر، خلال عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٦٢... وفى عام ١٩٦٤ تنازل عن الڤيلا التى يملكها فى شارع حسن باشا صبرى بالزمالك لتكون مقرا للسفارة الجزائرية بالقاهرة دون مقابل ويقدر ثمنها حاليا بأكثر من ٣٥٠ مليون جنيه.

ساهم هنرى كورييل مع «سعد» فى وضع خطة الاتصالات والمقابلات، واضعين فى الاعتبار التناقضات فى المجتمع الإسرائيلى وخاصة التناقضات بين أنصار السلام ودعاة الحرب الذين يشيعون أن مصر لا تريد السلام، وأن هدفها هو القضاء على

إسرائيل وشعب إسرائيل... وبدأ «سعد» برنامجه بالاتصالات واللقاءات مع شخصيات عديدة، لها مكانتها السياسية والإعلامية فى إسرائيل، ومن بينهم- يورى أفنيرى عضو الكنيست ورئيس تحرير مجلة «هاعولام هازيه» الواسعة الإنتشار.. ناثان يالين مور القائد السابق فى منظمة شتيرن الإرهابية، والذى تحول إلى داعية سلام والكاتب الصحفى موسى كينان.... وفعلا بدأ الموقف يتغير وبدأت ولأول مرة فى الصحافة تنشر هذه الآراء الجديدة... صحف تهاجم هذا الاتجاه، وصحف تدعمه، ودارت مناقشات محتدمة فى الكنيست الإسرائيلى إلى حد أن جولدا مائير رئيسة الوزراء وقفت متحدية هذا الاتجاه الذى بدأ يتصاعد ويطالب بضرورة إجراء اتصالات سلمية مع مصر، وهى التى كانت ترفض هذا المبدأ تماماً.

وجاء قبول عبد الناصر لمبادرة روجرز، والتى تقضى بالهدنة بين مصر وإسرائيل، والذى أصبح موضوع الساعة فى أوروبا، وقام التليفزيون الفرنسى بتقديم برنامج سياسى للتعرف على وجهتى نظر مصر وإسرائيل، وقدم «سعد» وجهة نظر السياسة المصرية، ومن الجانب الإسرائيلى الصحفى الإسرائيلى أمنون كايلبوك، ويعمل فى صحيفة لوموند الفرنسية، ونجح «سعد» فى تعريف العالم الغربى بمصر السلام لا الاستسلام، كان الحوار ساخنا وناجحا، وأثار الصحفى الإسرائيلى قضية مهمة حول هل تؤمن مصر بالسلام التكتيكى أم الإستراتيجى، ونجح «سعد» نجاحا مطلقاً فى إيصال مفهوم جديد عن السياسة المصرية، جعلت مقدم الحوار لا يصدق ما يسمعه، وحاول المقدم إحراج «سعد»، ووضعه فى امتحان على الهواء أمام ملايين المشاهدين، بأن سأله هل فى الإمكان أن تصافح زميلك فى الحوار الصحفى الإسرائيلى... وتمت المصافحة ليثبت أن المصريين فى إمكانهم تقبل الإسرائيليين، إذا ما ساد السلام العادل.

لقد أقام هذا البرنامج الدنيا ولم تهدأ كما هو متوقع... فبعد ساعات من البرنامج كان موظفو السفارة المصرية بباريس، يبحثون عن «سعد» ويطلبون منه مقابلة السفير المصرى، الذى استفسر من «سعد» هل هى مبادرة شخصية أم هى سياسة جديدة لمصر!؟

لقد بدأت خطة «سعد» فى النجاح، وقد أشار جمال عبد الناصر فى خطابه أمام المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى، إلى أن تدعيم حركة أنصار السلام داخل إسرائيل هى أحد أسلحتنا فى حرب التحرير... وبدأ تيار الدعوة إلى السلام ينمو ويشتد داخل إسرائيل.

وجاءت نكسة أخرى بالرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر... نكسة لا تقل قوة عن نكسة ٦٧، لقد راهن كل الوطنيين بكل ما يملكون على جمال عبد الناصر، وأنه سيحقق لهم كل مالم يستطيعوا تحقيقه، بل وصل الحال أن تخلى اليسار عن تنظيماته طواعية وقالوا له : «يرسلون إليك أصواتهم وينتخبونك بالإجماع رئيسا للجمهورية وقائدا للثورة وقائدا لحزبها السياسى الواحد المناضل».

لقد كان توكيلا عاماً لشخص عبد الناصر.. ويوم أن وقعوا هذا التوكيل لم يكن فى خلد أحد أنه سيرحل، ليتولى القيادة شخص آخر.

أى مصير ينتظر الشعب، الذى تعلقت آماله بالرجل الذى غاب، ورغم قسوة الهزيمة ومرارتها، فقد كان وجوده شعاع أمل للمستقبل.. لقد خرج الجميع إلى الشوارع حيارى يطلبون الدفء فى لقاء الآخرين... ينفثون ما فى صدورهم على شكل أغنيات حزينة... لا يطيقون العودة إلى منازلهم فهى جدران مغلقة.. لقد كانت جنازة عبد الناصر، ووداع الشعب الحار، بمثابة وداع لأحلامهم وآمالهم التى لا يعرفون ماذا يخبئ الغد لهم، الكل يجهش بالبكاء على الرصيد المعنوى الذى أعطوه لعبد الناصر، وتركهم دون أن يدروا عن مستقبلهم وماذا تخبئ الأيام لهم؟؟

* * *

[٣١]

سباحة ضد التيار

تم تشييع جثمان جمال عبد الناصر، ووداعه لمقره الأخير بمنشية البكرى. وبدأت صفحة جديدة بإعلان ترشيح أنور السادات رئيسا للجمهورية.

أنور السادات رئيسا للجمهورية، ومر شريط الذكريات الطويل أمام «سعد»، وتذكر أول لقاء له مع السادات، والهدية التى قدمها لجمعية تحرير مصر، وهى دستة قنابل منزوعة المفجر، ثم هروبه يوم محاولة اغتيال النحاس، وكيف جمعهما قفص الاتهام فى قضية اغتيال أمين عثمان، واتصالاته مع السراى عن طريق الدكتور يوسف رشاد، ثم لقاءاتهما والحوارت الطويلة بينهما، حين كان السادات رقيبا على الصحف المصرية.

ذكريات، وذكريات، كلها تؤكد أن السادات كان يجيد المناورات السياسية، وأنه لا يؤمن بالفكر اليسارى، وإنما يميل إلى معسكر اليمين.

وتمر الأيام... وينجح السادات فى أن يعتقل خلال ليلة واحدة كل القيادات التى كانت تتولى أهم وأخطر المناصب التنفيذية.

وفى أثناء ذلك كان محمود السعدنى الكاتب الصحفى، يقوم بحرق كل وثائق ومستندات وأسماء التنظيم الطليعى فى مزرعة صديقه بالهرم إبراهيم نافع. قام بعدها محمود السعدنى بتسليم نفسه للبوليس، إذ كان اسمه على قائمة المطلوبين، وهكذا نجح السعدنى فى إغلاق صفحة التنظيم الطليعى، وإنقاذ العشرات من اليساريين المنتمين إليه، بدلا من تقديمهم للمحاكمة وصدور أحكام بالسجن عليهم.

مضت الأيام بطيئة وثقيلة، وتزايد المد اليمينى داخل مؤسسة أخبار اليوم، ويتولى رجاله المناصب القيادية برئاسة موسى صبرى، والصراع يتزايد داخل نقابة الصحفيين بين اليمين الذى يمثله موسى صبرى، واليسار ويمثله على حمدى الجمال، الذى يفوز فى معركة انتخاب النقيب.

وفى شهر يوليو يقع انقلاب هاشم العطا الشيوعى فى السودان، ويقوم أنور السادات بدور إيجابى لإفشال الانقلاب، ويعلن فى خطابه فى ٢٣ يوليو، بأنه قد ثبت أن الاتحاد العربى الذى يجمع بين مصر وليبيا وسوريا ولد وله أنياب!!

وقع خبر إعدام عبد الخالق محجوب، أمين الحزب الشيوعى السودانى وقع الصاعقة على «سعد»، إذ كان صديقا شخصيا له يتبادلان الزيارات العائلية. لقد كان زعيما له جاذبية خاصة وأخلاق نبيلة، تضعه فى مصاف أكبر زعماء العالم.

وأصبحت أخبار السودان كابوسا بالنسبة لسعد، تنهمر دموعه لدى سماع أية أخبار عن عبد الخالق محجوب.

واستمرت حملات الانتقام والترويع فى مصر، وتم إبعاد سعد لبيب، وصلاح زكى، وسميرة الكيلانى، وطاهر أبو زيد، وعبد الوهاب قتاية، وإبراهيم عبد الجليل، من الإذاعة والتليفزيون وإحالتهم للمعاش، وأصبح كل الأصدقاء والأحباب ما بين السجن أو التجميد، أو العزل، وبدأ يشعر بالوحدة والغربة، وبدأ قلبه ينقبض والدنيا تضيق به، إلى أن سقط مغشيا عليه. وجاءوه بالدكتور عبد العزيز الشريف، فنصحه بالأدوية الخاصة بأمراض القلب وتوسيع الشرايين.

ولأن الدكتور الشريف حكيم قبل أن يكون طبيبا، فقد بدأ يتقصى عن أسباب مرضه، واكتشف أن ما أصابه، هو رد فعل وانعكاس طبيعى للوضع السياسى السائد فى البلاد. فأضاف إلى روشتة العلاج الأدوية المهدئة، حتى يتمكن «سعد» من مواجهة الوضع الجديد الذى يؤدى بلا شك إلى انقباض القلوب!!

بعد ذلك صدر فى شهر فبراير ١٩٧٣ قرارا بنقل ١٠٤ صحفيين من مؤسساتهم الصحفية، إما إلى مؤسسات إنتاجية، أو مصلحة الاستعلامات، وكان من نصيب

«سـعـد» ، نقله إلى مـحـلات «باتا» للأحـذية، ولا يدرى حـتى الآن مـا هـى الصلة بين القلم.... والقدم؟

لم يتـأثر «سعد» كثيرا من جراء نقله إلى مـحلات «باتا»، فقد أصبح مثله كبقية أصدقائه الذين نالتهم عقوبة النظام القائم.

كما أنه وجد فى ذلك فرصة، حتى يراجع مسيرة حياته، خاصة وأنه قد أصبح فى الخمسين من عمره، وفى حاجة إلى وقفة مع النفس لاستئناف رحلة الحياة.

وفى ذكرى رحيل عبد الناصر الثالثة، أعلن أنور السادات فى خطابه عودة كل الذين تم إبعـادهم عن العـمل الصحفى، وكانت مفـاجـأة غيـر منتظرة جـاءت بدون أية مقدمات أو دلائل.

وعـاد «سـعـد» لعـمله فى أخـبـار اليـوم، وبعـد ذلك بأيام تبين سـبب إعـلان أنور السادات عودة كل المبعدين عن الصحافة، إنها بمثابة مصالحة وطنية لتوحيد القوى الوطنية، ليخوض حرب التحرير يوم ٦ أكتوبر.

لقد عاد الأمل لكل الوطنيين بعودة السادات لرشده، خاصـة وأنه يحمل خبرات سياسية واسعة إلى جانب تمرسه على الحكم، ومرور ثلاث سنوات على رأس السلطة، مما يؤهله بأن يصبح زعيما وطنيا، ليقود الشعب إلى طريق الأمل والانطلاق.

واستمرت الانتصارات، والكل يشـعر بميلاد زعيم سيقود الأمة للخلاص، وكان أكبر نجاح انتشال الشعب من دوامة النكسة.

وفى صباح يوم جديد، دق جرس التليفون، وكان المتحدث ايريك رولو الذى وصل القـاهرة لتغطيـة أحداث الحـرب، فدعـاه «سـعـد» لقـضـاء السـهـرة بمنزله، خـاصـة وأن بصحبته زوجته، إنها فرصة لسهرة عائلية.

ودار الحديث، وكـانت المفاجـأة التى عرفـها «سـعـد»، أن القوات الإسرائيلية قد عبرت إلى الضفة الغربية من القناة، وبكثافة عـالية، وأنهم يحاولون دخول مدن القناة، عكس البيانات والمعلومات التى تقول، إن الثغرة التى أحدثتها القوات الإسرائيلية عبارة

عن عـدد مـحـدود مـن الدبابات الإسـرائيليـة، عـبـرت القناة إلى الضـفـة الغـربيـة عند الدفرسوار، وهو ما يحدث دائما فى المعارك التى يكون فيها كر وفر.

وفى ٢٣ أكتوبر استصرخ السادات الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، للتدخل من أجل وقف إطلاق النار، وطالب المقاومة بالدفاع عن الوطن. وكان ذلك شيئا كافيا لإعطاء صـورة عن الموقف الحـرج، الذى وصلت إليـه الأوضـاع على الجـبـهـة. وبدأت صفحة السياسة بعد أن تم طى صفحة الحرب.

واستجابت إسرائيل لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.

لقد لخص أحمد حمروش «لسعد»، السياسة الجديدة التى ينتهجها السادات، وذلك بعد لقاء مع السادات، وأنها تتضمن ثلاثة محاور وهى، وقف التعامل مع الاتحاد السوفييتى، التوقف عن خطوات السير فى طريق الاشتراكية، وأخيرا الابتعاد عن سياسة التقارب مع الدول العربية، وسارت الخطوات التنفيذية لهذه السياسة تتقدم خطوة خطوة، بدءاً بتصعيد اليمين المصرى أمثال سيد مرعى، وعثمان أحمد عثمان، ورشاد عثمان... الخ.

وجاءت دعوة من الحزب الشيوعى العراقى «لسعد وأحمد حمروش»، لحضور العيد الثانى والأربعين لتأسيس الحزب الشيوعى بالعراق.

وفى بغداد أبديا انبهارهما بالمد الثورى الذى لمساه فى العراق، فالدولة العراقية أعلنت تأميم النفط، كما تم عقد تحالف استراتيجى بين حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعى، وأصبح الجميع يساهم ويعمل من أجل إقامة عراق جديد.

كان هذا المناخ المتفتح، سببا فى أن تكون العراق وقت ذاك وطنا ثانيا للمصريين، الذين اتجهوا إليها بسبب الظروف السياسية والاقتصادية.

لقد عقدا عدة سهرات حميمية هناك فى قلب بغداد، مع أصدقاء أعزاء حرموا من هذه السهرات واللقاءات.. لقد التقوا هناك بعبد الرحمن الخميسى، وسعد لبيب، وأحمد عباس صالح، وإبراهيم عبد الجليل، وغيرهم من الذين فتح العراق لهم ذراعيه، بينما كانت السلطات المصرية قد أغلقت فى وجوههم الأبواب.

وفى ٢٩ مارس ١٩٧٦ وخلال اجتماع مشترك لمجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الإشتراكى أعلن السادات إلغاء الاتحاد الاشتراكى، وقيام ثلاثة منابر كبديل لتنظيم الاتحاد الاشتراكى، لها ثلاثة اتجاهات بين يمين ويسار ووسط، وفى نوفمبر من نفس العام، وبقرار من السادات، تحولت المنابر إلى ثلاثة أحزاب هى: حزب مصر العربى الإشتراكى، برئاسة ممدوح سالم - وحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، ويرأسه خالد محيى الدين - وحزب الأحرار الاشتراكى، ويرأسه مصطفى كامل مراد.

وخلال اجتماع موسع، لإعلان تأسيس حزب التجمع الوطنى التقدمى، حضره «سعد» وكل الذين بقوا على الساحة من الناصريين، والعديد من الشيوعيين، أمثال إسماعيل صبرى عبدالله، وأحمد حمروش، ومحمود توفيق، وزكى مراد، واكتشف «سعد» بعد توقيعه على وثيقة تأسيس الحزب مع مختلف ألوان الطيف الشيوعى، أن عوامل الخلاف الموجودة بين المؤسسين أكثر من عوامل الاتحاد، وهكذا كان ميلاد حزب التجمع.

وبعد الاجتماع التأسيسى لحزب التجمع، ظهر اتجاه جديد يعمل على إعادة بناء التنظيم السرى للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، وبدأت الخطوات التنفيذية بمشاركة كل من زكى مراد، ومحمود توفيق، وكمال عبد الحليم، ورفعت السعيد، وأحمد رفاعى، إلى جانب «سعد».

وكانت أول مسئولية تولاها «سعد» بعد الخطوات الأولى من التأسيس، هى مسئولية تأمين هروب الشاعر أحمد فؤاد نجم وزوجته وقتذاك عزة بلبع، وكذلك الشيخ إمام، خاصة وأن أغانيهم ألهبت الحماس الوطنى، وكانت مصدر إزعاج للسادات واليمين المشارك معه فى الحكم.

إلى جانب أن قام بتأسيس خلايا للحزب بين الصحفيين والفنانين، ففى الأهرام تولت مسئوليتها أمينة شفيق، وفى الأخبار كان مسئولا عنها عبد العال الباقورى، وخلية الصحافة جميل شفيق، وهكذا كانت هناك خلايا بالإذاعة والتليفزيون.... وكانت هذه الخلايا مجرد بذرة، ولكنها بدأت تنمو وتتشعب.

وفى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ هبطت طائرة أنور السادات فى مطار بن جوريون فى القدس، وردد الجميع سؤالا واحدا ، هل هى فعلا رحلة للسلام، أم رحلة للاستسلام!

السلام يحتاج إلى دراسات ومشاورات ووضع استراتيجية وتكتيك.

أما الاستسلام فهو الذى يقوم على المغامرة وعدم التفكير فى العواقب. كان السادات يظن أنه بزيارته للقدس، يقوم بصدمة لكسر الحاجز النفسى بين العرب والإسرائيليين، دون أن ينجح فى مؤازرة أحد من ملوك ورؤساء الدول العربية.

وداخل مصر لقى الحدث رفضا من قبل جميع القوى السياسية والشعبية. وأحيل للمدعى الاشتراكى كل من: محمد حسنين هيكل، ومحمد سيد أحمد، وأحمد فؤاد نجم، وصلاح عيسى، وأحمد حمروش، لمعارضتهم للزيارة.

فجأة دق جرس التليفون عند «سعد»، وكان المتحدث محمد إبراهيم كامل، رفيق درب الأربعينيات والخمسينيات، وعلى غير العادة كانت المكالمة جادة، وألح فى نهايتها محمد إبراهيم على لقاء عاجل مع «سعد» لأمر مهم.

كان محمد وقتذاك سفيرا لمصر فى بون، وتم اللقاء فى منزل سميرة هانم بالمقطم وهى والدة نجيب فخرى، وخالة محمد إبراهيم.

وعند اللقاء كان محمد ولأول مرة فى حالة عصبية، وحائرا يطلب المشورة من «سعد»، ودخل محمد فى الموضوع، وأخبر «سعد» أن معارضة أنور السادات تعدت الشارع المصرى ووصلت إلى وزارة الخارجية، وتولد تيار قوى داخل الوزارة يعارض اسلوب أنور السادات، فى إدارة المفاوضات مع الجانب الإسرائيلى، وانفراده بالقرارات، ورفضه لأية مناورات، فى محاولة للمحافظة على حقوق الشعب المصرى، حتى يتم توقيع اتفاقية تحفظ لمصر كرامتها، وأضاف بأن أنور السادات يهرول فى طريقه للمصالحة، ويوافق على أي شروط تمكن إسرائيل وتضعها هى المسيطرة على مقدرات الشعب المصرى.

وهناك معارضة تامة لهذه الهرولة داخل الخارجية المصرية، بدأت بإسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير خارجيته، الذى اعترض تماما على سفر أنور السادات إلى القدس، وتبعه محمد رياض وزير الدولة للشئون الخارجية، ثم الدكتور مراد غالب سفير مصر فى موسكو... وأن السادات أصدر قرارا بتعيينه وزيرا للخارجية دون استشارته، أو حتى التمهيد له ليعرف وجهة نظر محمد فى قبول أو رفض هذا المنصب، واستطرد محمد بقوله إنه قابل أنور السادات فور وصوله من ألمانيا، ورفض سماع أية وجهة نظر لمحمد، لأن القرار صدر ولا عودة فيه!!

وفجأة توقف محمد سائلا «سعد» ، ما رأيك فى تلك الورطة وبماذا ينصحه؟.

إمتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل، وأخذ «سعد» يشجع محمد على أهمية قبول المنصب على أساس الثقة المطلقة فى وطنية محمد، وأنه فى إمكانه إذا استمرت العلاقة الحميمية، والتى بدأها أنور السادات أن ينجح فى تنفيذ خطة وزارة الخارجية، التى تستهدف ضرورة التمسك ببعض الأساسيات، التى تمكن من الوصول إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل لا استسلام. وأخذ «سعد» يذكره بأنه مقاتل من أجل مصر، وأن عليه الوقوف الآن بجانب أنور السادات، لإنقاذه من الانزلاق إلى اتفاقية مجحفة، وذلك فى حد ذاته عمل شجاع لا يقل أهمية عن أى عمل فدائى.

أجهش محمد بالبكاء عند افتراقه عن «سعد» ، وقال لقد طلبت وألححت على مقابلتك، وكلى ثقة أنك ستشجعنى على الرفض، ولكن للأسف حملتنى الآن مسئولية تاريخية صعبة.

ولم يدم محمد إبراهيم كامل وزيراً لخارجية مصر طويلا، لرفضه أى تفريط فى حقوق مصر واستقلال. واستمر السادات على مواقفه، وتم توقيع اتفاقية كامب دافيد. وناصبت الدول العربية مصر العداء، وفقدت بذلك موقع الريادة الذى كانت تتبوأه. فقد حققت الاتفاقية كل الأهداف التى سبق أن أعلنها أنور السادات عقب توليه السلطة، وهى البعد عن الاتحاد السوفييتى وعن الدول العربية، وإيقاف خطوات المضى فى طريق الاشتراكية.

إزدادت المعارضة لسياسة أنور السادات خارج وداخل مصر، وانتشرت أشعار أحمد فؤاد نجم، الذى أخذ يغنيها الشيخ إمام، ورددتها الآلاف من الجماهير، وأصبحت صورة من صور المعارضة للسياسة الجديدة.

لقد بدأت خلايا الحزب الشيوعى الجديد تنشط، وخاصة بين المهنيين مما جعل «سعد» مستهدفا للقبض عليه، فاختبأ بأحد شاليهات العجمى المتطرفة وأدار المعركة من هناك.

وقام عبد اللطيف البغدادى برفع شعار نحو جبهة وطنية، ضد سياسة أنور السادات، وقام باتصال من الحزب الشيوعى الجديد، وتمت اجتماعات تمهيدية مع أحمد رفاعى و«سعد» . وواصل البغدادى كذلك اتصالاته بكل القوى الشعبية، بل قام بزيارة لفؤاد سراج الدين ليلا بدون موعد سابق، لينظم معه أسلوب تنظيم المقاومة الشعبية، ورحب فؤاد سراج الدين بالتعاون مع عبد اللطيف البغدادى، رغم وقوفه متهما أمامه فى محكمة الثورة.

لقد كانت قمة المأساة فى سياسة أنور السادات، يوم اغتيل يوسف السباعى فى قبرص بصفته من رجال أنور السادات الموافقين على الاستسلام لأمريكا وإسرائيل، خاصة بعد أن أعلن السادات مقولته الشهيرة، بأن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا.

تتزايد المعارضة مع مرور الأيام خاصة بعد توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية للتطبيع فى مارس ١٩٧٩.

وفى أغسطس ١٩٨١ لم يكن أمام أنور السادات أى وسيلة للدفاع عن نفسه، سوى إعلان الحرب على كل الفئات، وتم اعتقال ١٥٦٣ شخصية دينية وسياسية وثقافية من مختلف الاتجاهات، حسنين هيكل، فؤاد سراج الدين فتحى رضوان عبد العظيم أبو العطا.... وفى الصحافة تم إبعاد ٤٠٠ صحفى إلى أعمال ووظائف خارج النطاق الصحفى، وكان أن أبعد «سعد» من أخبار اليوم إلى مصلحة الاستعلامات.

وفى ٦ أكتوبر ١٩٨١... تحولت سياسة أنور السادات، إلى إثارة وتحفيز على الاغتيالات... ليقع أنور السادات قتيلا برصاصات الإرهاب، وهكذا يستمر «سعد» يسبح ضد التيار وحيدا، بعد أن بدأ رفقاء الطريق يتساقطون.. حسن فؤاد، وأبو العينين، ويوسف حلمى، وصلاح حافظ، ثم صلاح جاهين الشاعر الفنان مرهف الحس، الذى عبر عن المثقفين المصريين خير تعبير، وأصبح سندا قويا للثورة والنظام الذى انهار يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، وبدأ حلم من الإبرة إلى الصاروخ يتبدد، وأصبح خدعة كبرى. لقد شارك «سعد» صلاح جاهين فى محنته، والإحساس بالذنب، وبالمشاركة فى الجريمة الكبرى، وحلم انطلاق الوطن وتحقيق رفاهية كل مواطن اقتصاديا وثقافيا، يوم أن غنى لقصور الثقافة، والتى عايش تجربة نهضتها، وشاهد بنفسه كسر احتكار الثقافة للقلة بقوله «أوبرا على كل ترعة».

لم يتوقف «سعد» عن السباحة، رغم التيار المتدفق ضده، وقلبه العليل الذى أجرى له العديد من العمليات الجراحية.

لقد أشهر قلمه، وكتب العديد من الآراء والاقتراحات السياسية، التى لاقت قبولا حسنا من العديد من قراء الأخبار... ولكن القلب العجوز اضطره لأن يتوقف عن الكتابة، غير أنه يقاوم التيار.....

ويتحدى.... ويتحدى...

* * *



يوم الحكم فى قضية ٤ فبراير

المنى ؛ وهو معنى يجمع كل ...
فيه من حواس النطق والإ...
وكل جارحة من جوارح ال...
والإبتداع ، فانطلق وكان ...
العبارة بمثابة القطعة الحمراء ...
يلوح بها الثور فيندفع ولا ...
على شيء ..

قالوا كلمتهم ...

وأخيرا ...
هذه قضية ٤ فبراير ..
وقد قال الملك كلمته فى
فبراير لن الأمر الكريم ...
النحاس باشا يوم ٩ أكتوبر سـ...
١٩٤٤ .
وقال الشعب كلمته باستنكا...
الحادث والمشتركين فيه
وقال المتهمون كلمتهم ...
طريقتهم الخاصة ..
وقالت الصحف المصرية كم...
قلمت حادث ٤ فبراير ...
المجرمين الذين ارتكبوه
وقالت النيابة العمومية كما
... ممثل النيا...
العمومية الأستاذ أنور حبيـ...
يقول بالحرف الواحد :
« أننا جميعا نعتبر يوم ٤ فبر...

رسم كاريكاتير بريشة الفنان صاروخان .. لخص كل أحداث القضية .. فعلى المنصة فى الوسط المستشار عبد اللطيف محمد - رئيس المحكمة وعلى اليسار وكيل النائب العام أنور حبيب وأمام المحكمة جلس شهود القضية من اليسار على ماهر ثم حسنين هيكل ووقف النحاس يدلى بشهادته وجلس بعده حافظ رمضان وحسين سرى الذى وقف خلفه مكرم عبيد الذى أدلى بشهادته إلى جانب مرافعته عن المتهمين .

وفى قفص الاتهام (١) أنور السادات (٢) سعد كامل (٣) حسين توفيق (٤) محمد إبراهيم كامل .



دنشواى

عدالة الاستعمار

صلاح حافظ

كمال عبد الحليم

مجلة الكاتب مع رسم كاريكاتير للفنان زهدى ومن كتاب العدد صلاح حافظ وكمال عبد الحليم ...



مذكرات حسين توفيق بخط يده

نصر صحفي عالمي

العدد ٢٠١ السنة الرابعة ٨ ذو الحجة ١٣٦٧ – ١١ سبتمبر ١٩٤٨ ١٢ صفحة

أول صورة تنشر له بعد الهرب

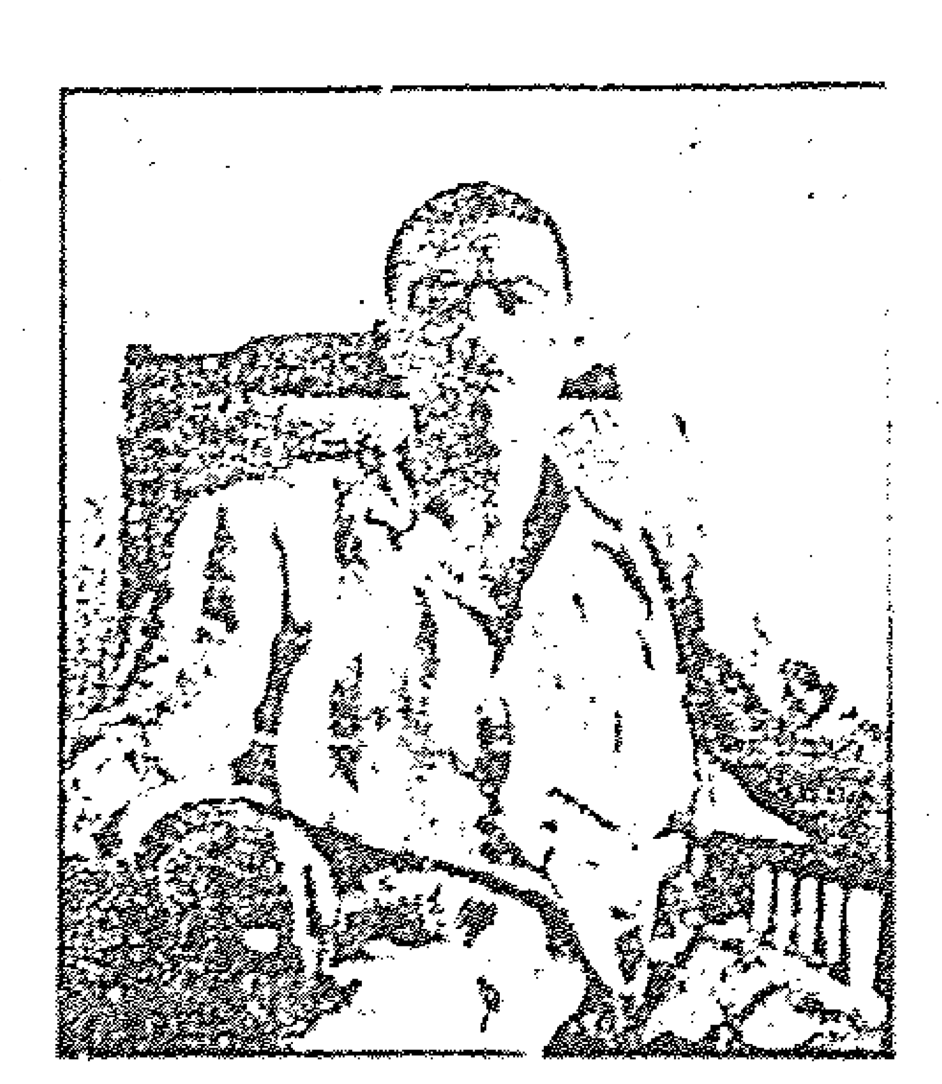
أخبار اليوم

٢ مليما

حكمة اليوم

أغرب قصة هروب في تاريخ مصر

الأستاذ حسين توفيق



بالبيجاما : كان حسين توفيق يقضي أغلب وقته في المخبأ وهو بالبيجاما . ومن الطريف انه لم يجد اي بيجاما في مقاس جسمه ... فذهب أحد أصدقائه ، ... ، ومعه خادمه الى خياطة وطلب منها عمل بيجامتين للخادم !.. واخذت الخادم ... ولا يزال الخادم حتى الآن بسطو البيجامتين !..



الأفندي : هكذا بدا حسين توفيق بعد أن اطلق شاربه ... ولقد فكر في أن يرتدي الملابس الافرنجية العادية ، ولكنه لم يلبث ان لاحظ أن شكله يبدو هكذا واضحا ، فقد ركب سيارة فلاحظ شبانا يشيرون اليه ويعرفونه !.. وعندئذ عدل عن ارتداء البدلة الافرنجية !



صورة الشهادة الإبتدائية



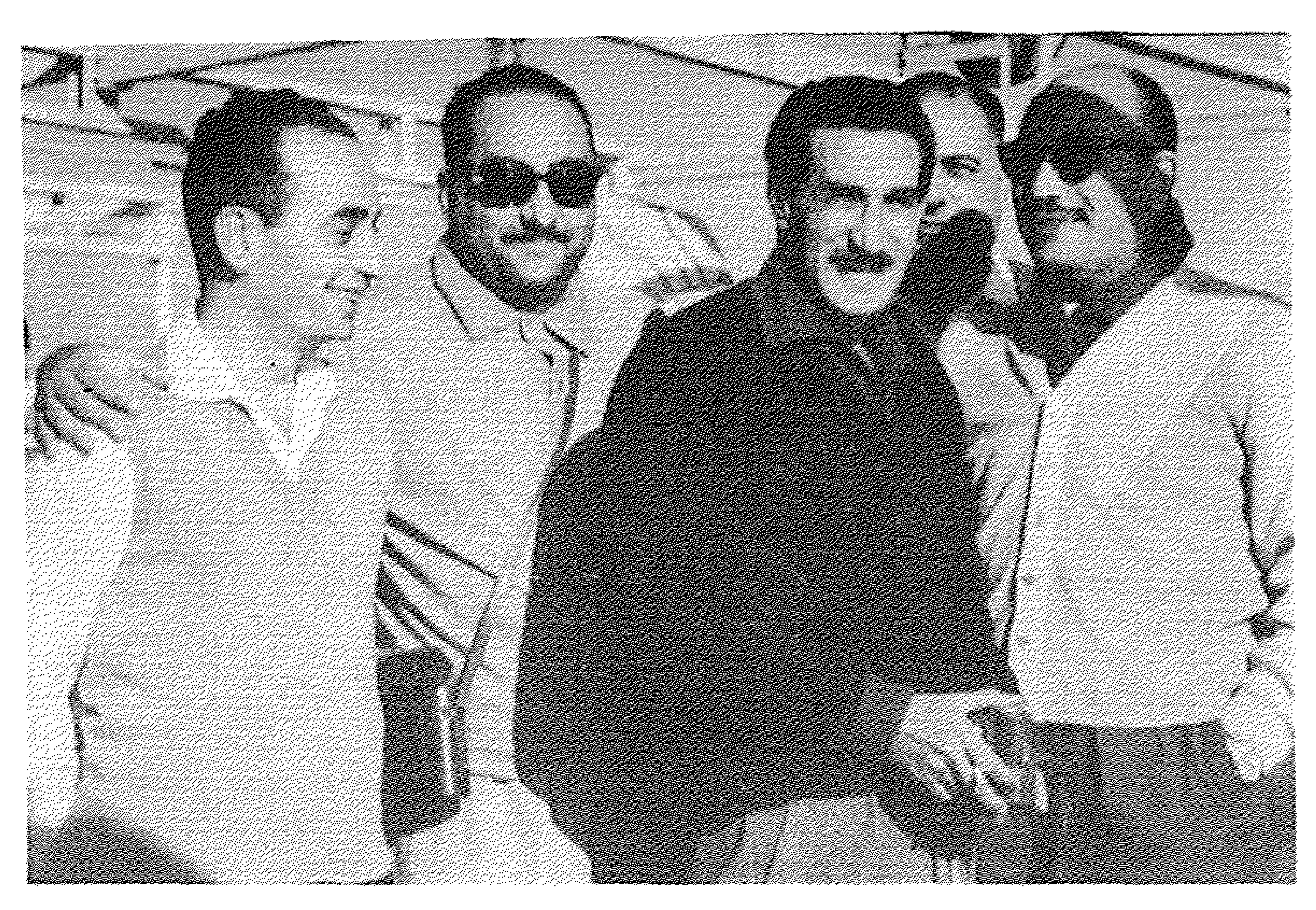
الخال فتحي رضوان مع سعد كامل وفتيان العائلة



أول حضور مصرى فى حركة السلام العالمية مؤتمر وارسو عام ١٩٥٠

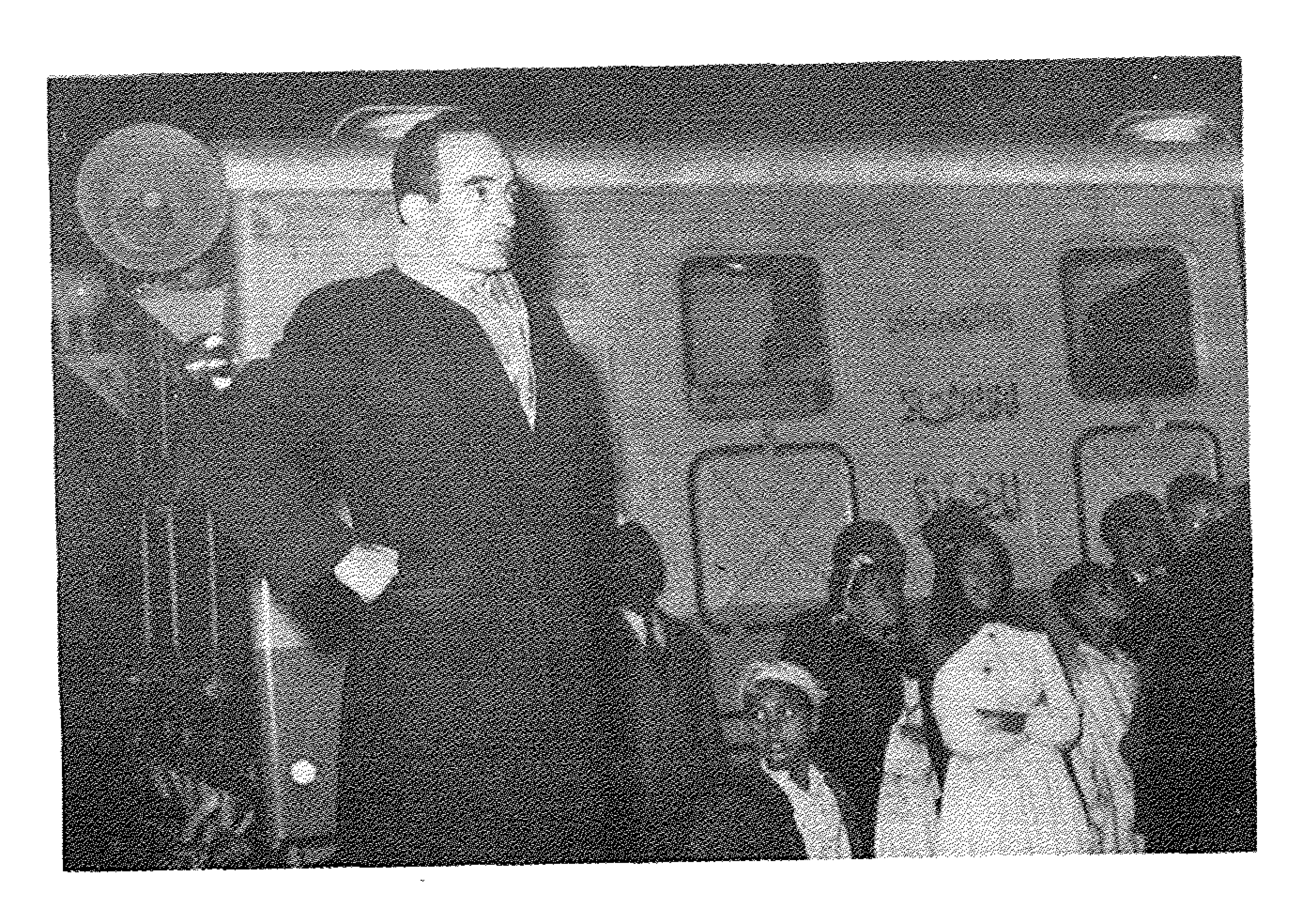


يوسف حلمى الفنان والمحامى وسكرتير عام حركة أنصار السلام

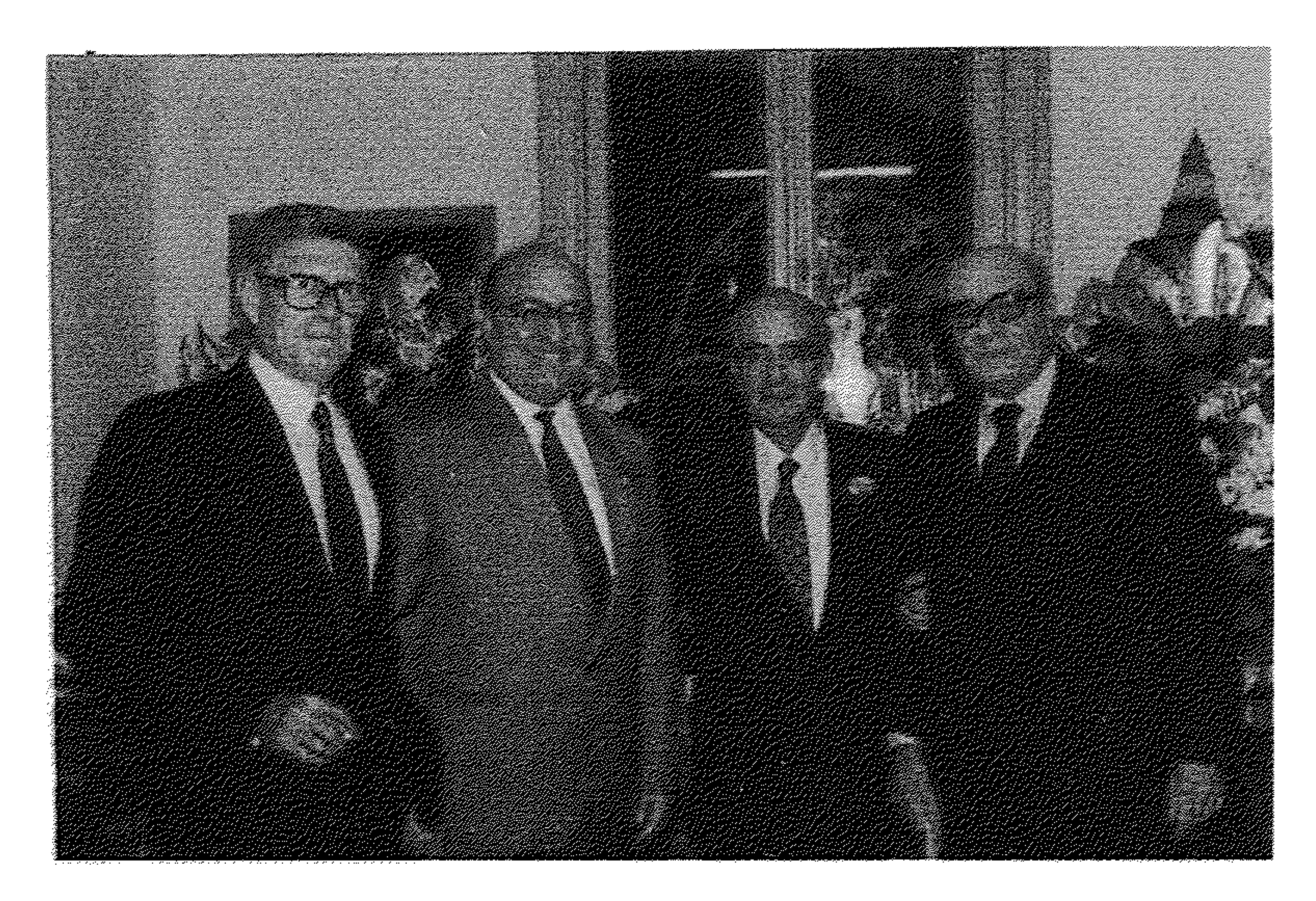


المثقفون والفنانون فى حركة للثقافة الجماهيرية

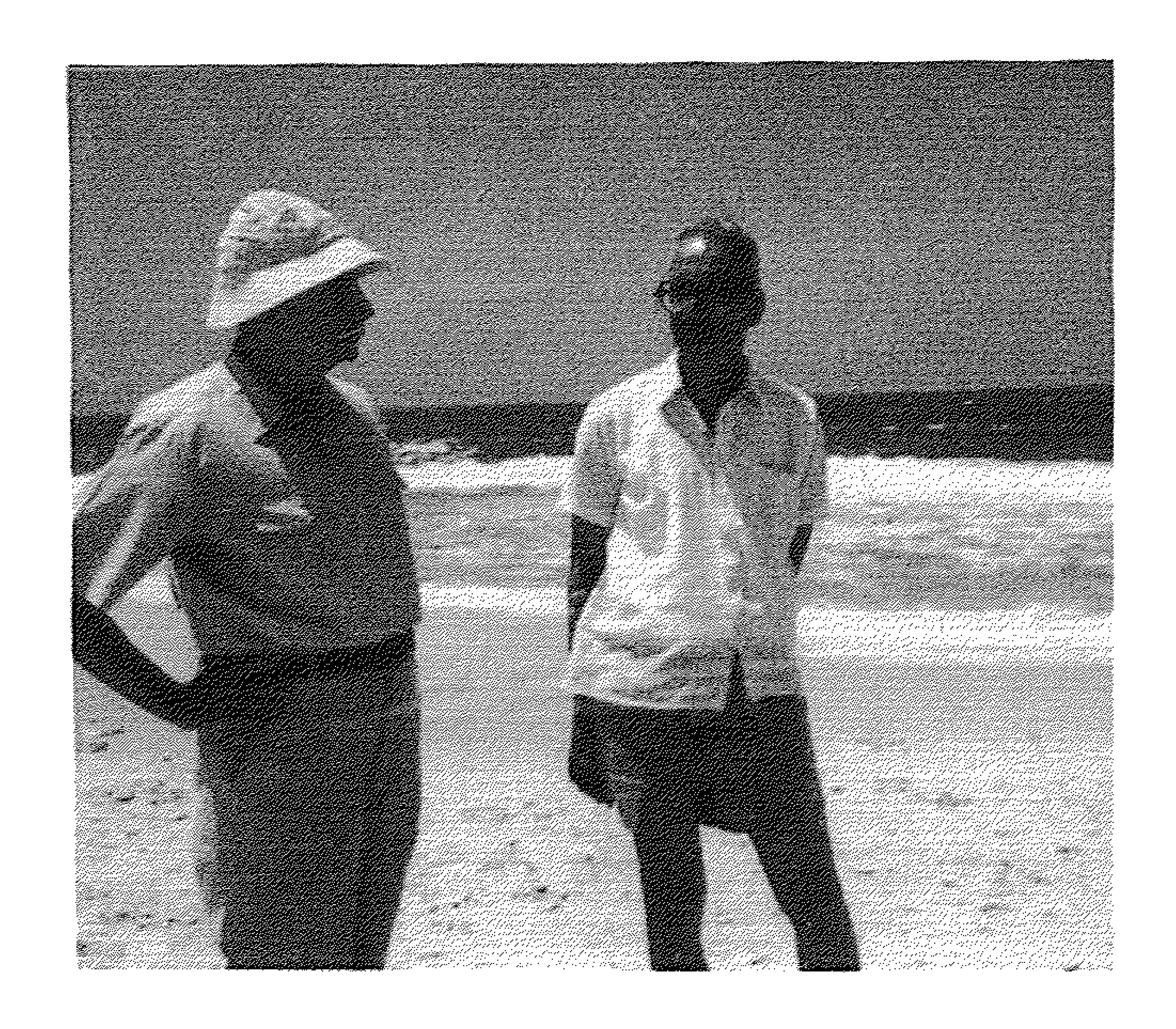
حمروش .. أبو العينين – حسن فؤاد سعد



مع قافلة الثقافة فى إحدى قرى الدقهلية...



أصدقاء العمر - نجيب فخرى - سعد - نبيل شعث - محمد إبراهيم كامل



واخيرًا مع شقيقه عز الدين بعد سباحة ضد التيار



العائلة . مارى ... الوالد ... الوالده ... سعد

بنت الأخ مها جمال .. وبنت الأخت الكاتبة الصحفية ليلى الراعى



السياسة والكتابة صيغة مشتركة تجمعهما

المراجع

* المحاكمة الكبرى فى قضية الاغتيالات السياسية..................... أ. لطفى عثمان

* محاكمة الشيوعيين المصريين - قضية الجبهة الوطنية .... أ. عادل أمين

* مذكراتى فى السياسة والثقافة ....

الجزء الأول والثانى .... د. ثروت عكاشة

* عصر ورجال .... الجزء الثانى.................. أ. فتحى رضوان

* خطى العتبة .... أ. فتحى رضوان

* النوافذ المفتوحة - مذكرات جزء أول وثانى .... د. شريف حتاته

* نسيج العمر .... أ. أحمد حمروش

* كلمتى للتاريخ .... لواء. محمد نجيب

* خمسون عاما من الثقافة الجماهيرية .... أ. محمود سعيد محمود

* حركة السلام الفكر والتكوين والمنهج .... أ. خالد محيى الدين

* والآن أتكلم .... أ. خالد محيى الدين

* الصامتون - تجارب فى الثقافة والديمقراطية بالريف المصرى... أ. عز الدين نجيب

* حدتو.. سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية .... أ. محمود الوردانى

* الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ .... أ. طارق البشرى

* عبدالمحسين أبو النور يروى الحقيقة عن ثورة ٢٣ يوليو.... أ. عبدالمحسن أبو النور

* أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن .... د. عبدالمغنى سعيد

* فلسفة الثورة .... جمال عبدالناصر

* السنهورى من خلال أوراقه الشخصية - .... نادية السنهورى - توفيق الشاوى

* هجوم على القصر الملكى - ٤ فبراير ١٩٤٢ .... د. محمد صابر عزب

* * *

المؤلف فى سطور :

عز الدين كامل

* المؤلف .. عز الدين كامل - من مواليد الفيوم سبتمبر ١٩٢٩

* شارك فى العمل السياسى فى سن مبكر .. واشترك فى جمعية سرية لمقاومة الاحتلال الإنجليزى وهو فى الرابعة عشر من عمره وانتهت بقضية الاغتيالات الكبرى والتى شارك فيها أنور السادات ، ومحمد إبراهيم كامل ، وسعد كامل ... وتم الإفراج عنه بعد تحويل القضية إلى محكمة الجنايات .

* ساهم فى دعم منظمة أنصار السلام والتى نجحت فى إسقاط معاهدة صدقى بيفن ومنع مشاركة مصر فى الأحداث العسكرية وتجميد النقطة الرابعة الأمريكية .

* تخرج فى كلية الزراعة جامعة القاهرة ثم عمل فى الإصلاح الزراعى وصدر له عن دار الفكر عام ١٩٥٨ أول كتاب عن مسيرة الاصلاح الزراعى ونقاط الضعف فى مسيرة العمل الزراعى .

* له دراسات مطولة ومجموعة كتب عن أهمية التعاون الزراعى فى دعم التنمية والديمقراطية أهمها :

- خبرات وتجارب دولية فى التعاون الزراعى - نحو تعاونيات لحل مشاكل التلاميذ - الطريف لمحو أمية الفلاحين. وعن دار الثقافة الجديدة صدر له كتاب «الزراعة الآلية» .

- من مؤسسى مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر وعمل رئيساً لتحرير المجلة الزراعية .

- صدر له أخيراً فى مجموعة اخترنا للفلاح كتاب مياه النيل أغلى ما نملك وكتاب الأمراض والفلاح والإصلاح الزراعى .

- عمل مستشاراً لجريدة التعاون وأقام على امتداد عشر سنوات عيداً للإنتاج الزراعى بهدف المنافسة فى زيادة الإنتاج بين الجمعيات التعاونية الزراعية .

الفهـــــــرس

المراجعة اللغوية : **سوزان عبد العال**

الإشـراف الفنى : **مهـــا عصـام**

هذا الكتاب الذى خطه قلم عز الدين كامل (شقيق سعد كامل) يعد نموذجًا للسيرة الذاتية التى تعرضت للأحداث التى مر بها الراحل منذ ولادته فى السيدة زينب عام 1923 ونشأته صبيا فى بيت أسرته بالفيوم، والتى جذب بعض أفرادها الاهتمام بالعمل السياسى والجماهيري، مما أتاح للراحل فرصة التعرف على شخصيات لعبت دورًا أساسيًا فى تاريخ مصر منذ فترة النضال الشعبى ضد الاحتلال البريطانى إلى قيام ثورة 23 يوليو واشتراكه معها فى أعمال سجلها تاريخ النضال من أجل الحرية والتقدم والسلام.

ولا شك أن صدور هذا الكتاب عن سعد كامل يعتبر إضافة هامة وإيجابية لتعريف الأجيال الجديدة بما قام به رواد هذه الفترة من أعمال وتضحيات تستحق الإشادة والتقدير، وهو فى مضمونه حافز للقراء لمطالعة تاريخ مصر فى فترة من أمجد فترات تاريخها الحديث.

البورتريه بريشة حسن فؤاد

الغلاف: مها عصام



